الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
سلسلة البحوث الإسلامية
(٥٤/١٩)

عقيدتنا



تأليف الأستاذ الدكتور
محمد ربيع محمد جوهري
أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين بالقاهرة وعميدها السابق
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

الجزء الأول

الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
سلسلة البحوث الإسلامية
(٥٤/١٩)

عقيدتنا

تأليف الأستاذ الدكتور
محمد ربيع محمد جوهري
أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين بالقاهرة وعميدها السابق
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

الجزء الأول

السنة الرابعة والخمسون - الكتاب التاسع عشر
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

جمهورية مصر العربية
الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
شارع الطيران ـ مدينة نصر
القاهــرة

فهرست الهيئة المصريّة العامّة
لدار الكُتُب والوثائق القوميّة

جوهري، محمد ربيع محمد
عقيدتنا جـ١

ص ٥, ٢٥×١٧ سم
عدد الصفحات: ٢٦٨

١ـ ضرورة الدين للإنسان
٢ـ حول علم التوحيد
٣ـ الإيمان والإسلام
٤ـ الكفر والتكفير
٥ـ مرتكب الكبيرة
٦ـ وجود الله تعالى
٧ـ صفات الله تعالى
٨ـ ولله الأسماء الحسنى

الإدارة العامة للمطبوعات
رقم الإيداع: ٢٠٢٢/٢٥٥٨٤
الترقيم الدولي: ٤ – ٥٣٦ – ٢٠٥ – ٩٧٧ - ٩٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تصدير

بقلم

الأستاذ الدكتور/ نظير محمد عيَّاد

أمين عام مجمع البحوث الإسلامية

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والعاقبةُ للمتقين، والصَّلاة والسَّلام على المبعوث رحمةً للعالمين سيدنا ومولانا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَنْ والاه، وبعد،،،

فلقد اتخذتْ دراسة العقيدة الإسلامية والتعريف بها منهجين:

أحدهما: المنهج القرآني.

والآخر: المنهج الكلامي أو طريقة المتكلمين.

أما عن المنهج القرآني، فالقارئ للقرآن الكريم المتدبر في آياته المتأمل في أسلوبه؛ يقف على أن القرآن الكريم اعتمد - في دعوته إلى الإيمان بالله - تعالى - وما يتبع ذلك من المسائل العَقَدية والقضايا الإيمانية - على ما هو مركوز في الفطرة؛ فقد فطر الله - تعالى - الإنسان على الاعتراف بوجوده؛ فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾[الأعراف: ١٧٢].

فالله - تعالى - خلق الإنسان واعتنىٰ به، وسخر له الكون بأسره؛ ليقوم على أمره ويؤدي مهمته، وينجح في وظيفته؛ فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟

ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس: ٣٣-٤٠].

ولا شك أن غير الله - تعالى - لا يملك من أمر نفسه شيئًا، فكيف بأمر غيره؟! ومن ثَمَّ، كان له الخلق والأمر والنهي، فقال سبحانه: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾[الحج: ٧٣].

ثم غذَّىٰ هذه الفطرة؛ فدعا إلى النظر والتأمل في الكون كله العلوي والسفلي، وفي النفس الإنسانية، فقال: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ١٦٤].

وقال أيضًا: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[فصلت: ٥٣].

هذا إلى جانب كثير من الآيات التي دعت إلى التعرف على مسائل العقيدة وقضايا الاعتقاد، من خلال أسلوبٍ واضحٍ ومتعارفٍ، يتناسب مع مستويات العقول ودرجات الأفهام.

ويمكن الوقوف على ذلك من خلال عرضه لوجود الله ـ تعالى ـ فنجد أن القرآن الكريم سلك منهجًا فريدًا لم يُسبق إليه، وكان ذلك المنهج مستمَدًّا من طبيعة القرآن ومن رسالته؛ فالقرآنُ كتابٌ سماويٌّ، نزل يخاطب الناس على اختلاف الأشكال والألوان، وعلى امتداد الزمان والمكان، ومن هنا، فقد خالف بين الأدلة التي نصبها؛ لإثبات وجوده ـ تعالى ـ ومعرفته، والوصول إليه، فجعل القرآن هذه الأدلة درجات، وأقامها طبقات، ووضعها في قالب تتقبله العقول على اختلافها، وتستسيغه الأفهام على تباين درجاتها.

ومن الممكن أن نضع الأدلة القرآنية على وجود الله في ثلاث درجات متمايزة، كل درجة منها تخاطب فئة من الناس غير الفئة التي تخاطبها كلٌّ من الدرجتين الأخيرتين:

[الأولى] أَدِلَّةٌ مُوَجَّهةٌ إلى العامة والسذج:

الذين لا يملكون من قوة الفهم ما يرتفع بهم عن مستوى الأرض وما يدب عليها، أو مستوى أقدامهم وما يقع تحتها، ولقد جاءت الأدلة لهؤلاء من نوع ما يفهمون؛ ولذلك نراها من جنس ما يشاهدونه من أرضٍ مبسوطةٍ، وسماءٍ مرفوعةٍ، ومخلوقاتٍ مألوفةٍ، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[الغاشية:١٧ـ٢١].

وهذا الدليل من طبيعة الدليل العربي المشهور الذي جاء على لسان

الأعرابي: «البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذاتُ فِجَاج، وبحارٌ ذاتُ أمواج، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟!»[1].

[الثانية] أدلة فيها الأسباب والمسببات الظاهرة:

وفي هذه الدرجة يخاطب الله ـ تعالى ـ فئة من الناس هم أعلى درجة من سابقتها، وهنا يرتفع الله بالإنسان درجة عن النظر الحسي فقط إلى الاستدلال المنطقي؛ وذلك عن طريق المسببات والبحث عن أسبابها، والمعلولات الظاهرة والتفكير في عللها؛ يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد: ٢ـ٤].

[الثالثة] أدلةٌ فيها الأسباب والمسببات الخفية:

وفيها يخاطب الله ـ سبحانه ـ أصحاب العقول القوية، والأفهام الذكية، والنظر السليم، وهي تقوم على الأسباب والمسببات، والعلل والمعلولات، ولكنها تختلف عنها في أن هذه أخفى من سابقتها، وتحتاج إلى دقةٍ في الفهم، وعمق في النظر والاستدلال؛ يقول تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢٠، ٢١].

فهذه الآية توجه الأنظار والعقول إلى التفكير في كيفية خلق الأرض، وجعلها

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لمؤلفه العلامة: أحمد بن محمد المقري التلمساني (٥/ ٢٨٩)، تحقيق: د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

طبقات، وإلقاء الرواسي؛ لئلا تميد، وشق فيها الأنهار، وجعل فيها أُممًا من الكائنات، وأنبت فيها النبات، ونَوَّعَ فيها الحيوانات؛ اقرأ معي قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٥].

وهي شاهد صدق على الله رب العالمين، والإنسان نفسه آية فريدة دالة على الله؛ هو وحده عَالَمٌ خاصٌّ؛ اجتمع له مِنْ حُسْنِ التصوير، ومِنْ قُوَىٰ الإدراك والشعور والبصيرة ما لم يَحظَ به غيره.

هذا هو منهج القرآن الكريم في الاستدلال على وجود الله، وهو منهج يخاطب العقول كلها والناس على اختلاف مستوياتهم الذهنية والثقافية؛ ذلك أن القرآن أنزل إلى الناس كافة وإلى الخلق أجمعين؛ فلم يخاطب فئة دون فئة، ولم يُعْنَ بفريق على حساب فريق، إنما عُني بالجميع، فبعث الأدلة على وجود الله في ثنايا آياته، وبصورة تناسب جميع المستويات، وبذلك كانت الأدلة من كتاب الله في متناول الجميع[(١)].

وأشار الدكتور محمد غلاب إلى هذا المسلك قائلًا: «إن المبدع - جل شأنه - علم أن الناس سيتفاوتون في الفهم والتفكير، وإدراك الحقائق، والوصول إلى المعرفة، وسيكونون على درجات مختلفة، ومراتب متباينة، وستفصل بينهم فروق شاسعة وهوات سحيقة، وأن فريقًا منهم لن تهيئ له ظروفه وحالته أن يتلقى شيئًا من العلم، أو يتلقى نتفًا منه فقط، وقد لا تسعده وراثته إلا للمخطئ من المعارف أو قد تسعفه بيئته بالقشور من الثقافة دون اللباب، أو قد تحصره البيئة

(١) انظر: أضواء على قضايا العقيدة الإسلامية «الإلهيات»، د/ محمد العزيري (١/ ١١٥ - ١١٨) ط:١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

والتربيـة في دائـرة ظـواهر المرئيـات، أو تسـجنه العقيـدة في منطقـة الأسـاطير والخرافات.

وإن فريقًا آخر قد يجرفه تيار عصره المادي إلى الاقتناع بأن الموجود المادي لـم يثبت إلا للمادة وحدها، وأن القوة العارفة هي الحواس وحدها، أو هي والعقل في حال اعتماد الذهن على الحواس أو المحسوس، وإن فريقًا من البشر يركن إلى العقل ركونًا قويًا، أو يعرج إلى البصيرة المستنيرة، ويحاول الاستفادة بما يَرِد عليها، فلأن الحق ﷻ عَلِمَ مِنْ عبادِهِ هذه الاتجاهات كلها؛ نوَّعَ لها الأدلة، ورسم للمعرفة طرقًا تلتئم أحكم الالتئام مع كل الطوائف البشرية، وتتسق أمتن الاتساق مع مختلف العقليات، ومتباين الملكات، دون أن يُكرههم كلهم على أن يكونوا في مستوى واحد، وأن ينظروا إلى الموجودات أو يصعدوا إليه بمنظار واحد، أو يفكروا في محيط واحد، وحتى لا تكون أقواله وأدلته مباينة للحكمة من خلق عبيده المتفاوتين، لو أنه ساق للجميع دليلًا واحدًا»[(١)].

إضافة إلى ذلك، فقد راعى القرآنُ الكيان الإنساني كله، فخاطب العقل والقلب، والشعور والعاطفة، وعالج النفس، وجادلها مجادلة حسنة محكمة، أو حاورها محاورة مثمرة ومقنعة، فلم يُهمل جانبًا إنسانيًا لحساب جانب آخر، بل عدَّد الحجج والأدلة العقلية والوجدانية التي يؤمن بها العقل والقلب معًا[(٢)].

وهذا ما يتميز به المنهج القرآني وينفرد.

أما المنهج الآخر، فكان خاصًا بالمتكلمين الذين آمنوا بالله ـ تعالى ـ وَصَدَّقوا بأركان الإيمان، إلا أنهم رأوا ضرورة البرهنة عليها بالأدلة العقلية؛ فكان الأمر

---

(١) المعرفة عند مفكري المسلمين، د/ محمد غلاب، ص: ١٢٤، ١٢٥.

(٢) القرآن والفلسفة، د/ محمد يوسف موسى، ص: ١٥.

لديهم أنهم نقلوا: «الوضع من فطرةٍ وعاطفةٍ، ومخاطبةٍ لهما بالنظر في آيات الله في الكون، إلى دائرة العقل والنظر، ومن فن جميل إلى علم ومنطق، ومن قلبٍ إلى رأس؛ فبدلًا من أسلوب القرآن في قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ١٠]، وضعوا طريقتهم في بيان حدوث العالم، واضطر بعضَهم ذلك إلى القول بتركيب أجسام من أجزاء لا تتجزأ، وإقامة الدليل على عدم حدوثها بنفسها، إلى أن يصلوا إلى إثبات وجود الله - تعالى، وهكذا سلكوا هذا السبيل في إثبات وحدانيته، وسائر صفاته سبحانه»[(١)]؛ بل سائر قضايا الاعتقاد ووسائل الإيمان.

وأمام هذين المنهجين أُلِّفت الكُتب، ووُضعتْ المؤلَّفات التي عرضت للعقيدة الإسلامية وموضوعاتها إما بأحدهما أو بهما معًا.

والكتاب الذي بين أيدينا لشيخنا الجليل الأستاذ الدكتور: محمد ربيع الجوهري - أستاذ العقيدة والفلسفة في كلية أصول الدين بالقاهرة وعميدها الأسبق، عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف - جمع فيه بين المنهجين بلغةٍ سهلةٍ، وبعبارةٍ واضحةٍ، وأسلوبٍ دقيقٍ، ومنهجٍ مستقيم، حرص من خلاله على عرض العقيدة الإسلامية عرضًا دقيقًا، يكشف عن آثارها في تكوين شخصية المسلم؛ بوصفها الجذر الأول في بناء هذه الشخصية، والعنصر الرئيس في تحريك عواطفه، والأداة المُوَجِّهَة لإرادته، ومتى صَحَّتْ عناصر الإيمان في الإنسان استقامت الأساسيات الكبرى لديه، وكان أطوع للهداية، وأقرب للطاعة، وأقدر على التحكم في سلوكياته واتجاهاته، كما استطاع أن يضبط ميوله ورغباته، وهذا مقصد الإسلام ومطلبه.

---

(١) ينظر: مبادئ العقيدة الإسلامية، د. مصطفى الخن، صـ٨٠، ٨١، ط:٩، ١٤١٦-١٤١٧هـ، ١٩٩٦-١٩٩٧م.

لقد تضمنت موضوعات الكتاب عرضًا لأركان الإيمان ومسائله، مع ربطٍ تامٍّ بين الركن وآثاره في واقع الناس، وأمور حياتهم؛ ولهذا نراه قد أفرد صفحات لقضايا ظهرت، ومسائل استجدت أو طرأت على أفهام بعض الناس في بعض مسائل الاعتقاد؛ فنتج عنها أحكام جائرة أحيانًا، وأخرى خاطئة، أو لزم عنها تفسيرات متشددة وأخرى منفلتة بعيدة عن الانضباط، أو أظهرت آراء جامدة؛ تأبى التجاوب مع معطيات النص القرآني وأسلوبه، وأخرى أطلقتْ العنان لنفسها في تفسيره، والأخذ بما تراه مؤيدًا لهواها، وداعمًا لمبتغاها.

كثيرة هي القضايا والموضوعات التي عرض لها هذا الكتاب، ومع كثرتها تميزت بالدقة في العرض، والموضوعية في الحكم، والأمانة في النقل، والاكتفاء بما يحقق صحيح الاعتقاد، وكمال الإيمان، من غير الدخول في مناقشاتٍ كلاميةٍ، أو خلافاتٍ مذهبيةٍ؛ اللهم إلا النذر اليسير، دعت إليه الحاجة، واقتضته الظروف من ناحية، وإرضاء لتطلعات بعض العقول والأفهام من ناحية أخرى، وهو في كل هذا حريص على أن يغذي الفطرة والوجدان، ويرضي العقل من غير غلوٍّ أو تغليبٍ لأحدهما على الآخر؛ فهذا ليس موضعه.

وبالجملة، فالكتاب يناسب العامة والخاصة؛ إذ يجد فيه كلاهما ما يكفي لتعريف كثير من قضايا العقيدة وموضوعات الإيمان.

فضلًا عن وجود إجابات عن تساؤلات عديدة ـ قد تَرِد على أذهانهم ـ تبعث على الشك، أو تدعو إلى الحيرة.

كما يجدون فيها ـ كذلك ـ تفسيرات وافية للمنهجين اللَّذَيْنِ عُرِضَتْ بهما العقيدة ـ أعني: المنهج القرآني والمنهج الكلامي ـ وأن كليهما ضروري، وأنه لا تعارض بينهما ولا تنافر، فكما قيل: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ

يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!»[١]، وكما قيل: البلاغة: مراعاة مقتضى الحال[٢]، ولكل حادث حديث.

ومن ثَمَّ، كان المنهجان (القرآني والكلامي)، واستخدامهما معًا، أو الاكتفاء بأحدهما لا يناقض أصلًا، أو يعارض شرعًا؛ فالحكمة ضالة المؤمن أنَّىٰ وجدها فهو أولى النَّاس بها.

لقد جاء الكتاب جامعًا بين الأدلة النقلية والعقلية والبراهين العلمية، جامعًا بينها في موضع؛ كالحديث عن الله ـ تعالى ـ ووجوده، أو مكتفيًا بالعقل والنقل في موضع آخر؛ كالحديث عن بعض الصفات الإلهية، وموضوعات النبوة، أو متوقفًا عند الدليل النقلي فقط؛ كاليوم الآخر وأحداثه.

وكم كان أستاذنا دقيقًا؛ إذ فصَّل القول في قضايا الإيمان هذه بعد أن قَدَّم لها بفصلين؛ عرَّف في **الأول**: الدين وأهميته وضروريته، وهل يحتاج المرء إليه أو يمكن الاستغناء بالعقل بديلًا عنه؟!

وفي الفصل الثاني: عرَّف العقيدة وموضوعاتها وأسماءَها، وعوامل الاختلاف التي أدت إلى نشأة الفِرَقِ الكلامية، وكل ذلك رغبةً منه في أن تأتي موضوعات الكتاب وقضاياه وفق هذا العنوان: **(عقيدتنا)**.

وجاء العرض كاشفًا لحقيقة هذه العقيدة، التي هي قريبة المنال، سهلة الأَخْذِ، عظيمة التأثير، واضحة الأهداف، سامية المقصد، ربانية المصدر، تامة

---

(١) قول الإمام علي ﷺ (صحيح البخاري، كتاب: العلم، باب: من خص بالعلم قومًا دون قوم، كراهية أن لا يفهموا، (١/ ٣٧/ ح:١٢٧)).

(٢) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت: ٧٣٩هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، (١/ ٤١)، دار الجيل – بيروت، ط:٣.

الموضوعات، لا إفراط فيها ولا تفريط، تقوم على التسليم لله -تعالى- ولرسوله ﷺ، متصلة السند، خالية من التناقض والتضارب، تمنح أهلها راحة وسلامة، وتعرف للعقل قدره وتقديره وحدوده، جامعةً لكل ألوان الخير، ومانعة من كل ألوان الشر، جمعت بين مطالب الروح والبدن، وبين التوكل على الله والأخذ بأسبابه؛ ومن ثَمَّ فهي سبب للنجاة في الآخرة، والسعادة في الدنيا.

وقد رأت الأمانة العامة لمجمع البحوث الإسلامية العمل على طبع هذا الكتاب؛ نظرًا لأهميته والحاجة إليه في هذا الوقت؛ سائلين المولى ﷻ أن يجعل ذلك في ميزان حسنات صاحبه، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا رسول الله وعلى آله وصحبه وَمَنْ والاه.

أ.د/ نظـــير محمد عيَّـــاد

أمين عام مجمع البحوث الإسلامية

تحريرًا في: غرة جمادى الآخرة ١٤٤٤هـ
٢٥ ديسمبر ٢٠٢٢م

مقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، هو المبدئ المعيد، فعالٌ لما يريد، ذو العرش المجيد، والبطش الشديد، الهادي إلى المنهج السديد، المتفضل علينا بشهادة التوحيد، المنعم بإرسال الأنبياء والمرسلين، المتفضل بخاتم النبيين، وسيد الأولين والآخرين، محمد الأمين، الحبيب المصطفى، والرسول المجتبى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين.

اللهم لك أسلمتُ، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت. أنت إلهي لا إله إلا أنت.

«اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت قيَّوم السماوات والأرض، ولك الحمد رب السماوات والأرض ومن فيهن. أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق والساعة حق».

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا».

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَرَى مَكَانِي، وَتَسْمَعُ كَلَامِي، وَتَعْلَمُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي، لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي، أَنَا الْبَائِسُ الْفَقِيرُ، الْمُسْتَغِيثُ الْمُسْتَجِيرُ، الْوَجِلُ الْمُشْفِقُ، الْمُقِرُّ الْمُعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمِسْكِينِ، وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ الْمُذْنِبِ الذَّلِيلِ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الْخَائِفِ الضَّرِيرِ، مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ، وَذَلَّ جَسَدُهُ،

وَرَغِمَ أَنْفُهُ لَكَ، اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي بِدُعَائِكَ شَقِيًّا، وَكُنْ بِي رَءُوفًا رَحِيمًا، يَا خَيْرَ الْمَسْؤُلِينَ، وَيَا خَيْرَ الْمُعْطِينَ».

«اللهم هذا الدعاء، وعليك الإجابة، وهذا الجهد، وعليك التكلان».

أما بعد... فهذه هي الطبعة الرابعة عشرة لهذا الكتاب (عقيدتنا) وقد كانت طبعته الأولى في ربيع الأول ١٤٠٦هـ (نوفمبر ١٩٨٥م) وخلال هذه المدة بذلت أقصى جهدي في تيسير أسلوبه، وانتقاء ألفاظه، واختيار عباراته، وإضافة ما منَّ الله به وتفضَّل، وأنعم وتكرَّم من موضوعات مهمة.

وقمت في هذه الطبعة بإعادة صياغة بعض الفصول؛ رغبة في سهولة العرض وطلبًا لوضوح المعنى، وناقشت بعض الاتجاهات الفكرية المعاصرة المخالفة لمذهب أهل السنة مناقشةً علميةً هادئةً.

والله أسأل أن يتقبله قبولًا حسنًا، وأن يجزي خيرًا كل من اطلع عليه، وأحسن الظن بي، وأهداني عيبًا رآه فيه؛ لأصلحه فيما هو آت إن شاء الله.

هذا وبالله التوفيق.

أ.د/ محمد ربيع محمد جوهري

البدرشين في: الجمعة أول شعبان سنة ١٤٤٣هـ
الموافق: ٤/ مارس/ ٢٠٢٢ م

الفصل الأول

ضرورة الدين للإنسان

١ - من منَّا لم يفكر في هذا الكون المحيط بِنَا؟

كيف نشأ؟ وكيف يسير؟ وما هدفه؟

هل وُجد بذاته، أو له خالق؟ أوجِد بالصدفة، أم بقدرة قادر؟

ومن هذا القَادِرُ؟ وما صفاته؟ وماصلته بهذا العالم؟

وهذا الإنسان: أهو مركب من جسد وروح؟ وإن كان كذلك، فما الروح؟ أخالدة هي، أم فانية؟ وإن كانت خالدة، فكيف يبعث الإنسان مرة أخرى؟ وكيف يحاسب؟ وما مصيره؟ ومتى سيكون ذلك؟

وهذه الدنيا هل لها نهاية ستقف عندها؟ أو أنها مستمرة إلى غير نهاية؟

وهذه الحياة ألها أسلوب شريف، وأسلوب وضيع؟ وما مقياس الخير والشر، والحسن والقبح، والحق والباطل؟

وهذا الإله: (على فرض وجوده) أيمكنه أن يتصل ببني الإنسان ويختار أحدهم، ليكون رسولا بينه وبين باقي الخلق؟ وكيف ذلك؟ وبم نعرفه نحن؟

إن هذه الأسئلة - وغيرها من مثلها - تفرض نفسها على كل إنسان، ويشعر بحاجته الشديدة، ورغبته الملحة في أن يحدد موقفه منها، ويعرف وجه الحق فيها؛ ليضع نهاية للقلق النفسي، والتوتر العصبي، والحيرة الفكرية التي يحياها، وليعيش في طمأنينة قلب، واستقرار نفس، وهدوء بال.

والدين هو الذي يقدم الإجابة الشافية عن هذه الأسئلة، وعن كثير غيرها من مثلها، فتطمئن النفس، ويسكن القلب، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[الفتح:٤]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[الرعد:٢٨].

٢- وإننا نقرأ في كتب التاريخ ـ سواء ما كتبه المسلمون أو غيرهم ـ أنه قد وُجِد رجل اسمه: (محمد بن عبد الله) ادعى أنه رسول من عند خالق هذا الكون، وأنه منحه علامات ودلائل على صدقه.

فإذا كان هدف الإنسان الحصول على السعادة، وتجنب التعاسة، فعليه أن يبحث في هذا الموضوع، ويدرسه دراسة جادة؛ ليصل إلى وجه الصواب فيه، وخاصة أن التاريخ يحدثنا أيضًا بأن الذين اتبعوا المبادئ التي جاء بها هذا النبي سادوا الدنيا، وكانوا عباقرة في كل مجالات الحياة، وعندما تخلوا عنها أصابهم الذل والهوان.

٣- إن الدين يبين لنا كيف نشأ هذا العالم، وكيف أوجده الخالق ـ جل في علاه ـ ويفسّر لنا غوامض الكون، قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾

[فصلت:٩- ١٢].

قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾
وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا
وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[النازعات:٢٧-٣٣].

هكذا يُبين لنا الدين كيف نشأ العالم، ويوضح صلة الخالق به.

٤- ثم إن الدين يضع للإنسان النظام الأمثل لحياته في جوانبها المختلفة؛ من عبادات تقربه من ربه، ومن تشريعات سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وأخلاقية لازمة لحياته في مجتمعه.

فإن الانسان لا يستطيع أن يعيش منفردًا منعزلًا عن بني جنسه وإلا ما وجد عقله، وملكاته، ودوافعه، وأعضاؤه فرصةً للنمو والاكتمال، فهو في حاجة إلى أن يعيش وسط جماعة، وأن يتعاون معهم؛ لأنه لن يستطيع أن يعتمد على نفسه في كل ما يحتاج إليه من غذاء، وكساء، ومسكن وغير ذلك، بل لا بد أن يتعاون معهم؛ يأخذ ويُعطي.

وهذا التعامل يحتاج إلى نظام وقواعد وقانون يضبطه؛ لكي يتحقق العدل، ويتقي الجور والظلم، وإلا طغى الكبير على الصغير، وأكل القوي الضعيف، وصارت الحياة فوضى وإباحية، وعنف وأنانية.

والدين هو الذي يقدم هذا النظام الذي يحقق العدل في المجتمع[1].

---

(١) نشرت صحيفة الأهرام المصرية في عددها الصادر في٢٤/ ٧/ ١٩٩٨م صـ٢ ما يلي: «في نصف القرن الأخير زاد الإنتاج العالمي أكثر من سبع مرات، فمن ٣ تريليونات دولار وصل الإنتاج إلى ٢٢ تريليون دولار. في حين لم يتضاعف عدد السكان في العالم إلا مرة واحدة. فمن ٣ بلايين نسمة تقريبًا إلى ٦ بلايين .. ما هو مصدر الخلل الذي زاد من عدد الفقراء، ومن حدة الفقر على الرغم من زيادة الإنتاج أضعاف الزيادة في السكان؟.. إن مصدر الخلل الذي تجاهلته وثيقة =

٥- وصحيح أن الانسان يولد على الفطرة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم:٣٠].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

[الأعراف:١٧٢-١٧٤].

وهذه الفطرة لو تركت وشأنها لاتجه الإنسان إلى معرفة الله، وحاول التقرب إليه، لكن هذه الفطرة قد تنحرف بصاحبها عن الصراط السوي، وهذا ما حدث؛ فقد عبد أناس الأصنام، وعبد آخرون الأشجار والحيوانات وبعض مظاهر الكون والطبيعة.

فكان الدين لصيانة الفطرة من الانحراف، ولتقويمها إذا عوجت، وتصحيحها إذا انحرفت.

فالبيئة الفاسدة خطر كبير على الفطرة الإنسانية؛ فإنها تمسخها، وتبعد بها عن معرفة الخالق ﷻ، والالتجاء إليه، ويتجلى ذلك في التأثير المباشر للأسرة على النشء، فقد تلقّنه بعض العقائد المنحرفة، فيشب الطفل وهو متعصب لها

=المؤتمر الدولي للسكان والتنمية هو الخلل في التوزيع، وليس في علاقة الموارد بالسكان. إن ٢٠٪ من سكان العالم - وليس مصادفة أغلبهم في الشمال - يستأثرون باستهلاك ٨٠٪ من إنتاج العالم، ويتركون خمس خيرات الأرض لأربعة أخماس سكانها»!!

نتيجة الأثر النفسي لوالديه فيه، وهذا ما قاله سيدنا رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[(١)].

ولم يقل: أو يسلمانه؛ لأن الإسلام دين الفطرة.

وهذا ما يفسِّر لنا سرَّ انصراف بعض العلماء على المستوى العالمي عن التدين؛ فإن الواحد منهم إذا ما تلقَّن في طفولته بعض العقائد المشوَّهة عن الله تعالى، مثل: التثليث، والبنوة، والصلب، والخطيئة، وما إلى ذلك ثم اتجه إلى الدراسة العلمية في فرع من فروع العلم الحديث، الذي يعتمد على المنهج العلمي الذي يقوم على الملاحظة والتجربة، أو على المنهج الرياضي الذي يقوم على مبادئ العقل، فإنه يشعر بتعارض بين ما تلقاه في صباه، وما يصل إليه من نتائج وحقائق، ثم ما يلبث هذا الصراع النفسي أن ينتهي بنبذ فكرة التدين، والاتجاه فقط نحو العلم المادي الذي جعله الله مباحًا لمن آمن به، ولمن كفر.

فالتنشئة الخاطئة، والبيئة الفاسدة، والتعصب الأعمى، والحرص على المصالح الشخصية، والجري وراء الأهواء والشهوات، كل هذه العوامل تؤدي إلى انحراف الفطرة، وشيوع الإلحاد.

٦- وكثيرًا ما نقرأ عن حوادث انتحار الشباب، وانتشار الأمراض النفسية والعصبية في الدول المتقدمة التي تدَّعي الحضارة والعصرية؛ وذلك بسبب طغيان الجانب المادي في الإنسان، وإهمال الجانب الروحي الذي يشبعه الدين، ولم نسمع بمثل هذا في الدولة الإسلامية أيام أن كان المسلمون متمسكين بدينهم، وعلى صلة قوية بربهم جل في علاه[(٢)].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه/ كتاب الجنائز/ باب إذا أسلم الصبي (٢/ ٩٥/ ح:١٣٥٨، ١٣٥٩).
(٢) جاء في صحيفة الأهرام المصرية في عددها الصادر في ٤/ ٧/ ١٩٩٥م صـ٩ ما نصه: «أصبحت =

والإيمان يُحرر الانسان من الخوف من المجهول، ومن العبودية للمخلوق أيًّا كان شأنه، ويحرره من الذل والهوان، والجبن والاستسلام؛ لأنه يؤمن بأن الخلق جميعًا لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء، لن ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، وإن اجتمعوا على أن يضروه لن يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

فلا مجال - مع وجود الإيمان - للجبن، ولا للنفاق، ولا للكذب، ولا للشقاق، فالأعمار محددة، وهي بيد الله قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[آل عمران:١٤٥]، والأرزاق مقدرة، وهي أيضًا بيد الله، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[هود:٦].

والإيمان يجعل الإنسان متفائلًا دائمًا راضيًا بما قسم الله، لا يعرف التشاؤم سبيلًا إلى قلبه، ولا اليأس طريقًا إلى نفسه، ولا يملئ التحسر على ما فاته من أمور الدنيا عليه كيانه؛ فيشل حركته، ويميت نشاطه، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢١٦].

٧- إن الإنسان إذا تأمل كل ما يقع تحت حسه من أجناس الموجودات وجد نفسه سيدًا لها.

وإذا كانت السيادة تعني الخادمية والمخدومية؛ فأجناس الموجودات جميعها خادمة له، وهو مخدوم منها.

=السويد من أعلى بلاد العالم في معدلات الانتحار (١٦ في الألف)، حتى أصبحت قوائم الانتظار عند الأطباء النفسانيين تطول مدتها إلى ما بين ستة أو سبعة أشهر».

وأجناس الموجودات مرتبة ترتيب حكمة؛ بحيث يخدم الأدنى فيها كل أجناس الأعلى منها.

فالجماد الذي نراه ممثلًا في الشمس والقمر والجبال وعناصر الأرض والماء؛ كل ذلك يخدم أجناس الموجودات التي تعلوه، فهو في خدمة النبات؛ يمدُّه بكل عناصر الغذاء والنمو، وهو في خدمة الحيوان، يمده بكل عناصر البقاء، وهو أيضًا في خدمة الإنسان يمده بكل ذلك.

فإذا نظرنا إلى النبات وجدناه لا يخدم ما دونه، وهو الجماد، وإنما يخدم من هو أعلى منه، وهو الحيوان والإنسان.

فإذا ارتقينا إلى الجنس الثالث، وهو الحيوان وجدناه لا يخدم من دونه، وإنما يخدم من هو أعلى منه، وهو الإنسان.

ثم تقف حلقات الخدمة، فلا نجد للإنسان ارتباطًا بغيره من الأجناس يكون هو في خدمتها؛ إذن فقد انتهت خدمة الكون كله عند الإنسان، وبقي على الإنسان أن يبحث عن مهمته في هذا الوجود.

الجماد له مهمة يؤديها مع النبات، والحيوان، والإنسان.

والنبات له مهمة يؤديها مع الحيوان، والإنسان.

والحيوان له مهمة يؤديها مع الإنسان.

ثم تنتهي حلقات الخدمة.

فأين مهمتك أيها الإنسان؟

وأنت في خدمة مَنْ أيها الإنسان؟

كان على الإنسان العاقل المفكر أن يبحث عن مهمته في هذا الوجود، وإلا كان أقلَّ من الجماد، وأتفه من النبات، وأدنى شأنًا من الحيوان، وكيف يكون السيد المخدوم أقلَّ شأنًا من الخادم؟!

إذن فلا بد أن يكون للسيد المخدوم مهمة تناسب سيادته على كل عناصر الموجودات.

ثم أيها الإنسان؛ هذه الأجناس متى خدمتك؟

أخدمتك عندما وُجد لك عقل تفكر به لتخدمك؟

أخدمتك عندما وُجدت لك قدرة عليها؟

أم خدمتك قبل أن يوجد لك عقل، وقبل أن توجد لك قدرة؟

هب أنك كنت في البيت وحدك لا أحد معك، واستيقظت، فوجدت مائدة عليها من أصناف الطعام لفطورك، أما كان الأجدر بعقلك وفكرك أن تبحث عمن جاء لك بتلك المائدة؟ أم تتناول المائدة تناول الغاصب؟

الإنسان يرى في الوجود أشياء لا قدرة له عليها، كان من الواجب عليه أن يبحث عمن أوجدها له، وعمن سخرها لخدمته دون قدرة له عليها، وقبل أن توجد له قدرة!

إذن: حينما يرحم الله الناس ليخرجهم من غفلتهم، فيرسل لهم رسلًا يحلون لهم هذا اللغز: مَنْ الذي سخر لكم ما لا تقدرون عليه، وأمدكم قبل أن توجد لكم قدرة؟

كان من الواجب على الإنسان أن يُنصت للرسول، ويُقبل عليه، لا أن يصم أذنيه، ويرتكب حمقا آخر؛ **الحمق الأول**: لم يفكر في مهمته في الوجود، **والحمق الآخر**: إعراضه عمن جاء ليحل له لغز الحياة.

تأمل الحديث القدسي: «يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك، وخلقتك من أجلي».

«خلقت الأشياء من أجلك» هذا هو العنصر الموهوب.

«وخلقتك من أجلي» هذا هو العنصر المطلوب؛ وهو المفسَّر في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[الذاريات:٥٦-٥٨][١].

هل يصلح العقل بديلًا عن الدين؟

لكلٍّ حاسة من حواس الإنسان: السمع، والبصر، والذوق، واللمس، والشم وظيفة خاصة بها، ومجال تعمل فيه، ولا تستطيع حاسة أن تقوم مقام أخرى، ولكلٍّ منها حدود لا يمكن أن تتعداها، وإلا بطل عملها، وفقد تأثيرها.

وكذلك عقل الإنسان له مجاله الذي يستطيع أن يعمل فيه، وإذا ما تخطى هذا المجال تَاهَ وضل الطريق السوي.

إن عمل العقل أن يؤلف بين معطيات الحواس، وأن يُركِّب، وأن يحلل، وأن يخترع، وأن يكتشف، كل ذلك في مجال العلوم الطبيعية: الكيمياء، والأحياء، والطبيعة، والفلك، والجيولوجيا...الخ. أو مجال العلوم الرياضية، وهي وإن كانت مجردة فإنها مرتبطة بالمحسات أيضًا، فإذا ما جدَّ العقل في هذا الإطار؛ فإنه يمكنه أن ينتج لكنه يحتاج إلى الدين؛ لكي يُوجِّه نتاجه للخير والتعمير، لا للإبادة والتدمير.

أما الغيبيات، وما وراء الطبيعة، والأخلاق؛ فإن العقل عاجز عن استكناه

---

(١) الفكرة الأخيرة من كلام الشيخ محمد متولي الشعراوي بتصرف.

هذا المجال واكتشافه، ومعرفة حقائق ما فيه؛ وذلك لأن العقول قاصرة، ومتفاوتة، ومختلفة، فنتائجها كذلك: قاصرة، ومتفاوتة، ومختلفة.

إن العقل البشري عاجز عن إدراك نفسه، وهو للآن عاجز عن فهم كيفية عمله، كيف يتصور؟ وكيف يميز؟ وكيف يعقل؟

وما زال كثير من حقائق المادة يجهلها، ولا يعرف إلا قليلًا عنها.

وحتى الآن لم يعرف شيئًا عن حقيقة الروح، وكنه الزمان، وحقيقة المكان!!

فضلًا عن الجاذبية، والإلكترون، والأثير!!

فهل بعد ذلك يمكن أن يقال: إن العقل يصلح أن يكون بديلًا عن الدين؟!

يقول ابن خلدون: «العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية، لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره فإن ذلك طمع في محال.

ومثال ذلك: رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فطمع في أن يزن به الجبال، وهذا لا يدل على أن الميزان في أحكامه غير صادق؛ لَكِنَّ للعقل حدًّا يقف عنده، ولا يتعدى طوره، حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه»(١).

ولننظر نظرة واقعية تطبيقية لنرى ماذا حدث عندما جعل العالم العقل بديلًا عن الدين؟

لقد انقسم العالم إلى معسكرين متضاربين متصارعين، يقف كل منهما للآخر بالمرصاد:

---

(١) مقدمة ابن خلدون بتحقيق د/ علي عبد الواحد وافي (٣/ ١٠٨١).

معسكر رأسمالي: يفتح أمام رأس المال جميع أبواب الكسب بلا قيد ولا شرط، ولو كان بالربا والخداع، والميسر، أو الاتجار بالأعراض، دون التفات إلى ما ينتج عن ذلك من أنانية أصحاب رأس المال وطغيانهم وحقد العمال الفقراء وضياعهم، وكان الاستعمار وما جره من ويلات للشعوب المستضعفة هو النتيجة الطبيعية لهذا النظام.

ومعسكر شيوعي: يزعم أنه يقدم الحل والعلاج لأخطاء النظام الرأسمالي؛ فيضع المال ـ الذي هو أساس المشكلة في تصورهما ـ في يد الحكومة، فيجمع لها سلطة المال فوق سلطة الحكم، وبذلك يقسم المجتمع أيضًا إلى طبقتين:

طبقة تملك المال والحكم وكل شيء، وطبقة ليس في يدها شيء: الأولى تعيش عيشة السادة الأثرياء، والثانية تعيش عيشة الأذلاء.

ولم يدم الحال؛ فقد سقط الفكر العقلي الشيوعي، وكان لا بد أن يسقط وانهار الاتحاد السوفيتي، وكان لابد أن ينهار؛ وتبين لمن يعي: أن العقل لا يصلح أن يكون بديلًا عن الدين.

أما النظام الجديد لحكم العالم؛ فبشره بالخسران المبين، والإخفاق عما قريب إن شاء الله؛ حيث إنه لم يؤسس على الحق والعدل، ولم يرتكز على وحي السماء.

«وإذا تساءلت الآن: ما هو إذن موقف العقل من الدين، وموقف الدين من العقل؟ فإننا نجمل الموضوع في النقط الآتية:

نزل الدين هاديًا للعقل في جميع الأمور، التي لو ترك العقل وشأنه فيها ضل السبيل، وعجز عن الوصول إلى الحقيقة، وهذه الأمور هي:

(أ) العقائد.

(ب) المبادئ الأخلاقية إجمالًا وتفصيلًا.

(جـ) التشريع في قواعده العامة، وفي بعض تفصيلاته. وقواعده العامة تتضمن الجزئيات على مر الزمن، وعلى اختلاف البيئات.

أما الطبيعة والكون؛ من سمائه وأرضه، ومن جباله وبحاره، ومن كواكبه وأقماره وشموسه، أما المادة والطاقة أما أعماق البحار وآفاق السماء.. إن كل ذلك قد تركه للإنسان يدرسه في مصنعه ومعمله بآلاته وأدواته، وحثه على أن يجول في ذلك ما استطاع إليه سبيلا؛ حتى يكشف سنن الله الكونية، ونواميسه الطبيعية، ويرى صنع الله الذي أتقن كل شيء، ولم يحجر الدين على الإنسان في هذا المجال. اللهم إلا الواجب الذي ينبغي أن يكون شعاره دائمًا، وهو أن يكون هدفه من كل ذلك: الخير»[1].

(١) الإسلام والعقل للدكتور عبد الحليم محمود (صـ٢١).

الفصل الثاني

حول علم التوحيد

تعريف علم التوحيد وموضوعه:

يشمل ديننا الإسلامي موضوعات كثيرة يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أقسام: العقيدة، والشريعة، والأخلاق.

فالعقيدة: تشمل الأمور التي يجب أن يؤمن بها المسلم بقلبه، فهي الجانب النظري أو الفكري من الإسلام، ويدرسها: (علم التوحيد).

والشريعة: هي الأعمال التي طلبها الدين من المسلم من عبادات ومعاملات، فهي الجانب العملي من الإسلام، ويدرسها: (علم الفقه).

والأخلاق: هي الفضائل والسجايا التي على المسلم أن يتحلى بها، فهي الجانب النفسي ويدرسها: (علم الأخلاق).

والعقيدة أصول ثابتة، لم تتغير خلال الرسالات السماوية عبر تاريخ البشرية، فقد كان كل رسول يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩]، ويقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، ويقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥].

أما الشريعة: فهي تختلف في بعض المسائل الفرعية من دين إلى دين؛ لتتناسب مع ظروف كل مجتمع، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨].

والأخلاق الزكية، وأمهات الفضائل ثمرة للجانبين السابقين، وقد كملت بالرسالة الخاتمة، قال ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**»[1].

وقد عرف العلماء علم التوحيد بعدة تعريفات؛ نذكر منها:

١- علم يبحث فيه عن ذات الله ورسله من حيث ما يجب، وما يستحيل، وما يجوز، وعن الأمور السمعية التي أخبر بها الصادق المصدوق ﷺ.

فهو يدرس ما يجب لله -تعالى- من صفات عليا، وأسماء حسنى، وما يستحيل عليه من النقائص، وما يجوز عليه من الأفعال كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة.

وما يجب للرسل من صفات الكمال البشري، وما يستحيل عليهم مما يتعارض مع مهمتهم المكلفين بها، وما يجوز عليهم من ظهور المعجزات، وأكل الطعام، والمشي في الأسواق.

ويدرس ما أخبر به ﷺ من السمعيات التي لا يصل العقل البشري إلى معرفتها وحده كعالم البرزخ، وعالم القيامة، وسائر الغيبيات.

٢- علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه.

ومن هذا يتضح أن لعلم التوحيد جانبين:

أ- جانب تقريري: فيه تعرض العقائد الدينية مدللًا عليها بالأدلة اليقينية من العقل والنقل (القرآن والسنة).

ب- جانب دفاعي: وفيه يرد بالأدلة على المخالفين لأهل السنة في الاعتقاد، وعلى الطاعنين والمشككين في عقائد الإسلام.

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٢٣).

وقد اصطلح كثير من المؤلفين في علم التوحيد على تقسيم موضوعاته وهي أركان الإيمان الستة: (الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر) إلى ثلاثة أقسام:

١- **الإلهيات**: وتشمل وجود الله ـ تعالى ـ وصفاته، وأسماءه.

٢- **النبوات**: وتشمل صفات الرسل، ومعجزاتهم، وكرامات الأولياء وما إلى ذلك.

٣- **السمعيات**: وتشمل الأمور التي لا يستقل العقل بإدراكها، إنما نعرفها بالسمع من الرسول ﷺ كالملائكة، والجن، والحساب، والجنة، والنار.

أسماء علم التوحيد:

١- **يسمى**: «**علم التوحيد**»؛ لأن أشرف موضوعاته: توحيد الله تعالى.

٢- **ويسمى**: «**علم أصول الدين**»؛ فمباحثه أصل لسواها من الأحكام الشرعية الفرعية.

٣- **ويسمى**: «**علم الفقه الأكبر**»؛ في مقابلة علم الفقه الأصغر الذي يدرس العبادات والمعاملات.

٤- **ويسمى**: «**علم العقيدة**»؛ لأنه يدرس العقائد التي يجب الإيمان بها واعتقاد صحتها.

٥- **ويسمى**: «**علم الكلام**»؛ لأن صفة كلام الله ـ تعالى ـ قد طال في تحقيقها الكلام، واحتدم النزاع، فيكون من باب تسمية الكل باسم الجزء.

أو سُمي بهذا؛ لأن دارسه يكتسب قدرة على الكلام في تقرير العقائد الإيمانية، والرد على الشُّبَه التي تثار حولها.

أو سُمّي: «علم الكلام»؛لأن المؤلفين الأوائل فيه كانوا يُعَنونُون موضوعاته بقولهم: (الكلام في علم الله تعالى) (الكلام في النبوة) وهكذا.

نشأة علم التوحيد والفرق الإسلامية:

١- سار القرآن الكريم في بيانه لمسائل العقيدة في خطين متوازيين:

الخط الأول: بناء العقيدة الصحيحة في القلوب، بعرضها عرضًا سهلًا يُقنع العقل، ويُشبع العاطفة، مستخدمًا في ذلك الأساليب المتنوعة، والأدلة المتعددة التي توائم الفطرة السليمة، فَبَيَّنَ ما يجب على المسلم اعتقاده من إيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر.

الخط الثاني: هدم العقائد الباطلة المنتشرة بين المشركين وأهل الكتاب؛ فردَّ على عُبَّاد الأوثان، والكواكب، والملائكة، وأبطل زعم النصارى القائلين بالتثليث، وإثبات البنوة لله، وعلى اليهود الزاعمين بأن عُزَيرًا ابن الله، وعلى من أنكر أن يكون لله رسلٌ من البشر، ودحض شبه المنكرين للألوهية، وللبعث بعد الموت.

وقد كانت العقائد المنتشرة في الجزيرة العربية صورة مما هو موجود في العالم كله.

وإذا كانت الآيات القرآنية الواردة في الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية، فإن سائر القرآن في التوحيد ومشتملاته ومتعلقاته.

٢- وكان سيدنا محمد ﷺ يُبلغ ما أوحي إليه من هذه العقائد، ويُفصّل مجملها، ويجيب عن الأسئلة التي تُوَجَّه إليه من المؤمنين للفهم والبيان، والأسئلة التي يثيرها المشركون وأهل الكتاب للتعنت والامتحان. وأحيانًا يتولى القرآن الكريم الجواب.

ولم ينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا ومسائل التوحيد تامة واضحة في أذهان الصحابة، مطمئنة بها قلوبهم.

٣- واجتمع المسلمون في (سقيفة بني ساعدة) قبل دفن النبي ﷺ لاختيار خليفته، وهمَّ الأنصار أن يُولوا (سعد بن عبادة) لكنهم تراجعوا لما ذُكروا بأفضلية أبي بكر الصديق، وأحقيته بهذا الأمر، واستخلاف الرسول له في الصلاة، فاجتمعت الآراء عليه، ووقى الله الأمة شر الاختلاف والفُرقة.

والذي نستريح إليه، ويؤكده الثقات من المؤرخين بالأسانيد الصحيحة مبايعة سيدنا (علي بن أبي طالب) للصديق مع المبايعين قبل دفن النبي ﷺ[(١)]، وأنه لما أتاه خبر جلوس الصديق للبيعة خرج في قميص ما عليه إزار، ولا رداء، عَجِلًا؛ كراهية أن يبطئ عنه، فبايعه، وأرسل يحضر ثوبه وجلس معه، ولم يتأخر عن بيعته[(٢)].

ولا يلتفت إلى غير ذلك في شأن مبايعة(عَلي) كيف وهو لم يفارق الصديق، ولم ينقطع عن الصلاة خلفه، وما ضنَّ عليه برأي، أو نصيحة، أو مشورة، وخرج معه إلى (ذي القصة) شاهرًا سيفه لقتال المرتدين!!

صحيح أنه كان يقضي معظم وقته مع زوجته (فاطمة الزهراء) رضي الله عنها؛ لتمريضها وتسليتها عما هي فيه من الحزن على أبيها ﷺ والشوق إليه؛ خاصة لما عتبت على الصِّديق لما طلبت منه ميراثها من أبيها ﷺ فأجابها بقوله ﷺ:

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير، حيث ذكر أن الحافظ النيسابوري قال سمعت ابن خزيمة يقول: جاءني مسلم بن حجاج، فسألني عن هذا الحديث -أي: الذي فيه مبايعة علي مع المبايعين- فكتبته له في رقعة وقرأت عليه، فقال: هذا حديث يساوي بدنه. فقلت: يساوي بدنه!!. بل هذا يساوي بدرة -البدرة كيس من المال- (٥/ ٢١٨، ٦/ ٣٠٦) وتاريخ الخلفاء للسيوطي (ص٦٩).

(٢) تاريخ الطبري(٢/ ٤٤٧).

«لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»[1]. فوجدت عليه، فراعى (عليّ) خاطرها، بأن كان دائمًا بجوارها.

وإذا كان الصديق قد منع (فاطمة) فلم يمنعها وحدها، بل منع سائر أقاربه ﷺ، وفيهم ابنته(عائشة) رضوان الله عنهم.

والجدير بالذكر أن (عليًّا) نفسه لما ولي الخلافة بعد ذلك ما غيّر شيئًا مما فعله الصديق في هذه المسألة، مما يؤكد صحة موقف (أبي بكر) رضي الله عنهما.

ولما علم (الصديق) بمرض (فاطمة) دخل عليها، وجعل يترضاها. ويقول: «والله ما تركت الدار، والمال، والأهل، والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله، ومرضاة رسوله، ومرضاتكم أهل البيت» فرضيت[2]. هكذا كانوا كبار النفوس، أطهار القلوب.

ولما توفيت بعد ستة أشهر من وفاة النبي ﷺ سارع (عليّ) إلى تأكيد بيعته للصديق، وولائه له ببيعة ثانية، أزالت الوحشة التي كانت بسبب الكلام في الميراث.

وشغل المسلمون في عهد أبي بكر الصديق بحروب الردة، ولم تطل خلافة الصديق؛ إذ لقي ربه في جمادى الآخرة سنة ١٣هـ، بعد أن قضى سنتين وثلاثة أشهر خليفةً للمسلمين.

٤- وعُنِيَ المسلمون في عهد سيدنا عمر بن الخطاب بنشر الإسلام في العالم؛ فخضعت معظم بلاد فارس، ودانت بلاد الشام، وفلسطين، ومصر، وبرقة.

---

(١) انظر التفاصيل في صحيح البخاري/ ك المغازي باب غزوة خيبر - الفتح (٧/ ٥٦٤)، وصحيح مسلم ك الجهاد باب حكم الفيء (٣/ ١٣٧٨).

(٢) البداية والنهاية (٦/ ٣٣٨).

واهتم عمر ببناء الدولة؛ فدوَّن الدواوين، وأنشأ الوزارات، ووضع الأنظمة الدقيقة، وكان المجتمع كله أسرة واحدة، لا مجال فيه للخلاف أو الجدال في مسائل العقيدة.

وحقد أعداء النور والحق، الذين حرر الإسلام بلادهم من طغيان ملوكهم، وملك المسلمون بلادهم وأزالوا سلطانهم فدبروا أمر قتله، فطعنه (فيروز) الملقب بأبي لؤلؤة، وهو يصلي الفجر بالمسلمين، في ذي الحجة سنة ٢٣هـ وبذلك كُسِر بابُ الفتنة لتطل على المسلمين برأسها القبيح.

٥- واتسعت الفتوحات في عهد سيدنا عثمان بن عفان ﷺ، واضطر إلى تعيين بعض الولاة من أقاربه الذين يرى فيهم الصلاحية لتولي هذه المناصب، فاستغل ذلك أعداء الإسلام؛ للتشنيع عليه بأنه يؤثر أهله، وكان على رأس هؤلاء (ابن السوداء) عبد الله بن سبأ اليهودي الذي تظاهر بالإسلام، وأرسل بعض أتباعه إلى الأقاليم الإسلامية؛ للتحريض والثورة على سيدنا عثمان؛ لعزله أو قتله بعد أن نشر كثيرًا من الأكاذيب والطعون ضده، فاتبعهم بعض الغوغاء في البصرة، والكوفة، ومصر.

وبلغ سيدنا عثمان تذمر الناس من عماله على الأمصار، فكتب إليهم يستدعيهم في موسم الحج؛ للاجتماع بهم، والسماع منهم.

وانتهز دعاه الفتنة السبئية فرصة غياب الولاة لمقابلة الخليفة، فحرضوا الناس على الخروج إلى المدينة المنورة للالتقاء بالخليفة، ودافع الخليفة عن سياسته، لكن دعاة السوء لا يريدون إلا إشعالها نارًا، تأكل وحدة المسلمين، فاقتحم الثوار أتباع اليهود السبئية دار عثمان وقتلوه، وهو يتلو كتاب الله في ذي الحجة سنة ٣٥هـ.

٦- واضطر (عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه) إلى قبول الخلافة، ونصح المطالبين بدم عثمان رضي الله عنه، مثل: (معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه) والي الشام، وقريب عثمان رضي الله عنه بالتريث إلى أن يستقر الأمن؛ ليحدد الجناة، وينزل بهم العقاب.

ولم يستجب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وثار على عليّ رضي الله عنه، وهيَّج مشاعر المسلمين بأن جاء بقميص عثمان رضي الله عنه ملوثًا بدمه، ووضعه على منبر دمشق؛ فضجوا، وأخذوا يلتفُّون حوله، ويبكون.

واستعدَّ (عليٌّ رضي الله عنه) للخروج إلى الشام لملاقاة (معاوية رضي الله عنه) ومن معه من الخارجين لكنه علم أن السيدة عائشة رضي الله عنها خرجت من مكة إلى (البصرة) ومعها (طلحة بن عبيد الله) و(الزبير بن العوام) رضي الله عنهما، ومعهم جمع من الصحابة يطالبون (عليًا) بالثأر لعثمان، فاضطر (عليٌّ رضي الله عنه) إلى التوجه إلى (البصرة)؛ أملًا في إخماد الفتنة سلمًا، ولكن قضاء الله لا بد أن ينفذ، فكانت موقعة (الجمل) سنة ٣٦هـ ضربة أخرى من أعداء الإسلام للمسلمين(١) فقد قتل فيها خمسة آلاف مسلم من كل جانب.

ثم كانت موقعة (صفين) سنة٣٧هـ بين (عليّ) رضي الله عنه وشيعته و(معاوية) رضي الله عنه الذي أصرَّ على الخروج على الخليفة (عليّ) رضي الله عنه، وكانت مسألة (التحكيم) فقد اختار أصحاب علي (أبا موسى الأشعري) نائبًا عن (عليٍّ)، واختار أهل الشام (عمرو بن العاص) نائبًا عن (معاوية) رضوان الله عنهم أجمعين، وذلك بعد أن خسر المسلمون في (صفين) سبعين ألف مسلم من الجيشين.

---

(١) معلوم أن السيدة عائشة رضي الله عنها ندمت بعد ذلك على خروجها إلى البصرة واشتراكها في الفتنة، كما أن عليًا رضي الله عنه سار بين القتلى بعد انتهاء معركة الجمل، يضرب فخذيه بيديه ويقول: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾.

ولا صحة لما يذكره كثير من المؤرخين من أن عمرًا خدع أبا موسى الأشعري فجعله يخلع عليًّا ومعاوية، ثم جاء هو وخلع عليًّا، وثبت معاوية في الخلافة؛ لأن هذه ليست أخلاق من رباهم النبي ﷺ.

وهل كان (معاوية) خليفة أو خرج من أجل الخلافة حتى يخلعه أو يثبته (عمرو بن العاص)؟

وقد نبَّه إلى ذلك الإمام ابن كثير[1]، والقاضي أبو بكر بن العربي الذي عقب على هذه الرواية بقوله: «هذا كله كذب صراح، ما جرى منه حرف قط، وإنما هو شيء اخترعته المبتدعة، ووضعته التاريخية للملوك فتوارثته أهل المجانة»[2].

وإنما اتفق الحكمان على أن يعهدوا بأمر خلافة المسلمين إلى من بقي من كبار الصحابة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض؛ ليختاروا من بينهم خليفة، كما حدث من قبل في اختيار عثمان رضي الله عنهم.

ولكن بمجرد أن وافق (عليٌّ) على قبول التحكيم انقسم رجاله فرقتين:

فرقة بقيت معه، وهم (الشيعة) الذين يرون أحقيته في الخلافة؛ لقرابته لرسول الله ﷺ، ومصاهرته له، ومؤخاته له، ولعلمه، وفضله.

وفرقة خرجت عليه، وقالوا: (لا حكم إلا لله) فقال علي قولته المشهورة: (كلمة حق أريد بها باطل) وكفروا عليًّا، والحكمين، وكل من رضي بالتحكيم.

فسموا بـ (الخوارج) لخروجهم على (عليٍّ) رضي الله عنه.

وتجمع الخوارج في قرية (حَرُوراء) فسموا بـ: (الحَرُورية).

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٨٥).

(٢) العواصم من القواصم (صـ١٧٩).

وكان لأصحاب النفوس المريضة دور خبيثٌ في انقسام معسكر عليٍّ رضي الله عنه.

والخوارج بلاء خطير أصيبت به هذه الأمة، ظهر أثره في كثير من الفرق والجماعات الإسلامية خلال التاريخ.

* * *

٧- وتجنَّب هذه الفتن جماعة من الصحابة، وكرهوا الخوض في شأن المتنازعين، وأرجئوا الحكم فيهم إلى الله تعالى؛ فسُّموا بـ: (المرجئة) منهم عبد الله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد رضي الله عنهم.

وكان للمرجئة بعد ذلك آراء منحرفة في العقيدة.

وبهذا ظهرت وسط الجماعة الإسلامية فرق ثلاث: الخوارج، والشيعة والمرجئة، والخلاف بينها يدور في أساسه حول مسألة الخلافة والحكم.

فهي أشبه بالأحزاب السياسية، ثم كان لها آراء مخالفة لأهل السنة في مسائل العقيدة.

* * *

٨- ودبَّر الخوارج مؤامرة لاغتيال (عليٍّ) و(معاوية) و(عمرو بن العاص) فهم سرُّ شقاء المسلمين في نظرهم، فقتل (عبد الرحمن بن مُلجم) عليًّا بالسيف في المسجد وقت أن كان يُنَادي لصلاة الفجر في رمضان سنة ٤٠هـ، ونجا من الاغتيال معاوية، وعمرو بن العاص رضي الله عنهم أجمعين.

وبايع أهل العراق سيدنا (الحسن بن علي بن أبي طالب) رضي الله عنهما بالخلافة بعد موت أبيه، لكنه بعد ستة أشهر فوض الأمر إلى (معاوية)؛ توحيدًا لصفوف

الأمة وجمعًا لكلمتها. وبذلك تحقق ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ عندما قال عنه: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ»[1].

وبتنازل سيدنا (الحسن) عن الخلافة صار (معاوية) إمامًا للمسلمين، وأول ملك عليهم، وخير ملوكهم رضي الله عنه.

وبذلك انتهت خلافة النبوة، وبدأ الملك كما أخبر رسول الله ﷺ حيث قال: «خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي اللهُ الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ»[2].

فقد كانت خلافة أبي بكر: سنتين وثلاثة أشهر.

وخلافة عمر بن الخطاب: عشر سنين وستة أشهر.

وخلافة عثمان بن عفان: اثنتا عشرة سنة.

وخلافة علي بن أبي طالب: أربع سنين وتسعة أشهر.

يضاف إليها ستة أشهر وهي المدة التي قضاها الحسن بن علي فتصير ثلاثين سنة؛ لأن وفاة النبي ﷺ كانت في ربيع الأول سنة إحدى عشرة، وتنازل الحسن لمعاوية كان في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين هجرية.

٩- كان معاوية رضي الله عنه يشعر بأن توليه الخلافة ليس محل رضا وارتياح من جميع النفوس في الأمة؛ لذلك نراه يُذيع على المنابر حديثًا نبويًّا شريفًا؛ ليثبت في أذهان الناس أن خلافته إنما هي بقضاء الله وقدره، فليس لمسلم أن يعترض.

روي الامام البخاري عن ورَّاد مولى المغيرة بن شعبة قال: (كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إليَّ ما سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة، فأملى عليَّ المغيرة. قال: سمعت النبي ﷺ يقول خلف الصلاة: «لا إله إلا الله، وحده

---

(١) رواه البخاري في ك الفتن ـ الفتح (١٣/ ٦٦).

(٢) رواه أبو داود في ك السنة ب: في الخلفاء (٥/ ٣٧).

لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

وقال (ابن جريج): أخبرني عبدة أن ورّادًا أخبره بهذا. ثم وفدت بعدُ إلى معاوية، فسمعته يأمر الناس بذلك القول)[1].

اللهم لا مانع لما أعطيت، وقد أعطيت معاوية وبني أمية الخلافة، فلا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، وقد منعت الخلافة عن عليٍّ وشيعته فلا معطي لما منعت.

هكذا شجع بنو أمية فكرة (الجبر)؛ تبريرًا لمظالمهم مما دفع بعض الناس ليقولوا: إن هذا خطأ، والإنسان حر مختار.

من هؤلاء (معبد بن عبد الله الجهني) التابعي الذي قام بالرد عليهم مبينًا أن القدر لا ينفي اختيار الإنسان مدافعًا عن شرعية التكاليف، حتى بالغ وقال: «لا قدر والأمر أُنُف» وثار على بني أمية؛ فقتله الحجاج صبرًا، فقد حبسه ومنع عنه الطعام والشراب حتى مات سنة ٨٠ هـ.

مات (معبد) ولكن بعد أن وضع بذرة مذهب (الاختيار) أو فرقة (القدرية) أي: النافيين للقدر، وهم الذين تبرأ منهم: (عبد الله بن عمر) رضي الله عنهما.

وإذا كان لكل فعل ردُّ فعل، مساوٍ له في المقدار مضاد له في الاتجاه فإننا نرى أن المغالاة في القول بالاختيار قد دفعت إلى مغالاة في القول بالجبر.

فقام (الجعد بن درهم ت نحو ١١٨ هـ)، و(جهم بن صفوان ت ١٢٨) بالرد على الاختياريين، وتأسيس فرقة (الجبرية) أو (الجهمية) نسبة إلى جهم بن صفوان.

---

(١) رواه البخاري في ك القدر/ بـ لا مانع لما أعطى الله ـ الفتح (١١/ ٥٢١/ ح: ٦٦١٥).

١٠ - بذلك يكون قد ظهر في البيئة الإسلامية خمس فرق:

الثلاثة الأولى حول قضية الخلافة.

والرابعة والخامسة حول قضية الجبر والاختيار.

والتمس أتباع كل فرقة في القرآن الكريم والسنة المطهرة ما يؤيد مذهبهم بالحق أو الباطل، ويدحض مذاهب مخالفيهم.

وكانت الفرق مرتعًا خصبًا لمن لا يضمر خيرًا للإسلام، ينشر من خلالها الآراء التي تشوه صفاء العقيدة الإسلامية، وخاصة بعد أن اتسعت الفتوحات الإسلامية، ودخل في الإسلام من لا يجيد لغة القرآن الكريم، ولا يتذوق لسان من أوتي جوامع الكلم ﷺ.

وكان من الموضوعات التي ثار حولها الجدل: (صفات الله تعالى):

فوردت آيات قرآنية وأحاديث نبوية ربما أوهم ظاهرها المشابهة بين الله وخلقه في ذاته، أو صفاته، أو أفعاله جل في علاه.

كما وردت آيات وأحاديث أخرى تنزه الله عن ذلك.

أما أصحاب الإيمان الحق فغلّبوا آيات وأحاديث التنزيه، وآمنوا بآيات وأحاديث الصفات، وأمرُّوها كما جاءت.

وأما الذين في قلوبهم زيغ فشبَّهوا ذات الله بذات غيره، أو شبهوا صفاته بصفات خلقه، وعُرِفَ أصحاب هذا الاتجاه بـ(المُشَبّهة) وكان لأعداء الإسلام دورهم في إشاعته بين المسلمين على يد رواة الأعراب وبسطاء الموالي الآخذين من النحل السابقة، فجوزوا على الله الحركة والانتقال، والحد، والجهة، والاستقرار، والقعود، والإقعاد، وغير ذلك مما يتنزه الله عنه.

١١- وكان علماء أهل السنة يجلسون في المساجد يعلمون الناس العقيدة الصحيحة، ويردُّون على الشبهات التي يثيرها أهل الأهواء؛ ومن هؤلاء: الإمام التابعي (الحسن البصري ٢١ - ١١٠ هـ) الذي أحبَّه الناس لجلالة علمه وعظيم ورعه، واحتشدوا حوله في مسجد (البصرة) يسألونه، ويستفتونه، وله رسالة في القدر طبعت أخيرًا.

وتكلم عنده يومًا بعض دهماء الرواة بأخبار التشبيه والتجسيم، فقال: رُدُّوا هؤلاء إلى حشا الحلقة أي: طرفها، فسموا: (الحَشَوية)، أو سُمُّوا كذلك؛ لأن كلامهم (حشو) لا طائل تحته فهم (حَشْوية).

ودخل عليه رجل في أثناء الدرس يقول له: يا إمام الدين، ظهر في زماننا جماعة يكفرون مرتكب الكبيرة، وهم الخوارج، وجماعة يرجئون الحكم عليه وهم المرجئة؟

وقبل أن يتكلم (الحسن البصري) إذ بأحد تلاميذه وهو (واصل بن عطاء ٨٠ - ١٣١ هـ) يجيب قائلًا: «أنا لا أقول: إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق، بل هو في منزلة بين المنزلتين» أي: الإيمان والكفر.

واعتزل (واصل) حلقة (الحسن البصري) فسُمّي هو ومن تبعه: (المعتزلة).

ومن كتب (واصل) التي سجلها له التاريخ: (أصناف المرجئة) و(معاني القرآن) و(المنزلة بين المنزلتين) و(طبقات أهل العلم والجهل) وغيرها.

وكان زميله (عمرو بن عبيد ٨٠ - ١٤٤ هـ) عالمًا زاهدًا شجاعًا في الحق يقال: إنه صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين عامًا ومن كتبه: (الرد على القدرية) و(كتاب في العدل والتوحيد).

وقد أبلى المعتزلة بلاء حسنًا في الدفاع عن عقائد الإسلام ضد الهجمات الشرسة التي شنَّها الزنادقة، واليهود والنصارى، وسائر الأديان التي نسخها الدين الخاتم. ولما وجدوا أعداءهم يتسلحون بسلاح (المنطق) تعلموه؛ ليدافعوا به عن الإسلام، ولما ترجمت (الفلسفة اليونانية) درسوها وخلطوها بعلومهم.

وكسب المعتزلة عقول الخلفاء، ففرضوا الاعتزال على الناس قرابة مائتي سنة، ولكن(المحدثين) و(الفقهاء) رفضوا منهج المعتزلة العقلي، وتأويلهم للنصوص الدينية، مما سبب لهم بعض النكبات والأزمات، كمحنة الإمام (أحمد ابن حنبل) ت ٢٤١هـ رَحِمَهُ اللَّهُ.

ويظن بعض المعاصرين أن المعتزلة هم أصحاب الفكر الحر في الإسلام، وأنصار تحكيم العقل، والواقع أن المعتزلة كان جهدهم فيما وراء الطبيعة: وهي مسائل جدلية إذا أخذناها بالعقل بعيدًا عن الوحي المعصوم، وقد أثار المعتزلة معارك لا مجال لها كخلق القرآن.

وللأسف هم من أول من استخدم في الإسلام العنف والتعذيب ضد معارضيهم في الفكر، ولم يسبقهم في هذا المجال سوى الخوارج.

وبعد انهزام الفكر الاعتزالي أمام الفكر السني الحر ازدهرت العلوم الكونية، وارتقت الحضارة الإسلامية.

١٢- ومن قبل ذلك كان الإمام (أبو حنيفة النعمان)٨٠ - ١٥٠هـ يجادل الخوارج، والروافض، والمعتزلة، وأهل الإرجاء، وألف: (الفقه الأكبر) و(الفقه الأوسط) و(الوصية) و(رسالة إلى أبي عثمان البتي) في الإرجاء وكتاب (العالم والمتعلم).

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجادل أهل الباطل، ويؤلف في بيان عقيدة أهل السنة، وفي الرد على مخالفيها.

وإن كان قد كره الاسترسال في الجدل، والإكثار من المناظرة، حتى إنه نهى ولده (حمادًا) عن ذلك.

ولما قال له (حماد): رأيتك وأنت تتكلم - أي تناظر - فما بالك تنهاني؟

فقال: يابني، كنا نتكلم، وكل واحد منا كأن الطير على رأسه مخافة أنْ يزل صاحبه، وأنتم اليوم تتكلمون، وكل واحد يريد أن يزل صاحبه، ومن أراد أن يزل صاحبه، فكأنه أراد أن يكفر صاحبه، ومن أراد أن يكفر صاحبه، فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه»[1].

فالإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يخشى على ولده من الغرور، ويخاف عليه من الهوى والضلال.

وكان للإمام (محمد بن إدريس الشافعي ١٥٠ - ٢٠٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ جهد عظيم مشكور في بيان عقائد الإسلام الصحيحة، والرد على الزائغين، ومناظرة المنحرفين، كما فصلناه في كتابنا: (الإمام الشافعي وعلم الكلام).

* * *

١٣- ونريد أن نؤكد هنا على عامل مهم في نشأة الآراء الكلامية التي فرّقت الأمة - وكنا قد أشرنا إليه من قبل - وهو دور أصحاب الديانات السابقة.

فقد ذكر المؤرخون أن اليهودي (لبيد بن الأعصم) الذي يقال: إنه سحر النبي ﷺ والذي كان يقول بخلق التوراة: هو الذي قال بخلق القرآن؛ ثم أخذ هذه

(١) انظر: (مفتاح السعادة) لطاش كبرى زاده (٢/ ١٥٣) و(إشارات المرام) (صـ٣٥).

المقالة عنه ابن أخته(طالوت) وأخذها من طالوت (بيان بن سمعان) ومنه أخذ (الجعد بن درهم) هذه المقالة ونشرها بين المسلمين[(١)].

و(بشر المريسي) ت٢١٨هـ أحد الدعاة إلى خلق القرآن، كان أبوه يهوديًّا. وفي رواية لابن قتيبة أن أول من قال بخلق القرآن: (المغيرة بن سعيد العجلي) ت١١٩هـ وكان من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي.

كما أن الخلفاء استعانوا باليهود والنصارى في إدارة شئون الدولة؛ لخبرتهم وجهل المسلمين بعلوم الإدارة.

فقد كان (سرجون بن منصور) الرومي النصراني كاتبًا لسيدنا معاوية ﵁.

وخدم (يحيى الدمشقي) الأمويين زمنًا، وهو قديس نصراني، له كتبه وفكره.

وكان يزيد بن معاوية يعتمد في الرد على خصومه على (الأخطل) الشاعر، وهو رجل نصراني.

وكانت المناظرات تُدار بين علماء المسلمين والنصارى، وبعضها عُقِدَ في مجالس الخلفاء.

وكان للفرس وجودهم الواضح على الساحة؛ فكثرت المناظرات بين المسلمين و (السُّمَنِيَّة) و(الثنوية)، وقد ناظر عمرو بن عبيد (جرير بن حازم الأزدي) وهو من السمنية، واشترك واصل بن عطاء مع عمرو بن عبيد في مناظرة (بشار بن برد) و(صالح بن عبد القدوس) وهما من الثنوية.

* * *

---

(١) انظر: (البداية والنهاية) لابن كثير (٩/ ٣٦٤).

١٤- ونعود إلى المعتزلة وإلى حلقاتهم العلمية لنلتقي مع أحد مشايخهم الكبار، وهو أبو علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣هـ) فقد جلس يُدرس في المسجد عقيدة من عقائدهم، وهي القول بوجوب فعل الصلاح والأصلح على الله -تعالى- للعبد، فتقدم أحد تلاميذه وهو الإمام أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ - ٣٣٠هـ) وسأله عن ثلاثة إخوة: مات أحدهم كبيرًا مطيعًا، والآخر كبيرًا عاصيًا، والثالث صغيرًا؟

فقال الجبائي: الأول يثاب بالجنة، والثاني يعاقب بالنار، والثالث لا يثاب ولا يعاقب.

فقال له الأشعري: فإن قال الثالث: يا رب لم أمتني صغيرًا. وما أبقيتني فأطيعك، فأدخل الجنة ماذا يقول الرب؟

قال الجبائي: يقول الرب: إني أعلم أنك لو كبرت عصيت فتدخل النار، فكان الأصلح لك أن تموت صغيرًا.

فقال الأشعري: فإن قال الثاني: يارب لِمَ لَم تمتني صغيرًا فلا أدخل النار؟ ماذا يقول الرب؟ فبهت الجبائي.

هكذا انهار مذهب المعتزلة أمام الأشعري وأمام الحاضرين، مما جعله يعيد النظر في كل الآراء الاعتزالية التي عاش معها أربعين سنة من عمره.

ويقال: إنه رأى رسول الله ﷺ في المنام ثلاث مرات، يطلب منه أن يَنْصُرُ سنته؛

فقام بإعادة النظر في الأحاديث النبوية التي أَوَّلَهَا المعتزلة، وبدأ بأحاديث شفاعة النبي ﷺ، وأحاديث رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة فأثبتها، وتوصل إلى

منهج وسط في دراسة أمور العقيدة؛ لا يهمل فيه النص، ولا يجري وراء شطحات العقل، فتوسط بين المشبهة الذين يأخذون النصوص بلا عقل ولا فَهْم، والمعتزلة الذين أطلقوا للعقل العنان في تأويل النصوص أو رَدِّها.

فوحَّد كلمة الأمة، وألف الأشعري كتبًا كثيرة عرض فيها مسائل الإيمان، وردَّ على مذاهب المخالفين لعقيدة أهل السنة؛ منها: (الإبانة عن أصول الديانة) و(اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع) و(مقالات الإسلاميين) و(رسالة في الإيمان) و(إمامة الصديق) و(الرد على المجسمة) و(استحسان الخوض في الكلام) وغيرها.

وتلقت الأمة الإسلامية طريقة الأشعري في عرض العقيدة بالقبول؛ فذاع مذهبه، وانتشرت كتبه، وتبعه علماء المسلمين في معظم العالم الإسلامي فساروا على مذهبه ومنواله، فصار أغلب المسلمين ـ وما زالوا ـ أشعرية.

ومن أكابر علماء الأشعرية: الإمام أبو بكر الباقلاني(ت٤٠٣هـ)، والإمام عبد القاهر البغدادي (ت٤٢٩هـ)، وإمام الحرمين الجويني (ت٤٧٨هـ)، والإمام أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، والإمام الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ)، والإمام ناصر الدين البيضاوي (ت٦٨٥هـ)، والإمام عضد الدين الإيجي (ت٧٥٦هـ) والإمام سعد الدين التفتازاني (ت٧٩١هـ)، والإمام ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ).

وقد عاصر الإمام الأشعري في شرق العالم الإسلامي عالم آخر أسس مذهبًا في العقيدة الإسلامية قريبًا في منهجه من مذهب الأشعري، وهو الإمام أبو منصور الماتريدي (ت٣٣٢هـ) ومن كتبه: (المقالات) و(التوحيد) و(التأويلات في تفسير القرآن الكريم) و(كتاب بيان وهم المعتزلة) وغيرها.

وقد أفاد الإمام الماتريدي كثيرًا من كتب الإمام أبي حنيفة رحمهما الله، وقد دان بمذهبه كثير من المسلمين في شرق العالم الإسلامي، وما زالوا ماتريدية.

ويمثل كل من أتباع الأشعري والماتريدي الغالبية العظمى من المسلمين المعاصرين، ويعرف مذهبهما بين العلماء بمذهب أهل السنة والجماعة.

* * *

١٥- وجاء الإمام ابن تيمية(٦٦١ - ٧٢٨هـ) وقد تأثر كثيرًا بحجة الإسلام الغزالي في نقده للفلاسفة، وتأثر بالإمام ابن رشد (ت٥٩٥هـ) في نقده للمتكلمين. لكنه كان ألذع أسلوبًا، وأعنف نقدًا، وأشدَّ خصومة لمخالفيه من متكلمين، وفلاسفة، وصوفية، وفقهاء.

وربما كان لظروف حياته الشخصية، وما انتشر في المجتمع الإسلامي من بدعٍ وجهالات أثر واضح في هذه الشدة، وذلك العنف.

ولذلك سعى (ابن تيمية) ومِن بعده تلميذه الإمام ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) إلى إحياء مذهب السلف كما تَصَوَّرَاهُ على طريقة الحنابلة المتأخرين، الذين ردَّ على آرائهم جماهير علماء الأمة.

ولهذا المذهب أتباع معاصرون، ربما ورث بعضهم شيئًا من شدة وقسوة الإمام ابن تيمية على مخالفيه، وليتهم ورثوا كثرة قراءته وحفظه، وسعة اطلاعه على مذاهب مخالفيه، لكان خيرًا لهم لو كانوا يعلمون.

ولو التقى اليوم أتباع الأشعرية، والماتريدية، والتيمية، وغيرهم من فرق المسلمين، وأخلصوا النية لله، وتناسوا (عصبية المذهب) لوجدوا أن مساحة المتفق عليه من (النظرية والتطبيق) أضعاف المختلف عليه، ولكان ذلك أنفع

للإسـلام والمسـلمين ضـد حمـلات المنصِّـرين، والمهـودين، والعلمـانيين، والملحدين. التي تجتاح العالم الإسلامي كله، وتزداد ضراوة يومًا بعد يوم.

إن ابن تيمية لم يُكفّر المعتزلة، ودائرة الخلاف بينه وبينهم أوسع مما بينه وبين الأشعرية، بل إنه لم يكفر الخوارج، ودائرة الخلاف بينه وبينهم أشد اتساعًا.

وكثير من هذه المسائل التي هي موضع خلاف بين أنصار الأشعري وأتباع ابن تيمية موضوعات شائكة لم تُثر على عهد الرسول ﷺ وليست من فروض الأعيان، بل هي حكر على الفئة المتخصصة في علم الكلام يجب أن يلجم عنها العوام.

١٦- وما ألف بعد ذلك في علم التوحيد معظمه شروح لكتب السابقين وحواش، وتقريرات، أو تلخيص ومتون، يحفظها المبتدئون.

وفي العصر الحديث ألف الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ) (رسالة التوحيد) سلك فيها مسلكًا فريدًا في الأسلوب والعرض، وابتعد عن المشكلات الفلسفية، وكان يدعو إلى تحرر الأمة من قيد التقليد؛ لتستيقظ، وتعيش عصرها الجديد.

وتتوالى الآن محاولات جادة من علماء الأزهر الشريف لإعادة عرض موضوعات (علم التوحيد) وصياغتها في إطار يتناسب مع لغة العصر، سواء كان في تقرير العقائد، أم في الجانب الدفاعي عنها ضد هجمات المغرضين.

* * *

الفصل الثالث

الإيمان والإسلام

- تعريف الإيمان.
- النُّطق بالشهادتين وما يَنْبَنِي عليه.
- صلة العمل بالإيمان.
- الإيمان المنجِّي من النَّار، والإيمان الكامل.
- الفهم الصحيح لمذهب السَّلف.
- معنى الإسلام.
- صلة الإسلام بالإيمان.

الإيمان والإسلام

تمهيد:

عندما سأل جبريلُ رسول الله ﷺ عن معنى الإسلام قال: «**الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**».

وعندما سأله عن معنى الإيمان قال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

فبيَّن رسول الله ﷺ أن الإسلام هو: الأعمال الظاهرية التي يقوم بها اللسان، وسائر الجوارح.

وعرف الإيمان بأنه: التصديق الباطني بالأمور الستة المذكورة، والتي ليس منها: الخلافة أو الإمامة؛ لأنها مسألة فرعية، وأن محله القلب.

وأن هذا القدر من التصديق ينقل صاحبه من الكفر إلى هذا الدين، ويجعله ينتفع بشفاعة أرحم الراحمين يوم القيامة، فلا يخلد في النار؛ لأنه حقق أول درجات الإيمان، وإن كان لم يحقق كماله؛ لأن العمل ليس جزءًا من الإيمان، بل هو ثمرة له. وإليك التفصيل:

تعريف الإيمان عند أهل السنة:

الإيمان هو: تصديق النبي ﷺ فيما جاء به من ربه - تعالى - إجمالًا فيما عُلم إجمالًا، وتفصيلًا فيما علم تفصيلًا(١).

---

(١) هذا هو المعنى الشرعي للإيمان، أما معناه في اللغة فهو: التصديق مطلقًا؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[يوسف:١٧] أي: بمصدق، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾[غافر:١٢]،أي: تصدقوا.

وهذا التصديق يجب أن يصل إلى درجة اليقين النفسي، والإذعان القلبي، والانقياد لله تعالى، فلا تكفي مجرد معرفة الله كما قال جهم بن صفوان: «تكفي المعرفة».

(أ) فقد كان أهل الكتاب يعرفون سيدنا محمدًا ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ولم تنفعهم هذه المعرفة ولم تجعلهم مسلمين؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[البقرة:١٤٦]،وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٨٩].

(ب) وأبو طالب عم النبي ﷺ مات كافرًا على الرغم من أنه عرف أن الإسلام حق، قال أبو طالب:

ولقد علمتُ بأن دينَ محمد ... من خيرِ أديانِ البريّةِ دينا
لولا الملامةُ أو حذارُ مسبّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سمحًا بذاك مُبينا

(جـ) بل إن إبليس اللعين يعرف ربه، فهل هذه المعرفة جعلته مؤمنًا؟

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[الحجر:٣٦].

قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[سورة ص:٨٢، ٨٣].

فلا بد أن يصل التصديق إلى درجة الإذغان، والانقياد، والتسليم.

ومكان التصديق قلب المؤمن قال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾[المجادلة ٢٢].

﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾[النحل:١٠٦].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾[الحجرات:٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾[المائدة:٤١].

ومن الأحاديث النبوية الدالة على أن الإيمان محله القلب :

قال ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»(١).

وقال ﷺ: «**يُدْخِلُ اللهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، وَيُدْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ: انْظُرُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ**»(٢).

وعن أسامة بن زيد قال: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلاً فَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَطَعَنْتُهُ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَقَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَقَتَلْتَهُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلاَحِ، قَالَ: «**أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لاَ؟**»(٣).

والنطق بالشهادتين علامة تدل على التصديق القلبي، وهو شرط لإجراء

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات (٥/ ٥٣٨).

(٢) رواه مسلم في الإيمان عن أبي سعيد الخدري (١/ ١٧٢).

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٩٦) ومعنى (فصبحنا الحُرقات) أي: وصلنا منطقة الحُرقات صباحًا، والحرقات بضم الحاء، والراء مضمومة أو مفتوحة.

الأحكام الشرعية: كالزواج والميراث، وحِلّ ذبيحته، والصلاة خلفه، وعليه، والدفن في مقابر المسلمين، فلما كان الإيمان خفيًّا في القلب كان النطق بالشهادتين علامة تدل عليه؛ فمن صدَّق بقلبه ونطق بالشهادتين فهو مؤمن عند الله، فيدخله جنته، ومؤمن عندنا فنعامله معاملة المسلمين.

ومن صدَّق بقلبه ولم ينطق بالشهادتين فهو مؤمن عند الله فقط، وليس مؤمنًا عندنا؛ فلا نعامله معاملة المسلمين.

قال ابن رجب الحنبلي: «من المعلوم بالضرورة أن النبي ﷺ كان يقبل مَنْ جاءه يريد الدخول في الإسلام: الشهادتين فقط، ويعصم دمه بذلك، ويجعله مسلمًا»[1].

وأما العمل بالشريعة من الأوامر والنواهي، فهو: شرط كمال للإيمان لا يضيع الإيمان بضياعه، ولا يفقد بفقده، فالإيمان شيء والعمل بالشرع شيء آخر؛ لأنه لو كان العمل جزءًا من الإيمان يكون من قصر في العمل زال عنه اسم الإيمان، أما إذا كان شرط كمال وثمرة ومن ثمراته فإن من قصَّر فيه يكون ناقص الإيمان، ولا يزول عنه اسم المؤمن .

يدل على ذلك ما يأتي:

أولاً: الآيات الدالة على الأوامر والنواهي بعد إثبات الإيمان تدل على أن الإيمان شيء، والأوامر والنواهي شيء آخر، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[البقرة:١٨٣].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾[البقرة:٢٥٤].

---

(١) جامع العلوم والحكم (صـ٧٩).

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾

[آل عمران: ١٣٠].

ثانيًا: النصوص الدالة على أن الإيمان والأعمال أمران مختلفان؛ قال تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾[لقمان: ٨].
- ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾[التغابن: ٩].

فعطف الأعمال على الإيمان يفيد المغايرة، ولو كان العمل الصالح داخلًا في الإيمان لكان تكرارًا.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**إِيمَانٌ بِاللهِ**»، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**» قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**حَجٌّ مَبْرُورٌ**»(١).

ثالثًا: النصوص الدالة على أن الإيمان والمعاصي قد يجتمعان؛ قال تعالى:

- ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾[الحجرات: ٩].
- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[التوبة ٣٨].
- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾

[البقرة: ٢٦٤].

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١/ ٨٨).

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾

[الحجرات:٢].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «**وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ**» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «**وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ**» ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ فِي الرَّابِعَةِ: «**عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ**» قَالَ: فَخَرَجَ أَبُو ذَرٍّ وَهُوَ يَقُولُ: وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ[1].

رابعًا: جعل الله الإيمان شرطًا لقبول العمل الصالح. وشرطُ الشيء غيره، قال تعالى:

- ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾

[طه:١١٢].

- ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾

[الأنبياء:٩٤].

- ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾[الإسراء:١٩].

- ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾

[المائدة:٥].

فقد جعل الإيمان شرطًا لقبول العمل.

(١) أخرجه البخاري في ك اللباس - الفتح ١٠/ ٢٨٣، ومسلم في الإيمان ١/ ٩٥.

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان معنى الإيمان: «ومن يجحد ما أمر الله التصديق به من توحيد الله، ونبوة محمد ﷺ، وما جاء به من عند الله؛ فقد بطل ثواب عمله الذي كان يعمله في الدنيا يرجو أن يُدرِك به منزلة عند الله»[1].

وروى الطبري عن ابن عباس قوله: «أخبر الله ـ سبحانه ـ أن الإيمان هو العروة الوثقى، وألا يَقبَل عملًا إلا به، ولا يُحَرم الجنة إلا على مَنْ تركه»[2].

إن الدين أشبه بشجرة طيبة تنبت في القلب، ثم تمتد فروعها حتى تظهر على اللسان والجوارح، وهذا هو الإسلام؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]

خامسًا: جاءت الأحاديث النبوية الصحيحة في البخاري ومسلم وغيرهما تُصَرِّح بأن الله ـ تعالى ـ يُخرج أقوامًا من الموحدين من النار بفضل شفاعته ورحمته، يُسمون: عتقاء الله، أو عتقاء الرحمن، لم يعملوا خيرًا قط، هكذا في البخاري ومسلم[3].

فمما جاء في حديث الشفاعة: «فيقول الله ﷻ: **شَفَعَتِ الْمَلائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، هَؤُلاءِ عُتَقَاءُ اللهِ، الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ**»[4].

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ١٠٨).

(٢) تفسير الطبري (٥/ ١١٠).

(٣) صحيح البخاري ك التوحيد، الفتح (١٣/ ٤٣١). ومسلم في الإيمان (١/ ١٧٠).

(٤) أخرجه البخاري ك التوكيد (١٣/ ٤٣١/ ح:٧٤٣٩)، ومسلم في ك الإيمان (١/ ١٧٠).

وقد وردت هذه العبارة أيضًا في حديث الرجل الذي أوصى بنيه أن يحرقوه ويذروه في البر والبحر، وشك في قدرة الله ـ تعالى ـ على إعادته؛ لأنه أسرف في المعاصي ولم يعمل خيرًا قط، لكن الله ـ تعالى ـ غفر له؛ لخشيته له، وخوفه منه على الرغم من أنه لم يعمل خيرًا قط.

والحديث في البخاري في عدة مواضع، وفي مسلم، وفي غيرهما[1].

وذلك يدل على أن العمل شرط كمال، وثمرة من ثمرات الإيمان، وليس جزءًا منه. فكل هذه الأدلة تبين أن الإيمان شيء والعمل الصالح شيء آخر، إنه غذاء الإيمان وثمرته، كما أن النبات يصنع الغذاء، ويتغذى على ما صنع.

ولا يعني ذلك أَنَّنَا نُزَهِّدُ في عمل الطاعات كيف؟! وهي وسيلة المؤمن لنيل أعلى درجات الجنان، أو أننا نُهَوِّن من فعل المعاصي والموبقات كيف؟! وقد أطلق عليها صاحب الشريعة ﷺ في أكثر من حديث لفظ الكفر؛ زجرًا وتنفيرًا من فعلها؛ لأنها الموصلة إليه والعياذ بالله.

إننا نريد تحديد وتحرير معنى الإيمان المنجي من الخلود في النار.

* * *

سادسًا: وأما الأحاديث النبوية التي تصرح بعدم دخول الجنة مَنْ ارتكب بعض المعاصي مما قد يُفهم منه أن العمل بالشرع ركن من أركان الإيمان، يُفقد الإيمان بفقده؛ فهذه الأحاديث من باب الترهيب والمبالغة في التنفير والزجر عن هذه الذنوب، وليس المراد نفي الإيمان أو عدم دخول الجنة حقيقة.

---

(١) صحيح البخاري: الفتح أرقام: ٣٤٧٨ - ٦٤٨١ - ٧٥٠٨، وصحيح مسلم ك التوبة ١/ ٢١٠٩. وكذلك حديث الرجل الذي قتل تسعًا وتسعين نفسًا، ولم يعمل خيرًا قط انظره في: مسلم / ك التوبة (٤/ ٢١١٨).

من هذه الأحاديث النبوية:

– قوله ﷺ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»[(١)].

وقوله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، أو دَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»[(٢)]. أي: الندب والنياحة كما كان قبل الإسلام.

وقوله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا»[(٣)].

وقوله ﷺ: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[(٤)].

وقوله ﷺ: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»[(٥)].

وقوله ﷺ: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ»[(٦)].

وقوله ﷺ: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ»[(٧)].

وقوله ﷺ: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[(٨)].

وقوله ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امرئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ الله لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ»[(٩)].

---

(١) رواه مسلم، في كتاب الإيمان (١/ ٩٩).
(٢) صحيح مسلم (١/ ٩٩).
(٣) رواه أحمد في المسند (٢/ ٢٠٧).
(٤) رواه مسلم (١/ ٦٨).
(٥) رواه مسلم (١/ ٩٣).
(٦) رواه مسلم في الإيمان (١/ ١٠١).
(٧) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (١/ ١٩٨).
(٨) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٧٦).
(٩) رواه مسلم، الإيمان (١/ ١٢٢).

أي: لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان. فمثل هذه الأحاديث ينفي كمال الإيمان، ولا ينفي أصله وصحته.

وأما الآيات القرآنية التي تتحدث عن الإيمان، وتذكر الأعمال كالصلاة، والزكاة، والهجرة، والجهاد...إلخ، فهذه الآيات تتكلم عن الإيمان الكامل وعن المؤمن الكامل، وتوضح أن هذه الأعمال دليل على وجود التصديق القلبي الذي هو الإيمان، والذي ينجي من الخلود في النار من هذه الآيات:

- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال:٢-٤].

- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال:٧٤].

- قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[المؤمنون:١-٩].

وقد ورد عن بعض السلف وعلماء الحديث أنهم قالوا: «الايمان: تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان» وهذا لا يخالف ما سبق ذكره؛ لأنهم لا يجعلون هذه الأمور الثلاثة في درجة واحدة. أي: لم يجعلوها (أركانًا) للإيمان؛ بدليل أنهم لم يكفروا العصاة تاركي العمل بالشرع.

وقد ذهب الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) إلى أن هذه الأمور الثلاثة أركان للإيمان إذا اختل واحد منها لم يكن الرجل مسلمًا حيث قال: «التوحيد لا بد أن يكون بالقلب، واللسان، والعمل. فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلمًا»[1]، وكرر ذلك في كتبه. وعليه اعتمدت الجماعات التكفيرية.

وقد نُقل عن الشافعي أنه قال: «الإيمان هو: التصديق والإقرار والعمل، فالمخل بالأول وحده: منافق، وبالثاني وحده: كافر، وبالثالث وحده: فاسق ينجو من الخلود في النار، ويدخل الجنة»[2]، وهذا هو الاعتقاد الصحيح.

* * *

وقد خالف أهل السنة في تعريفهم للإيمان: المعتزلة، والخوارج.

أما المعتزلة فقالوا: الإيمان: تصديق، وإقرار، وعمل، ولكنهم قالوا: إن تارك العمل في منزلة بين المنزلتين، أي: بين الإيمان والكفر.

وقولهم هذا مخالف لما أجمعت عليه الأمة قبل ظهور المبتدعة، ولما جاء في القرآن والسنة من أن الإنسان إما مؤمن أو كافر ولا وَسَطَ بينهما.

وأما الخوارج فقالوا الإيمان: تصديق وإقرار وعمل، ولكنهم كفروا من لم يعمل بالشرع، وسنرد عليهم عند الحديث عن مرتكب الكبيرة إن شاء الله.

وأركان الإيمان حددها لنا رسول الله ﷺ في جوابه لجبريل عليه السلام عندما سأله عن الإيمان فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[3].

---

(١) كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب (صـ٢٨) ط إدارات البحوث.

(٢) عمدة القاري، بدر العيني (١/ ١٠٤).

(٣) رواه الإمام مسلم في الإيمان (١/ ٣٧).

الإســـلام

معنى الإسلام في اللغة: لهذا اللفظ في اللغة معنيان:

المعنى الأول: الاستسلام والانقياد.

المعنى الثاني: إخلاص العبادة لله تعالى.

ومن المعنى الأول: قوله تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[آل عمران:٨٣].

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾[الصافات:١٠٣].

ومن المعنى الثاني: قوله تعالى:

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾
[لقمان:٢٢].

وقوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[البقرة:١٣٠، ١٣١].

والإسلام بهذين المعنيين الاستسلام لله، وإخلاص العبادة له، هو دين الله ـ تعالى ـ في جميع رسالاته إلى خلقه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وإليه دعت الرسل خلال التاريخ أقوامهم إليه:

فسيدنا نوح يقول لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[يونس:٧٢].

ويقول الله ـ تعالى ـ عن سيدنا إبراهيم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[آل عمران:٦٧].

وعندما رفع إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت قالا: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[البقرة:١٢٨].

وعندما حضر يعقوب الموت قال لبنيه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٣].

وقال موسى لقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[يونس:٨٤].

ويدعو يوسف ربه: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

وقال عيسى ابن مريم: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:٥٢].

هكذا نرى أن كل الأنبياء والرسل كانوا يدينون بالإسلام، ويدعون قومهم إليه. وهو يعني: الاستسلام لله، وإخلاص العبادة لله.

ثم صار الإسلام (عَلَمًا) على الدين الذي نزل على سيدنا محمد ﷺ، وصار اسم المسلمين (عَلَمًا) على أتباعه؛ بناءً على تسمية خليل الله ابراهيم لهم بهذا الاسم، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[الحج:٧٨].

ومن الآيات القرآنية التي تبين أن الإسلام هو دين سيدنا محمد ﷺ وأنه صار عَلَمًا على ما جاء به من ربه، ولن يقبل من أحد غيره قوله تعالى:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥].

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾

[المائدة:٣].

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[الأنعام:١٢٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

[آل عمران:١٠٢].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢، ١٦٣].

تعريف الإسلام في الشرع:

الإسلام هو: الامتثال لأوامر الله ونواهيه.

وهو مبني على خمسة أركان: الشهادة، والصلاة، والزكاة، وصوم رمضان، والحج لمن استطاع إليه سبيلًا.

وعلى هذا فالإسلام والإيمان مختلفان؛ لأن الإسلام الامتثال الظاهري، والإيمان التصديق الباطني إلا أنهما متلازمان، فلا يوجد إسلام معتبر شرعًا من دون إيمان، ولا يوجد إيمان لا يُدخل صاحبه النار من دون إسلام .

وإن وجد إسلام من دون إيمان - كما في المنافق - فليس هذا الإسلام معتبراً شرعًا؛ لأنه لا ينجي صاحبه من النار.

وإذا تأملنا استعمال القرآن الكريم والسنة المطهرة لهذين اللفظين: (الإسلام والإيمان) نجد أنهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

أي: إذا اجتمع اللفظان في نص واحد افترق معناهما، فكان الإسلام الأعمال الظاهرة، والإيمان التصديق الباطني بأركان الإيمان الستة.

وإذا جاء أحدهما من دون الآخر شمل معنى الآخر.

مثال اجتماع اللفظين قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[الأحزاب:٣٥].

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[الحجرات:١٤].

ففي مثل هذه الآيات للإسلام معنى، وللإيمان معنى.

ومثال انفراد الإسلام وحده قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾[الأنعام:١٤].

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[الأنعام:١٢٥].

وقوله ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[١].

ومثال انفراد الإيمان وحده قوله تعالى:

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٦٥).

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ﴾

[آل عمران:١٩٣].

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾[البقرة:٢٥٧].

وقوله ﷺ: «**المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**»[١].

فالإيمان في هذه النصوص يشمل الإسلام.

* * *

من علامات الإيمان:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[٢].

وعنه رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**آيَةُ الإِيمان حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ**»[٣].

وعنه رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ - أَوْ قَالَ: لِجَارِهِ - مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[٤].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟**» قَالُوا: نَعَمْ،

---

(١) رواه مسلم في القدر (٤/ ٢٠٥٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإكراه – الفتح (١٢/ ٣١٥) ومسلم في الإيمان (١/ ٦٦).

(٣) رواه البخاري في الإيمان – الفتح (١/ ٦٢)، والنسائي (٨/ ١١٦).

(٤) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٦٧).

قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ». وعَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْوَسْوَسَةِ، قَالَ: «تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ»، وفي رواية: «فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ»[٢].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[٣].

وعن عبد الله بن هشام قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، وَاللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ»[٤].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[٥].

وقال ﷺ: «إِذَا سَرَّتْكَ حَسَنَتُكَ وَسَاءَتْكَ سَيِّئَتُكَ، فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ»[٦].

---

(١) الحديثان رواهما مسلم في الإيمان (١/ ١١٩).
(٢) رواه البخاري في بدء الخلق - الفتح (٦/ ٣٣٦)، ومسلم في الإيمان (١/ ١١٩).
(٣) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٦٧).
(٤) رواه البخاري في الإيمان/ الفتح (١٢/ ٥٢٣).
(٥) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٦٥).
(٦) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ١٤).

وقال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»[٢].

وقال ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»[٣].

* * *

(١) رواه أبو داود في ك السنة (٥/ ٦٠).
(٢) رواه الترمذي في ك الرضاع (٣/ ٤٦٦).
(٣) كنز العمال ١٠٨٤.

الفصل الرابع

الكفر والتَّكفير

- معنى الكفر في اللغة والشَّرع.
- أصناف الكفار.
- الكفر نوعان: كفر ملَّة، وكفر نعمة.
- الشِّرك وأنواعه.
- النِّفاق وأنواعه.
- الفسق وأنواعه.
- قضية التَّكفير.

الكفر والتَّكفير

معنى الكفر في اللغة:

معناه: التغطية والستر والجحود. وضده الإيمان.

ويطلق الكفر على جحود النعمة؛ فيكون ضد الشرك، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[إبراهيم:٧].

ويقال: أكفر فلانٌ فلانًا؛ إذا حكم بكفره.

والكفارة: ما يغطي الإثم، ومنه: كفارة اليمين، والقتل، والظهار.

والتكفير: ستر الذنب وإزالته كالتمريض: إزالة المرض.

معنى الكفر في الشرع:

هو تكذيب النبي ﷺ في شيء مما جاء به من ربه.

أو هو: جحود شيء مما يصير به المؤمن مؤمنًا؛ ليشمل التعريف الكافرَ الخالي من التصديق والتكذيب.

فالكافر اسم لمن لا إيمان له؛ فهو يشمل:

١ – من أظهر الإيمان، وأبطن الكفر، ويسمى: المنافق.

٢ – من طرأ كفره بعد إسلامه، ويسمى: المرتد.

٣– من قال بإلهين أو أكثر، ويسمى: المشرك.

٤ – من كان متدينًا بدين منسوخ كاليهودية، والنصرانية، ويسمى: الكتابي.

٥ – من لا يؤمن بإله أصلًا، ويسمى: المعطل أو الدهري أو الملحد أو الزنديق.

وحيث إنه لا سبيل لنا الآن لمعرفة ما في القلب من نفاق، فلا يمكننا الحكم على أحد بالنفاق.

فكل كافر مكذب للرسول، وكل مكذب للرسول كافر.

الكفر نوعان: كفر ملَّة، وكفر نعمة:

١: كفر الملَّة :

هو جحود شيء مما جاء به نبينا محمد ﷺ مما علم من الدين بالضرورة، أي: ثبت بآية قرآنية قطعية الدلالة، أو بحديث نبوي متواتر وكان أصلًا من أصول الدين[1].

وأما ما ثبت بأحاديث الآحاد الصحيحة؛ فيجب الإيمان به، لكن لا يكفر من أوَّلَه، كما فعلت المعتزلة مثلًا في موضوع رؤية الله تعالى، وحياة القبر، وبعض مشاهد يوم القيامة: كالصراط، والحوض، والميزان.

وكيف يكفر من أوّل؟! وما من فرقة من فرق الإسلام إلا وقد اضطرت إلى التأويل!

فَمَنْ أنكر وجوده ـ تعالى ـ فهو كافر؛ قال تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[الكهف:٣٧].

ومن أنكر رسالة نبيّنا ﷺ؛ فهو كافر. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾[الرعد:٤٣].

---

(١) أما من أنكر ما ثبت بالتواتر وليس أصلاً من أصول الدين، فلا يكفر، كمن أنكر بعض غزواته ﷺ المتواترة.

ومن أنكر كتابه -عز وجل- فهو كافر؛ قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾[الأحقاف:١٠].

فهذه الآيات في (كفر الملَّة)، وهو أكثر ورودًا في القرآن من (كفر النعمة).

وكثيرًا ما يذكر (كفر الملَّة) في الآيات القرآنية مقابلًا للإيمان كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦].

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[البقرة:١٠٨].

﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾[البقرة:٢٥٣].

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[آل عمران:٨٦].

﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[التوبة:٦٦].

وحكم كفر الملَّة: أنه يخلد صاحبه في النار، وأما في الدنيا فيترتب على حكم القضاء على شخص بالكفر بعد إسلامه أمورٌ؛ منها:

- لا تَحِلُّ زوجته له؛ فلا تبقى في عصمته.
- لا ولاية له على أولاده؛ فلا ولاية لكافر على مسلم.
- لا تحلّ ذبيحته.
- لا يرث، ولا يورث؛ لاختلاف الدين.
- لا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

٢: كفر النعمة:

ويسمّى الكفر المجازي، والكفر العملي؛ لأنه يكون في الأعمال.

وهو: جحود النعمة، وعدم شكر المُنعِم سبحانه.

وقد جاء في القرآن الكريم مقابلًا للشكر كما في قوله تعالى:

- ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

- ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة:١٥٢].

- ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[النمل:٤٠].

ولما حاول اليهودي إثارة الفتنة بين الأوس والخزرج وذكّرهم بما كان في الجاهلية حتى سار بعضهم إلى بعض بالسيوف؛ نزل قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[آل عمران:١٠١].

فليس المقصود الكفرَ بالله، ولكن تغطية ما كانوا عليه من الألفة والمودّة والنعمة، وعدم شكر المُنعِم بها.

وقد سمّى الشرع بعض الذنوب كفرًا؛ تنفيرًا من فعلها، وترهيبًا لفاعلها. والمراد بالكفر: كفر النعمة، **من ذلك الأحاديث الآتية:**

قال ﷺ للنساء: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ»[1].

وقال ﷺ: «مَنْ أَتَى حَائِضًا، أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، أَوْ كَاهِنًا؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»[2].

وقال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[3].

وقال ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[4].

وقد تذكر الأحاديث النبوية أن فاعل بعض الذنوب لا يدخل الجنة، أو أنها عليه حرام، بما قد يفهم منه أنه كافر كفر ملَّة، لكن هذه الأحاديث أيضًا واردة للتنفير من الذنوب المذكورة؛ فهي من باب كفر النِّعمة.

من هذه الأحاديث:

قوله ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[5].

قوله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[6].

قوله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ»[7].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٨٦).

(٢) رواه الترمذي في سننه (١/ ١٩٩).

(٣) رواه الترمذي في النذور (٤/ ١١٠).

(٤) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٨٢).

(٥) المرجع السابق (١/ ١٢٢).

(٦) السابق (١/ ١٢٥).

(٧) السابق (١/ ١٠١).

قوله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ»[1].

وحكم كفر النِّعمة: أنه معاصٍ وذنوبٌ كبائر يجب التوبة منها، وإن مات فاعلها قبل التوبة فأمره إلى الله: إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه، وإن أدخله النار لا يخلّد فيها، بل مصيره إلى الجنة.

* * *

الشرك نوعان: شرك أكبر، وشرك أصغر:

١- **الشرك الأكبر:** وهو اعتقاد وجود شريك لله أو أكثر في ملكه. وصاحبه مخلد في النار:

- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨].
- ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[النساء:١١٦].
- ﴿مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾[المائدة:٧٢].

٢- **الشرك الأصغر:** وهو شرك مجازي عملي، يكون في بعض الذنوب والمعاصي، وسماه الشرع شركًا؛ تنفيرًا من فعله، وترهيبًا لفاعله. ومنه قوله تعالى:

٣- ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦].

وهو قسمان:

أ- **شرك صغير ظاهر:** ويكون في الكلام: كالحلف بغير الله؛ تعظيمًا له، وفي الأعمال: كتعليق التميمة خشية الحسد.

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٤/ ١٩٨).

ب- شرك صغير خفي: ويكون في النية، وهو الرياء: كمن يعمل الخير والبر ويريد أن يمدحه الناس؛ فإن الله -تعالى- لا يتقبله من العبد، ولا يثيبه عليه. بل عليه أن يتوب منه.

ومن الأحاديث النبوية التي وردت في هذا النوع من الشرك:

- قوله ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1]، قال الإمام النووي: «المراد أن عمل المرائي باطلٌ لا ثواب فيه، ويأثم به».

- قوله ﷺ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**» **قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ»**[2].

- قوله ﷺ: «**أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ، وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ**» **قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتُشْرِكُ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»**. قال: «**أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَا حَجَرًا وَلَا وَثَنًا، وَلَكِنْ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ: أَنْ يُصْبِحَ أَحَدُهُمْ صَائِمًا فَتَعْرِضُ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِهِ، فَيَتْرُكُ صَوْمَهُ**»[3].

قوله ﷺ: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ: أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يَعْمَلُ لِمَكَانِ رَجُلٍ**»[4].

ولما سُئِل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «**أَكُنْتُمْ تَعُدُّونَ الذُّنُوبَ شِرْكًا؟ قَالَ: مَعَاذَ اللهِ**»[5] أي: لا يعدونها شركًا أكبر، بل هي من الشرك الأصغر.

---

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٤/ ٢٢٨٩).

(٢) رواه أحمد في المسند (٥/ ٤٢٨).

(٣) رواه أحمد عن شداد بن أوس. المسند (٤/ ١٢٤).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٣٠).

(٥) المسند (٣/ ٣٨٩).

النفاق نوعان: أكبر وأصغر:

١- النفاق الأكبر: وهو إظهار الإسلام، وإخفاء الكفر، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار، ولا سبيل لمعرفته، والحكم به؛ لأنه أمر باطني لا يعلمه إلا الله تعالى.

٢- النفاق الأصغر: وهو النفاق المجازي العملي؛ لأنه يكون في الأعمال؛ فهو ذنوب ومعاصٍ، يجب التوبة منه، ولا يخلد صاحبه في النار إذا دخلها؛ كمن إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان.

* * *

الفسق نوعان: أكبر وأصغر:

١- فسق أكبر: وهو الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[التوبة: ٨٤].

- ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾[السجدة:١٨].
- ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾[السجدة: ٢٠].

٢- فسق أصغر: وهو فعل المعاصي. قال تعالى:

- ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾

[الأنعام:١٢١].

- ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾[البقرة:١٩٧].

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[النور: ٤].

ففي هذه الآيات أطلق (الفسق) على المعاصي والذنوب.

قال الإمام القرطبي: «الفسق في عرف الاستعمال الشرعي: الخروج عن طاعة الله ﷻ. فقد يطلق على من خرج بكفر، وعلى من خرج بعصيان»[(١)].

وأخرج البخاري في باب: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ١٢] عن حذيفة قال: «مَا بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِ هَذِهِ الآيَةِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ، وَلَا مِنَ المُنَافِقِينَ إِلَّا أَرْبَعَةٌ»، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: إِنَّكُمْ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، تُخْبِرُونَا فَلَا نَدْرِي، فَمَا بَالُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَبْقُرُونَ بُيُوتَنَا وَيَسْرِقُونَ أَعْلَاقَنَا؟ قَالَ «أُولَئِكَ الفُسَّاقُ» ففرَّق حذيفة رضي الله عنه بين أئمة الكفر، والمنافقين، والفسّاق.

* * *

قضية التكفير والإكفار:

روى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قَالَ: «**تَفَرَّقَتِ اليَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ أَوْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً**»[(٢)].

ورواه ابن ماجة بلفظ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ، إِلَّا وَاحِدَةً وَهِيَ: الْجَمَاعَةُ**»[(٣)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ص ٢١٠ ط. الشعب.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الإيمان (٥/ ٢٥) وقال عنه: «حسن صحيح».

(٣) سنن ابن ماجة، كتاب الفتن (٢/ ١٣٢٢)، وقال محققه في الزوائد: «إسناده صحيح، رجاله ثقات».

فهم بعض المؤلّفين في العقائد والمؤرّخين للفرق من الحديث أمورًا؛ منها:

١ - أنه يحصر الفِرَق في العدد المذكور.

٢ - أن كون الفِرَق المخالفة للجماعة في النار يعني أنها كافرة مخلّدة فيها.

ونريد أن نناقش هذين الأمرين:

١ - فيما يتصل بالأمر الأول نقول: ألا يجوز أن يكون المراد بالعدد المذكور بيان كثرة الفِرَق وتشعبها، وزيادة عددها حتى إنها لتزيد على فرق اليهود والنصارى؛ فذكرُ العدد لبيان الكثرة كما في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[التوبة: ٨٠].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾[الحاقة: ٣٢].

ويؤيد هذا الاحتمال النظر في التاريخ والواقع، فإن العدد يزيد كثيرًا على المذكور في الحديث، بل ما زالت تظهر فرق أخرى في عصرنا الحاضر.

وإذن: ليست هناك ضرورة لحصر الفرق في العدد المذكور، وخاصة أن محاولة الحصر تقوم على أسس من التكلّف والتمحّل قد تذهب بشيء من بلاغة الحديث الذي يخبر بالغيب الذي تحقق كما أخبر، إضافة إلى إخباره بغيب قد مضى قبل بعثته ﷺ كان أيضًا كما أخبر. وذلك بشأن افتراق اليهود والنصارى.

٢ - وفيما يتصل بالأمر الثاني: وهو كون هذه الفرق في النار، يعني: أنها كافرة مخلّدة فيها نقول: إن بعض العلماء فهم ذلك، وحكم بالفعل على الفرق عدا أهل السنة بالكفر والخلود في النار، كما فعل «أبو المظفر الإسفراييني» في كتابه: «التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين».

وكما فعل «البغدادي» في كتابه: «أصول الدين» وغيرهما.

لكننا لا نوافقهم على هذا الفهم؛ إذ ليس كل من يدخل النار كافرًا مخلدًا فيها؛ فإن عصاة المؤمنين يدخلونها أيضًا مُددًا تتناسب مع معاصيهم، ثم يخرجون منها إلى الجنة.

ولا يعني ذلك أننا نحكم على جميع الفرق بالإيمان، فلا يقول بذلك باحث منصف؛ فقد خرجت فِرق باعتناقها لبعض الآراء من حظيرة الإيمان، إننا لا نستطيع أن نحكم بإيمان فرق مثل: الباطنية، والخطابية، والدروز، والنصيرية.

لكننا نريد فقط أن ننبه إلى خطأ المسارعة إلى التكفير؛ فهناك اتجاه آخر للعلماء يمكن أن نسميه: اتجاه المتريثين في الحكم المتورعين عن التسرع في إطلاق لفظ الكفر في مقابل الاتجاه الأول (اتجاه المسارعين إلى التكفير).

ونذكر أمثلة لهؤلاء المتورعين عن التكفير:

١- **قال الإمام مالك:** «من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهًا ويحتمل الإيمان من وجه واحد؛ حُمِل أمره على الإيمان»[(١)].

٢- **وقال الإمام الشافعي:** «لا أردُّ شهادة أحد من أهل الأهواء إلا الخطابية؛ فإنهم يعتقدون حل الكذب»[(٢)] وهذا يعني أنه لم يكفّر أهل الأهواء الذين وجدوا في عصره رَحِمَهُ اللَّهُ.

٣- وورد عن الإمام أبي حنيفة أنه لم يكفّر أحدًا من أهل القبلة[(٣)].

---

(١) فقه السنة / سيد سابق (٣/ ٦٠٣).

(٢) شرح المواقف للجرجاني (٨/ ٣٣٩).

(٣) الفقه الأبسط صـ ١ بتحقيق الكوثري، ط. المكتبة الأزهرية.

٤- وقال الإمام الأشعري: «اختلف الناس بعد نبيهم في أشياء كثيرة، ضلّل فيها بعضهم بعضًا، وبرئ بعضهم من بعض؛ فصاروا فرقًا متباينين، وأحزابًا متشتتين إلا أن الإسلام يجمعهم ويشتمل عليهم»[١].

وقال تلميذه زاهر بن أحمد السرخسي: «لما قرب حضور أجل أبي الحسن الأشعري في داري ببغداد؛ دعاني فأتيته فقال: اشهد عليّ أني لا أكفّر أحدًا من أهل القبلة؛ لأن الكلّ يشير إلى معبود واحد، وإنما هذا كلّه من اختلاف العبارات»[٢].

٥- وقال الإمام الغزالي: «والذي ينبغي أن يميل إليه المحصّل الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلًا؛ فإن استباحة الدماء والأموال من المصلّين إلى القبلة المصرّحين بقول: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) خطأ، والخطأ في ترك ألف كافرٍ في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم»[٣].

٦- وقال الإمام الرازي: «المختار عندنا أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة إلا بدليل منفصل»[٤].

وقال: «لا تكفر أحدًا من أهل القبلة؛ لأن كونهم منكرين لما جاء به الرسول غير معلوم ضرورة»[٥].

هذه أقوال كبار علماء أهل السنة يفهم منها التحذير من المسارعة إلى تكفير المسلمين. وخاصة أن المسائل التي كانت محل خلاف بين الفرق، والتي ترتب عليها التكفير أغلبها من المسائل الدقيقة التي ما كانت معروفة أيام

---

(١) مقالات الإسلاميين (١/ ٣٤) تحقيق: هلموت ريتز، ط. فرانز شتايز ألمانيا.

(٢) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري لابن عساكر صـ: ١٤٩.

(٣) الاقتصاد في الاعتقاد، صـ ٢١١.

(٤) معالم أصول الدين، صـ ١٤٣، وشرح المقاصد (٢/ ١٩٧).

(٥) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين صـ ٢٤٠.

رسول الله ﷺ، ولو كان العلم بها شرطًا للإيمان لذكرها الرسول ﷺ، وعلّمها الصحابة، وسأل عنها كلَّ من جاء يعلن إسلامه، ولكنه ﷺ كان يكتفي منه بالنطق بالشهادتين.

وقد قال ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفِرُوا[1] اللهَ فِي ذِمَّتِهِ»[2].

وقال ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا، وَصَلَّوْا صَلاَتَنَا، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا، وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا، فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»[3].

وبما أننا نعتقد أن «الاجتهاد» كما يكون في المسائل الفقهية الفرعية كذلك

---

(١) أي: لا تغدروا وتنقضوا عهد الله وذمته.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه/ ك الصلاة. ب فضل استقبال القبلة، الفتح: (١/ ٥٩٢/ح:٣٩١).

(٣) رواه البخاري في ك الاعتصام – الفتح: (٣/ ٢٦٤/ ح:٧٢٨٤).
والمراد بالناس في الحديث المذكور: الذين يقاتلونه، وأذن الله له في قتالهم؛ لأنهم أخرجوا المسلمين من ديارهم بغير حق، ومعلوم أنه لا يلزم من الأمر بقتالهم قتلُهم.
قال ابن عباس: (كان المشركون على منزلتين من النبي ﷺ والمؤمنين: كانوا مشركين أهل حرب يقاتلهم ويقاتلونه، ومشركين أهل عهد، لا يقاتلهم ولا يقاتلونه) البخاري ك الطلاق/ الفتح: (٩/ ٣٢٧/ ح:٥٢٨٦).
وقد عاهد النبي ﷺ يهود المدينة، ومشركي مكة في صلح الحديبية.
وكان له ﷺ غلام يهودي يخدمه، ولما مرض الغلام عاده النبي ﷺ، وكانت زيارته ﷺ سببًا في إسلام الغلام. البخاري في الجنائز – الفتح (٣/ ٢٥٩).
وأمر القرآن المسلم أن يصاحب أبويه المشركين بالمعروف فقال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[لقمان:١٥].
ودفع النبي ﷺ إلى يهود خيبر نخلها وأرضها على أن يعتملوها من أموالهم، وللمسلمين شطرُ ثمرها. مسلم في المساقاة (٣/ ١١٨٧).
وتوفي النبي ﷺ ودرعه مرهونةٌ عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير، البخاري ك الجهاد ـ الفتح ـ (٦/ ١١٦).

يكون في المسائل الإيمانية الفرعية في محاولة إدراك معاني آياتها القرآنية، وأحاديثها النبوية، وأن المجتهدين في المجال الثاني لهم ما للمجتهدين في المجال الأول من الثواب والأجر ما دام عملهم محكومًا بضوابط الاجتهاد، وإن اختلف انتماؤهم إلى الفرق الإسلامية.

وقد روى أئمة الحديث النبوي كالبخاري ومسلم عن بعض أصحاب هذه الفِرَق من جهمية، ومعتزلة، وشيعة، ومرجئة.

وبما أن العقائد قسمان: أصول، وفروع، وأن الأصول هي أركان الإيمان المذكورة في حديث جبريل السابق ذكره وما عدا ذلك فروع، ولا تكفير في الفروع إلا في مسألة واحدة؛ وهي أن ينكر أمرًا ثبت عن النبي ﷺ بالتواتر القاطع، وأجمعت عليه الأمة بسائر طوائفها كإنكار وجوب الصلوات الخمس كما سبق.

وغيرُ ذلك مجال للاجتهاد في فهم النص، وليس مجال تكفير.

وأهل الفِرَقِ مؤمنون برب واحد، وكتاب واحد، ويستقبلون في صلاتهم قبلة واحدة كما سبق.

فلا داعي لتوسيع الخلاف بين الفرق، وإحياء آراء فرق قد اندثرت، ومات رجالها ولم يبق إلا جدالها.

وما بقي من خلافات في تراثنا (الكلامي) يمكن تبريره وتمريره؛ لأنه ليس من (أصول العقائد).

فالخلافات بين جناحي أهل السنة (من أشاعرة وماتريدية) محدودة وليست في أصول العقائد.

والخلافات بين علماء المذهب الأشعري، ومؤسس المذهب ليست في أصول العقائد.

والخلافات بين الأشاعرة ومخالفيهم؛ من خوارج، وشيعة، ومعتزلة ليست في أصول العقائد.

فَلِمَ التكفير! ولِمَ التنابز بالألقاب! وأعداء الإسلام لا يفرقون.

* * *

الفصل الخامس

مرتكب الكبيرة

- تعريف الكبيرة.
- حكم فاعلها عند أهل السنة.
- أدلة أهل السنة.
- مذهب الخوارج في مرتكبها.
- أدلة الخوارج.
- رد أهل السنة.
- الخوارج وعقيدة الحاكمية.

المعاصي كبائر وصغائر:

قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[النساء:٣١].

- ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[النجم:٣٢].
- ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾[القمر:٥٣].

وعن عبد الله قال: سألت رسول الله ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»(١).

وعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «الكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَاليَمِينُ الغَمُوسُ»(٢).

مكفرات الذنوب:

إذا كان من طبيعة النفس البشرية أن ترتكب بعض المعاصي؛ لأن الانسان ليس عقلًا فقط، وإنما هو عقل ومادة، وغرائز وشهوات، وروح وجسد، «وكُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»(٣) فإن الله شرع وسائل متعددة لتكفير الذنوب، ومحو الخطايا؛ حتى لا يظل الذنب شبحًا يهدد الإنسان، فيشل حركته، ويميت نشاطه. ومن هذه الوسائل:

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١/ ٩٠).

(٢) رواه البخاري في الإيمان والنذور - الفتح (١١/ ٥٥٥).

(٣) أخرجه ابن ماجة في الزهد (٢/ ١٤٢٠).

١- الاستغفـــار:

وهو طلب المغفرة من الله ـ تعالى ـ قال عز وجل:

- ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:١١٠].
- وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾

[آل عمران:١٣٥، ١٣٦].

٢- التــوبة:

وهي الندم على فعل الذنب، والحزن على ارتكابه، والعزم على ترك معاودته، ورد الحقوق إلى أهلها إن أمكن ذلك، قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِ﴾[المائدة:٣٩].

وقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾

[طه:٨٢].

والاستغفار والتوبة إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

فإذا اجتمعا كان المقصود بالاستغفار طلب مغفرة ما مضى من الذنوب، والمقصود بالتوبة طلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من المعاصي، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾

[هود: ٩٠].

أما إذا ورد أحد اللفظين دون الآخر، فإنه يشمل كل منهما معنى الآخر. كما سبق في (الإيمان والإسلام).

٣- **فعل الحسنات**: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤].

وقال ﷺ: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»[١].

٤- **مصائب الدنيا**: إذا تلقاها المسلم بالصبر الجميل؛ قال ﷺ «**مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ، وَلا نَصَبٍ، وَلا سَقَمٍ، وَلا حَزَنٍ حَتَّى الْهَمِّ يُهَمُّهُ، إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ**»[٢].

وقال ﷺ: «**وَمَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»[٣].

تعريف الكبيرة:

هي الذنب الذي فيه حد في الدنيا، أو توعد بالنار، أو اللعنة، أو الغضب.

ومثالها الأمور المذكورة في قوله ﷺ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصِنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ**»[٤].

---

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (٤/ ٣٥٥).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٤/ ١٩٩٢)، والوصب: الوجع اللازم ومنه: ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ الصافات [٩]. أي: لازم ثابت، والنصب: التعب، و(يهمه) بضم الياء وفتح الهاء، أو العكس.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١/ ١٧٢).

(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١/ ٩٢).

وقد أوصلها الحافظ الذهبي إلى سبعين كبيرة في كتابه:(الكبائر).

مثل: السرقة، والربا، والقتل ظلمًا، والزنا، وعقوق الوالدين، وشرب الخمر، وقطع الرحم، وقول الزور.

حكم مرتكب الكبيرة عند أهل السنة:

يرى أهل السنة أنه مؤمن عاصٍ؛ إن تاب تاب الله عليه، وإن مات من دون توبة فأمره مُفَوَّض إلى الله: إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه تفضلًا منه.

وقالوا: لا يُخلّد في النار من أهل التوحيد أحد.

أدلة أهل السنة :

أولًا: استدلوا على أنه مؤمن وليس كافرًا بما يأتي:

١ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾[البقرة:١٧٨] فقد جعل القاتل من المؤمنين، وجعله أخًا لولي القصاص، والمراد بالأخوة أخوة الدين بلا شك.

٢- وقال ﷻ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[الحجرات:٩، ١٠] فجعل الذين اقتتلوا من المؤمنين، واجتمع الإيمان مع المعصية.

٣- وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مِنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ:

الْكَفُّ عَمَّنْ، قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَا نُكَفِّرُهُ بِذَنْبٍ، وَلَا نُخْرِجُهُ مِنَ الإسلام بِعَمَلٍ، وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي اللهُ إِلَى أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَّالَ لا يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ، وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ، والإيمان بِالأَقْدَارِ»[1].

٤- ولم يكفر النبي ﷺ من ارتكب الكبائر من: سرقة، أو زنا، أو شرب خمر، أو قذف محصنة، أو ارتكب الخيانة العظمى التي تمس أمن الدولة، وإليك نماذج:

أ- لما سرقت المرأة المخزومية (فاطمة بنت الأسود) أقام النبي ﷺ عليها الحد، ولم يكفرها، ونهر حِبَّه (زيد بن حارثة) عندما حاول أن يشفع لها، وقَالَتْ عَائِشَةُ: «فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدُ، وَتَزَوَّجَتْ، وَكَانَتْ تَأْتِينِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ»[2].

ب- ولما ارتكب (ماعز) جريمة الزنا رجمه النبي ﷺ ولم يكفره، وقال: «لقد تاب توبة لو وُزعت على أمة لوسعتهم».

ولما اعترفت الغامدية بجريمتها مع ماعز، وأمر النبي برجمها قام يصلي عليها صلاة الجنازة قال له عمر: أتصلي عليها يا نبي الله وقد زنت؟ فقال ﷺ: **«لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى؟»**[3].

جـ- وروى البخاري في باب (ما يكره من لعن شارب الخمر، وأنه ليس بخارج عن الملة): عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ

---

(١) رواه أبو داود في الجهاد ب الغزو مع أئمة الجور (٣/ ٤٠).

(٢) صحيح مسلم، ك الحدود، (٣/ ١٣١٥).

(٣) صحيح مسلم (٣/ ١٣٢١).

عَبْدَ اللهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: اللَّهُمَّ العَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**لا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**».

زاد في رواية: «**لا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ**»[1].

د- ولم يحكم القرآن الكريم بالكفر على الذين قذفوا أم المؤمنين عائشة في قصة الإفك، بل رغب في العفو والصفح، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[النور ٢٢].

هـ- ولما أرسل (حاطب بن أبي بلتعة) رضي الله عنه إلى كفار مكة يتودد إليهم، ويخبرهم بأن الرسول يستعد لفتح مكة، فيفشي أسرار الدولة، ونزل فيه أول سورة الممتحنة يصفه بالإيمان، ولم يأذن النبي ﷺ لعمر أن يضرب عنقه، وعفا عنه.

ثانيًا: استدل أهل السنة على جواز العفو عن مرتكب الكبيرة بما يأتي:

١ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨].

فعلّق غفران ما دون الشرك بالمشيئة، وغفران الصغائر موعود به، وكذلك الكبائر بعد التوبة، فالذي يدخل في المشيئة هو الكبائر من دون توبة.

(١) فتح الباري - كتاب الحدود: (١٢/ ٧٧).

قال الإمام البخاري: «المَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلَا يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلَّا بِالشِّرْكِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»[١]. والمراد بالشرك في الآية الكفر؛ لأن من أنكر نبوة نبينا ﷺ كان كافرًا ولو لم يجعل مع الله إلهًا آخر.

٢ـ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الشورى:٢٥].

٣ـ وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾[الرعد:٦].

٤- وجاءت الأحاديث النبوية مؤكدة هذا الحكم، من ذلك:

- عن عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: «بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلا تَسْرِقُوا، وَلا تَزْنُوا، وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ، وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ» فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ[٢].

- وعن أبي ذر عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ- فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ»[٣].

---

(١) الفتح (١/ ١٠٦).

(٢) فتح الباري (١/ ١٠٦).

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٩٤).

وعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»[1].

وسأل رجل ابْنَ عُمَرَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ قَالَ: «يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[2].

مذهب الخوارج في مرتكب الكبيرة:

أولًا: يرون أنه كافر مخلد في النار.

وعلى هذا المذهب كل من رأى أن العمل بالشرع ركن من أركان الإيمان يفقد بفقده كما سبق أن ذكرنا عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجماعته. وكفرت فرقة الأزارقة ـ فرقة من فرق الخوارج ـ كل من لم يهاجر إليهم، وينضم لمبادئهم، وهذا هو: التكفير والهجرة.

أدلة الخوارج، والرد عليها:

١ – استدلوا على كفره بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[المائدة:٤٤].

أجاب أهل السنة:

بأن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرًا أكبر يُخرج من الإسلام، وقد يكون كفرًا أصغر (معصية) لا يخرج من الإسلام.

وذلك بحسب حال الحاكم بغير ما أنزل الله؛ لأنه إن كان منكرًا له مستهينًا به بعدما علمه فهو كافر كفرًا حقيقيًّا.

---

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة (٥/ ١٠٦).

(٢) رواه البخاري في التوحيد – الفتح (١٣/ ٤٨٣).

وإن كان مقرًّا به معتقدًا صحته، وعدل عنه، مع اعترافه بتقصيره واستحقاقه عقاب الله، فهو مسلم عاصٍ، ويسمى: كافرًا كفرًا أصغر، أو كفرًا مجازيًّا؛ ويدل على ذلك اختلاف الحكم في الآيات: فمرة حكم عليه بالكفر، ومرة بالظلم، ومرة بالفسق، وهذا يدل على اختلاف حال المحكوم عليه، فقد يكون جاحدًا، أو مقرًّا به غير عامل به لسبب من الأسباب، فليس كل من لم يحكم بغير ما أنزل الله كافرًا.

قال ابن عباس في هذه الآية والآيتين بعدها: «كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق».

وقال: «كفر لا ينقل عن الملة، وليس كمن كفر بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله». وقال: «من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق»[(١)].

وقال عكرمة: «﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ إنما يتناول من أنكر بقلبه». وجحد بلسانه، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله إلا أنه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله تعالى، ولكنه تارك له فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية»[(٢)].

وقال أحمد بن حنبل:«كفر لا ينقل عن الملة، مثل الإيمان بعضه دون بعض، وكذلك الكفر»[(٣)].

وقد أشار الإمام البخاري إلى أن الكفر أنواع فقال: (باب كفران العشير وكفر دون كفر).

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٥٧).
(٢) تفسير الرازي (١٢/ ٧).
(٣) المستدرك للحاكم (٢/ ٣٤٠).

٢ــ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران:٩٧]، فتارك الحج كافر، وترك الحج ذنب، فكل مرتكب لذنب كافر.

أجاب أهل السنة:

١- بأن من ترك الحج جاحدًا وجوبه مستهزئًا به فهو كافر حقيقة، أما من تركه كسلًا أو بخلًا أو نحو ذلك فهو كافر كفرًا عمليًّا مجازيًّا.

٢- واستدل الخوارج بالأحاديث النبوية التي يُفهم من ظاهرها كفر مرتكب الكبيرة، مثل:

- قال ﷺ: «**إِذَا كَفَّرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا**»[١].

- وقال ﷺ: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»[٢].

- وقال ﷺ: «**لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»[٣].

- قال ﷺ: «**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ**»[٤].

- وقال ﷺ: «**بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ**»[٥].

- وقال ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**»[٦].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٧٩) (باء) أي: رجع بكلمة الكفر.
(٢) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٨١).
(٣) المرجع السابق (١/ ٨٢).
(٤) المرجع السابق (١/ ٨٢).
(٥) المرجع السابق (١/ ٨٨).
(٦) الترمذي في الطهارة (١/ ٣٤٢).

- وقال ﷺ: «مَنْ أَتَى حَائِضًا، أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، أَوْ كَاهِنًا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»(١).

- وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»(٢).

- وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام»(٣).

- وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر»(٤).

أجاب أهل السنة:

بأن المقصود بالكفر في هذه الأحاديث وأمثالها: الكفر الحقيقي إن كان فاعل هذه الذنوب مستحلًّا لها.

أما إذا كان غير مستحل لها فالمقصود الكفر المجازي، وهو كفر النعمة والإحسان، وليس كفر الجحود الذي يُخرج من الإسلام، فيكون التعبير بالكفر والشرك من باب المبالغة في التنفير والزجر عن فعلها.

قال الإمام البخاري: «المَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلَا يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلَّا بِالشِّرْكِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»»(٥).

ولا بدَّ من فهم هذه النصوص التي ظاهرها تكفير الموحدين العصاة هكذا؛ حتى لا تتعارض مع نصوص المغفرة والعفو والصفح الواردة في الكتاب والسنة؛ مثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٨]،

---

(١) سنن الترمذي: (١/ ٢٤٢).
(٢) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٤/ ١٩٨).
(٣) رواه مسلم في الإيمان (١/ ١٠٦).
(٤) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٩٣).
(٥) فتح الباري (١/ ١٠٦).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[الزمر:٥٣]، وقال ﷺ: «**لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**»[1]، ومن قال: إن المراد بالذنوب الصغائر وليس الكبائر فهذا تخصيص للعام من غير مخصص، وعدول عن الظاهر بغير دليل.

ثانيا: استدل الخوارج على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار بما يأتي:

الدليل الأول: قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾

[النساء[٩٣].

أجاب أهل السنة:

بأن المراد من قتل مؤمنًا لإيمانه، أو لأنه مُسْتَحِلٌّ لقتله، أو أن المراد بالخلود: المكث الطويل كما هو معناه في اللغة.

الدليل الثاني: قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الجن:٢٣].

أجاب أهل السنة:

بأن المراد: ومن يعص الله ورسوله في التوحيد؛ لأن الآيات في الحديث عن التوحيد، وليست في مرتكب الكبيرة، ولفظ: (المعصية) إذا أطلق يدخل فيه الكفر. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[هود:٥٩]، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٩٣).

أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]. فهي معصية تكذيب، فصاحبها يستحق الخلود المؤبد في النار.

الدليل الثالث:

قال ﷺ: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»[1].

أجاب أهل السنة:

بأن العقاب المذكور لمن استحل الأمور المذكورة؛ لأنه باستحلاله لها يصير كافرًا مخلدًا في النار.

أما من انتحر وهو يعلم أنه حرام، وكبيرة من الكبائر لكنه يطمع في مغفرة الله فهو مسلم عاص؛ أمره مفوض إلى الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه، ويكون الحديث للتنفير من هذه الجريمة والعياذ بالله، وقيل: إن العقاب المذكور هو جزاؤه إن لم يتجاوز الله عنه، ويعفو عنه.

تعقيب على مذهب الخوارج:

وبعد عرضنا لهذا المذهب نقرر ما يأتي:

١- هذا المذهب يخالف أحكام الشرع الحنيف.

---

(١) رواه البخاري في الطب الفتح (١٠/ ٢٤٧)، ومسلم في الإيمان (١/ ١٠٣) (تحسَّى سمًّا) أي: شربه، (يجأ) أي: يطعن، والسم بضم السين، وفتحها، وكسرها، أفصحهن الكسر.

٢- وهو يعارض العقل السليم.

٣- وهو يصادم فطرة الإنسان، وبيان ذلك:

١- أما مخالفته للشرع الحنيف: فإن الشرع فرَّق بين من صدَّق وقصَّر، ومن جحد وكذَّب؛ فَعَدَّ الأول مؤمنًا مع تقصيره، وَعَدَّ الثاني كافرًا مهما عمل صالحًا، فلم يُسَوِّ الشرع بين من أشرك، ومن ارتكب كبيرة بأن أهمل في أداء فريضة، أو عمل معصية كبيرة، فخصَّ كل نوع بمجموعة من الآيات القرآنية، وبهذا الفهم فلا تعارض ولا اختلاف في آيات الذكر الحكيم.

٢- وأما منافاة مذهب الخوارج للعقل السليم، فإن العقل لا يحكم بالتساوي بين من جحد وجود الله، وسخر من رسله وأنكر البعث، ومن صدَّق بذلك لكنه ارتكب مخالفة شرعية مهما عظمت طالما أنها دون الشرك فهل يستويان؟! وأين العدالة الإلهية؟!

٣- وأما مصادمة مذهب الخوارج لفطرة الإنسان، وما فيه من غرائز وشهوات وعواطف؛ فإنه وإن ظل حياته حريصًا على دينه وشرع الله لكنه ضعف يومًا أمام شهوة طارئة. فاستجاب لها فأمامه أحد طريقين: إما اليأس والقنوط والخلود في النار، وإمَّا الأمل والرجاء في عفوه تعالى؛ الأول طريق الخوارج، والثانى طريق أهل السنة.

وعلى الرغم من خطأ الخوارج في مذهبهم فإن أهل السنة لم يكفروهم، وفهموا حديث النبي ﷺ عنهم: **(يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة)** على أن المقصود من الدين: طاعة الإمام المفترض عليهم طاعته، قال الإمام الخطابي: «أجمع علماء المسلمين على أن الخوارج على ضلالتهم فرقة من فرق المسلمين، وأجازوا مناكحتهم، وأكل ذبائحهم، وقبول شهادتهم».

وسئل عنهم علي بن أبي طالب عليه السلام فقيل: أَكُفَّارٌ هم؟ قال: من الكفر فروا. قيل: أمنافقون؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلًا وهؤلاء يذكرون الله بكرة وأصيلًا، قيل: ما هم؟ قال: قوم أصابتهم فتنة فعموا وصموا.

قال الخطابي: «يعني قوله ﷺ: «يمرقون من الدين» أراد بالدين: الطاعة، أي: أنهم يمرقون من طاعة الإمام المفترض الطاعة وينسلخون منها، والله أعلم»[1].

وقد قاتلهم (علي بن أبي طالب)؛ لأنهم بغاة وليسوا كفارًا، فلم يغنم أموالهم، ولم يسب نساءهم؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[الحجرات:٩].

* * *

(١) نقلًا عن (لسان العرب) لابن منظور (٢/ ١٦٩، ١٧٠).

الأستاذ الدكتور/ محمد ربيع محمد جوهري

الخوارج وعقيدة (الحاكمية)

١- لمحة تاريخية:

بذر اليهودي الخبيث عبدالله بن سبأ (ت نحو ٤٠هـ) في العواصم الإسلامية أفكاره المتطرفة، وعقائده المضللة؛ بهدف هدم الإسلام، وتمكن من تجنيد (الخوارج) على سيدنا (عثمان بن عفان) ﵁ لعزله أو قتله؛ وذلك لارتكابه المعاصي والمخالفات الشرعية التي افتراها عليه (ابن سبأ) وأعوانه اليهود.

وتمت الجريمة فقتلوه وهو يقرأ كتاب الله تعالى، وقال أحد منفذي الجريمة - وهو يركله بقدمه مع مصحفه، ودماؤه تسيل على المصحف: «ما رأيت كاليوم وجه كافر أحسن، ولا مضجع كافر أكرم»[1].

ثم كان لابن سبأ ورجاله دورهم الفاجر في تحريك الخوارج، وتوجيه الأحداث في الحروب التي خاضها (علي بن أبي طالب) ﵁ ضد الخوارج التي راح ضحيتها أكثر من ثمانين ألفا من المسلمين!!

وكان الخوارج يستترون تحت شعارهم المغلوط وفهمهم الخاطئ لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[يوسف: ٤٠]، وعلي ﵁ يقول: «كلمةُ حقٍّ أريد بها باطل».

ولم يستأصلهم الإمام علي وبقيت منهم حثالة تخرج كلما وجدت فرصة للثورة على الحكام، وتكفير المسلمين، وحمل السلاح وإراقة دماء الأبرياء تماما كما قتلوا عثمان بن عفان، وعليّ بن أبي طالب ﵄.

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٩٣).

وفي السنوات الأخيرة بدت موجة من موجاتهم في كتابات: أبي الأعلى المودودي (ت١٩٧٩م) فيما سماه: (الحاكمية) سرعان ماجرت في دماء سيد قطب (ت١٩٦٦م) جريان المرض الخبيث، وسرعان ما سرت في عقيدة الجماعات الإسلامية المتطرفة؛ فحملوا السلاح لفرضها على الأمة بالحديد والنار[1].

٢- الحاكمية كما عرضها سيد قطب:

نعرض فيما يأتي فقرات مما جاء فيما كتبه يقول:

١ - «إنَّ الحُكمَ لا يكون إلا لله، فهو مقصور عليه ـ سبحانه ـ بحكم ألوهيته؛ إذ الحاكمية من خصائص الألوهية، من ادعى الحق فيها فقد نازع الله ـ سبحانه ـ أُولى خصائص ألوهيته، سواء ادعى هذا الحق فرد، أو طبقة، أو حزب، أو هيئة، أو أمة، أو الناس جميعًا في صورة منظمة عالمية، ومن نازع الله ـ سبحانه ـ أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفرًا بواحًا»[2].

٢ - «إن الذي لا يحكم بما أنزل الله إنما يرفض ألوهية الله، فالألوهية من خصائصها ومن مقتضاها الحاكمية التشريعية، ومن يحكم بغير ما أنزل الله يرفض ألوهية الله وخصائصها في جانب، وَيَدَّعي لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها في جانب آخر، وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك»[3].

٣- «من أطاع بشرًا في شريعة من عند نفسه، ولو في جزئية صغيرة، فإنما هو

---

(١) قال (حسن البنا) مؤسس جماعة الإخوان المسلمين: «الحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول، لا من الفقهيات والفروع» «مجموعة الرسائل لحسن البنا»، ص١٧٠ ط: المؤسسة الإسلامية. بيروت.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ١٩٩٠).

(٣) السابق (٢/ ٨٩٨).

مشرك وإن كان في الأصل مسلمًا، ثم فعلها فإنما خرج بها عن الإسلام إلى الشرك أيضًا، مهما بقي بعد ذلك يقول: أشهد أن لا إله إلا الله بلسانه»[1].

٤ - «البشرية عادت إلى الجاهلية، وارتدت عن لا إله إلا الله، فأعطت لهؤلاء العباد خصائص الألوهية، ولم تعد توحِّد الله، وتخلص له الولاء»[2].

٥ - «والذين لا يُفردون الله -سبحانه- بالحاكمية في أي زمان، وفي أي مكان هم مشركون، لا يخرجهم من هذا الشرك أن يكون اعتقادهم أن لا إله إلا الله مجرد اعتقاد، ولا أن يقدموا الشعائر لله وحده، فإلى هنا يكونون كالحنفاء الذين لم يعتبرهم أحد مسلمين، إنما يعتبر الناس مسلمين حين يتمون حلقات السلسلة، أي: حين يضمون إلى الاعتقاد والشعائر إفراد الله - سبحانه - بالحاكمية، ورفضهم الاعتراف بشرعية حكم، أو قانون، أو وضع أو قيمة، أو تقليد لم يصدر عن الله وحده، وهذا وحده هو الإسلام؛ لأنه وحده مدلول شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله كما عرف هذا المدلول في الاعتقاد الإسلامي، وفي الواقع الإسلامي سواء.

ثم أن يجتمع هؤلاء الذين يشهدون أن لا إله إلا الله على هذا النحو، وبهذا المدلول في تجمع حركي بقيادة مسلمة، وينسلخون من المجتمع الجاهلي وقيادته الجاهلية.

وهذا ما ينبغي أن يتبينه الذين يريدون أن يكونوا مسلمين، فلا تخدعهم عن حقيقة ما هم فيه خدعة أنهم مسلمون اعتقادًا وتعبدًا.

فإن هذا وحده لا يجعل الناس مسلمين، ما لم يتحقق لهم أنهم يفردون الله

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١١٩٨).

(٢) السابق (٢/ ١٠٥٧).

سبحانه بالحاكمية، ويرفضون حاكمية العبيد ويخلعون ولاءهم للمجتمع الجاهلي، ولقيادته الجاهلية»[1].

٣- خلاصة نظرية الحاكمية:

هذه خمسة نصوص من أقوال (سيد قطب) التي عرض فيها نظريته، وقد كرر ذلك كثيرًا في مؤلفاته، ونستطيع أن نوجز أفكاره فيما يأتي:

- الحكم لا يكون إلا لله وحده، ولا دخل للمخلوق فيه.
- الحاكمية أُولى خصائص الألوهية.
- من نازع الله في الحاكمية التشريعية فهو كافر كفرًا بواحًا صريحًا، لأمرين: أحدهما: رفضه ألوهية الله، والآخر: ادعاؤه حق الألوهية لنفسه، فجميع حكام المسلمين كفار.
- من أطاع غير الله في تشريع سواء كان معصية كبيرة أو صغيرة فهو مشرك، أو مرتد، وإن بقي يشهد الشهادتين.
- كل المجتمعات الإسلامية مجتمعات جاهلية مشركة مرتدة عن الاسلام على الرغم من اعتقادهم في وحدانية الله، وعلى الرغم من قيامهم بأداء العبادات؛ وذلك لانعدام الركن الأساسي وهو الحاكمية التشريعية.
- ليعود الإسلام إلى البشرية؛ لا بد أن يتجمع من آمن بهذه النظرية في تجمع حركي بقيادة أحدهم، وينسلخون من المجتمع الجاهلي الكافر، ومن قيادته الجاهلية الكافرة؛ لبناء المجتمع المسلم، والدولة الإسلامية.

---

(١) الظلال (٣/ ١٤٩٣).

- الرد على نظرية الحاكمية:

أولًا: الاستعمال اللغوي:

(الحاكمية): مصدر صناعي لاسم الفاعل (حاكم) حيث زيد عليه الياء المشددة، والتاء المربوطة، وهو مشتق من (الحكم) والحكم في اللغة يستعمل بمعنيين: أحدهما: القضاء، والآخر: الإتقان.

يقال: حكم بالأمر، وحكم له، وعليه، وبينهم، أي: قضى.

والحاكم: من نُصِّبَ للحكم بين الناس، والحَكَمُ: مَنْ يُخْتَارُ للفصل بين المتنازعين.

وحَكَمَ الشيءَ والأمرَ: أتقنه

والحَكَمُ والحكيم من أسمائه تعالى، وهما بمعنى: الحاكم، وهو القاضي، فهو فعيل بمعنى: فاعل، أو هو الذي يُحْكِم الأشياء ويتقنها، فهو فعيل بمعنى: مُفْعِل، أي: متقن.

ثانيًا: استعمال القرآن الكريم:

استعمل القرآن الكريم لفظ: (الحكم) بالمعنيين اللغويين السابقين، وأطلقه على الخالق، وعلى المخلوق: كاستعماله لبعض الألفاظ الأخرى؛ سواء كانت أسماء، أو صفات، أو أفعال، مما أطلقه على الخالق والمخلوق.

١) **فقد أطلق بعض أسمائه الحسنى** كالحي، والعزيز، والملِك على بعض مخلوقاته فقال:

- ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾[الروم:١٩].

- ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾[يوسف:٥١].

- ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾[الكهف:٧٩].

٢) **وأطلق بعض صفاته** كالعلم والقوة على بعض مخلوقاته فقال:

- ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٍ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾[يوسف:٦٨].

- ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾[هود:٥٢].

٣) **وأطلق بعض أفعاله**، كالإحياء، وهبة الذرية، والرزق، وتدبير الأمر على بعض مخلوقاته؛ فقال:

- ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران:٤٩].

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[مريم:١٩].

- ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلًا مَّعۡرُوفًا﴾[النساء:٨].

- ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقًا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرًا﴾[النازعات:٤، ٥].

كذلك أطلق القرآن الكريم لفظ (الحكم) على الخالق وعلى المخلوق:

أ) فمن إطلاق القرآن الكريم (الحكم) عليه تعالى:

- ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[يوسف:٤٠].

- ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمًا لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة:٥٠].

- ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٍ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الشورى:١٠].

- ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[الرعد:٤١].
- ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[التين:٨].

(ب) ومن إطلاق القرآن الكريم (الحكم) على المخلوق:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾[الأنبياء:٧٨].

- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥].
- ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[الأنبياء:٧٤].
- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[يوسف:٢٢].
- ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾[المائدة:٩٥].

فادعاء (سيد قطب) ومن وافقه أن الحكم لا يكون إلا لله وحده ادعاء باطل. يرد عليه ما ذكرنا من آيات قرآنية نسبت الحكم لغير الله ـ تعالى.

ومَن قال بقوله: (إن الحاكمية أولى خصائص الألوهية ما أدلته على ذلك؟ وقد روى أبو داود عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قَالَ: «**كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟**»، قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ اللهِ، قَالَ: «**فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللهِ؟**»، قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَا فِي كِتَابِ اللهِ؟**» قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي، وَلَا آلُو فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَدْرَهُ، وَقَالَ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللهِ**»[1].

والحديث واضح في أن هناك أمورًا قد لا يَجِدُ لَهَا الحاكم نصًا في القرآن أو

(١) رواه أبو داود في الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء (٤/ ٣٥٩٣).

السنة فعليه أن يجتهد ولا يُقصِّر في ردها إلى مثيلاتها في الكتاب والسنة، وفي ذلك إثبات القياس، وهو مصدر من مصادر التشريع في الإسلام كالإجماع وغيره.

وفي ذلك ما يفسر لنا حكمة بعث المجددين للأمة دينها على رأس كل مائة سنة؛ ليبينوا للناس حكم ما يجد من أمور في مجالات: الاقتصاد، وإدارة الأموال، والطب، والري، والزراعة، والسياحة، والتعليم، فيسنوا التشريعات والقوانين التي تنظم حياة الجماهير، وتحقق العدل والأمن.

ثالثًا: عقيدة سيد قطب:

يرى المطلع على فكر (سيد قطب) من خلال نصوصه التي عرضناها - ومثلها كثير - أنه يؤمن بعقيدة (الخوارج) الذين يرون أن العمل بالشرع ركن من أركان الإيمان، وأنه إذا لم يوجد فالإنسان كافر كفرًا صريحًا يخلد في النار.

وبناء على إيمانه بهذه العقيدة الفاسدة:

١- حكم بالكفر البواح على جميع حكام المسلمين؛ لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله، فهم كفار، مرتدون، مشركون.

٢- حكم على جماهير المسلمين بالكفر البواح؛ لأنهم أطاعوا حكامهم الكفار المرتدين المشركين، ولم يخرجوا عليهم، فهم مثلهم.

٣- حكم ببطلان أي مجلس تشريعي محلي أو دولي؛ لأنه مكون ممن نازع الله - سبحانه وتعالى - أولى خصائص ألوهيته، وهي الحاكمية.

٤- حكم بالجاهلية على جميع المجتمعات الإسلامية المعاصرة والسابقة خلال القرون الماضية.

وقد سبق أن بينا فساد عقيدة الخوارج، وأوضحنا وجه الحق فيما استدلوا به من آيات قرآنية وأحاديث نبوية.

كما أنا شرحنا عقيدة أهل السنة في معنى الإيمان في الشرع، وعرضنا الأدلة المتنوعة على أن عصاة الموحدين ليسوا كفارًا، بل هم مسلمون؛ إن تابوا تاب الله عليهم، وإن ماتوا دون توبة فأمرهم مفوض إلى ربهم؛ إن شاء عاقب، وإن شاء عفا سبحانه.

وعرضنا نماذج ممن ارتكب المعاصي الكبائر، والذنوب العظائم أيام النبي ﷺ فلم يكفرهم النبي، ولم يقتلهم.

- ذكرنا قصة المرأة المخزومية التي سرقت.
- وقصة (ماعز والغامدية) اللذين ارتكبا الفاحشة.
- وشارب الخمر الذي كان يُضحِكُ النبي ﷺ.
- وقصة الذين قذفوا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
- وقصة(حاطب بن أبي بلتعة) والخيانة العظمى.
- فهل كفر النبي ﷺ أحدًا من هؤلاء؟

وهل سمح النبي ﷺ لعمر بن الخطاب أن يضرب عنق مَنْ تطاول عليه واتهمه بالظلم، وقال: «اعدل يا محمد، ما أراك تعدل»؟

وهل أمر النبي ﷺ بقتل ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[التوبة:١٠٧].

وهل أمر النبي ﷺ بقتل من قال: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾[المنافقون:٨]. وقد كان الإمام (علي) إذا ناقش

الخـوارج لا يجـادلهم بالنصـوص؛ لأنهـم يأخـذون بظواهرهـا دون فهـم، إنمـا يناقشهم بعمل النبي ﷺ، فما ذكرنا هو عمل النبي ﷺ.

هذه عقيدة (النبي ﷺ) ومن معه، ومنهجه، وسيرته.

وهذه عقيدة (قطب) ومن معه، ومنهجه، وسيرته.

﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنعام:٨١].

رابعًا: تحريضه على الصدام والخروج لإقامة الدولة:

دعا (سيد قطب) الذين يؤمنون بنظريته: (الحاكمية التشريعية) ويفهمون مدلول كلمة (لا إله إلا الله) بالمعنى الذي شرحه إلى تكوين (جماعة) بقيادة أحدهم لمواجهة الحكام الكافرين المرتدين وجماهير المحكومين الكافرين المرتدين أيضًا لبناء الدولة الإسلامية.

فقد جاء في النص الخامس الذي نقلناه قوله:

«ثم أن يجتمع هؤلاء الذين يشهدون أن لا إله إلا الله على هذا النحو، وبهذا المدلول في تجمع حركي بقيادة مسلمة، وينسلخون من المجتمع الجاهلي، وقيادته الجاهلية».

وقد ظهرت الثمار الخبيثة لفكر (سيد قطب) فنشأت الجماعات المتطرفة تحمل السلاح؛ لتُسيل الدماء، وتُزهق الأرواح، وتُيتم الأطفال، وتُخرب العمران في بلاد الإسلام باسم الإسلام!!

فظهر (صالح سريَّة) الفلسطيني بجماعته في قضية اقتحام الكلية الفنية العسكرية بالقاهرة سنة ١٩٧٤م للحصول على الأسلحة.

وظهر (شكري مصطفى) أمير جماعة (التكفير والهجرة) في قضية مقتل (د. حسين الذهبي) وزير الأوقاف المصري سنة ١٩٧٧م.

وظهرت (الجماعة الإسلامية) بفروعها، وظهر تنظيم (جماعة الجهاد) وأبرز أعضائه: يحيى هاشم، وأيمن الظواهري، ورفاعي سرور.

وظهرت الجماعة السرورية؛ نسبة لمؤسسها محمد سرور بن نايف زين العابدين المولود بسوريا (١٩٣٨ - ٢٠١٦م) كان من الإخوان المسلمين المعجبين بفكر سيد قطب، ثم انشق عنهم، وكون الجماعة السرورية في السعودية وبعض البلاد العربية .

وقام المهندس (محمد عبد السلام فرج) بتأسيس (تنظيم الجهاد) سنة ١٩٨٠م، وَضَمَّ كلًّا من: عبود الزمر، وطارق الزمر، وأحمد سلامة، وهذا التنظيم هو الذي قتل الرئيس أنور السادات عام ١٩٨١م.

وتأسس (تنظيم القاعدة) سنة ١٩٨٨م، وأبرز أعضائه: أسامة بن لادن، وأيمن الظواهري، وعبد الله عزام.

ومنه نشأ (تنظيم داعش) الذي أعلن قيام الدولة الإسلامية بالعراق والشام في ٢٩/ ٤/ ٢٠١٣م، وفي ٢٩/ ٧/ ٢٠١٤م بايعوا (أبا بكر البغدادي) خليفة للمسلمين، وقام بإلغاء العراق والشام من اسم الدولة.

وقد انضم لتنظيم القاعدة عدة جماعات، منها: (الجماعة السلفية للدعوة والقتال الجزائرية) سنة ٢٠٠٨م.

وجماعة (التوحيد والجهاد) بالعراق بقيادة (أبي مصعب الزرقاني).

والواجب: أن تتعاون كل أجهزة الدولة في مواجهة هذا الفكر الهدام وخاصة أجهزة التعليم، والتوجيه، والإعلام في نشر عقيدة (أهل السنة) كما وعاها وحماها ونشرها (الأزهر الشريف) خلال قرون مضت في شرق الدنيا وغربها، فما استطاع خارجي أن يرفع رأسه أو يبث سمومه.

* * *

الفصل السادس

وجود اللّٰه تعالى

- هل يحتاج وجوده إلى دليل؟
- دليل الحدوث.
- دليل الخلق.
- دليل التقدير.
- دليل التسخير.
- دليل إجابة المضطر.
- مناقشة الماديين.

هل يحتاج وجوده إلى دليل؟

انقسم العلماء في هذا الموضوع إلى فريقين:

فريق يرى أن وجود الله – تعالى – أمر ضروري فطري، لا يحتاج إلى دليل؛ لأنه مركوز في فطرة الإنسان.

وفريق يرى أن وجوده أمر نظري مكتسب، يحتاج في إثباته إلى الأدلة، ولو كان ضروريًّا ما اختلف فيه أحد، وما كفر بعض الخلق.

ويرى الفريق الأول أن مهمة الرسل كانت لتوحيد الله لا لإثبات وجوده.

هذه وجهة نظر أولئك الذين رأوا أن وجود الله لا يحتاج إلى دليل.

أما تعقيبنا عليها، فإننا نرى أن عاطفة التدين موجودة في جميع بني البشر، وأن معرفة الله معلومة لكل مخلوقاته ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقد أيدت الأبحاث العلمية الحديثة هذه القضية؛ حيث أثبتت وجود نوع من التدين لدى جميع المجتمعات، وأن من ينكر وجود الإله إنما يستبدل وجود إله بإله.

لكن الانسان بعد ميلاده يتأثر بعوامل كثيرة شرحنا بعضها عند حديثنا عن: (ضرورة الدين للإنسان) مثل: البيئة الفاسدة، والتنشئة الخاطئة والمصالح المادية، والميول والأهواء، ودور إبليس وأعوانه في هذا الوجود.

هذه المؤثرات تؤدي دورًا خطيرًا في انحراف الفطرة الإنسانية، من هنا احتاج الناس إلى: التنبيه، وإلى: التذكير.

ومن هنا كانت آيات القرآن الكريم لتنبه، ولتذكر، وخاصة أن وسائل المعرفة لدى الإنسان من حواس وعقل معرضة للخطأ، وأن موضوع معرفة - وجود الله - أجل من أن يحده شيء، أو يحصره تصور، بل إن الوضوح الظاهر، أو الظهور الواضح، أو القرب القريب قد يكون سببًا في الخفاء والالتباس.

وإن في انقسام العلماء في هذه المسألة إلى فريقين ما يدل على أنها ليست بدهية؛ إذ الضروري يتفق عليه جميع العقلاء ولا يختلف فيه اثنان منهم، لذلك فإننا سنعرض هنا مجموعة من الأدلة على وجود الله تعالى: سواء عَدَّها القارئ أدلة، أو عَدَّها من باب التذكير والتنبيه على ما أودع في الفطرة:

أولًا: دليل الحدوث:

وهو الدليل الذي يذكره أغلب علماء العقيدة في كتبهم[(١)].

وهو يعتمد على أن العالم حادث، وكل حادث لا بد له من محدِث، فالعالم لا بد له من محدِث، وهو الله تعالى.

والمراد بالعالم: كل شيء سوى الله تعالى، وهو عبارة عن: أجسام وأعراض (صفات).

وتوضيح ذلك: أنه يمكن أن نقسم الموجود إلى قسمين:

١- **موجود متحيز**: أي: يشغل قدرًا من الفراغ، وهو إما:

(أ) مركب من جزئيات صغيرة، لا تقبل الانقسام، ويسمى: (الجسم).

---

(١) انظر على سبيل المثال: الإرشاد لإمام الحرمين صـ١٧، والتمهيد للباقلاني صـ٤٤، وأصول الدين للبغدادي صـ٦٨، وأبكار الأفكار للآمدي صـ١٤٩، والمحصل للرازي صـ١٤٧، وشرح المواقف (٨/ ٢)، وشرح المقاصد (٢/ ٤٢).

(ب) أو غير مركب من جزئيات صغيرة، وإنما هو بسيط لا يقبل القسمة، ويسمى: (الجوهر الفرد).

٢- **موجود غير متحيز:** أي: لا يشغل قدرًا من الفراغ، وهو إما:

(أ) محتاج في وجوده إلى جسم يقوم به، ويحل فيه، ويسمى: (العرَض) مثل: اللون، والصوت، والحركة، والسكون.

(ب) أو غير محتاج في وجوده إلى جسم يقوم به، ويحل فيه، وهو (الله) سبحانه وتعالى.

والمراد بكلمة(حادث) في قولنا: (العالم حادث) أنه موجود بعد العدم.

وبيان ذلك: أن الأعراض التي هي صفات الأجسام حادثة بالمشاهدة؛ فإننا نرى حدوث الحركة بعد السكون، والسكون بعد الحركة، ونرى تغير لون الأشياء وشكلها ومقدارها من حال إلى حال، وهذا يدل على حدوثها.

وأما الأجسام فهي حادثة أيضًا؛ لأن أي جسم من الأجسام لا يخلو عن الأعراض الحادثة، كالحركة أو السكون مثلًا، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث.

إذن: العالم كله حادث، وبما أنه حادث وموجود بعد العدم فهو محتاج إلى مَنْ يحدثه ويوجده من العدم؛ لأنه يستحيل عقلًا أن يوجد حادث بلا محدث أو فعل بلا فاعل، وهذا أمر بدهي لا يحتاج إلى دليل، ويعترف به الأطفال فضلًا عن الكبار، وذلك المحدث الذي أحدثه وأوجده من العدم هو (الله) - جل في علاه- خاصة أنه لم يَدَّعِ أحد – خلال عصور التاريخ المختلفة - أنه هو الذي أحدث العالم، وأوجده بعد أن لم يكن، ولم يزعم ذلك، إنما الذي ذكر ذلك على ألسنة رسله هو الله تعالى.

والدعوى تسلم لصاحبها ما دام لم ينازعه فيها أحد.

سئل أعرابي عن الدليل على وجود الله؟ فقال: البعرة تدل على البعير، والروث على الحمير، وآثار الأقدام على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج أما يدل ذلك على العليم الخبير!!

ويمكننا أن نعرض (دليل الحدوث) بطريقة أخرى نعتمد فيها على (الدلالة اللفظية) لكلمتي: المحدِث – بكسر الدال، والمحدَث – بفتحها – وذلك أن هاتين الكلمتين من الأمور الإضافية التي لا يعقل وجود طرف دون وجود الطرف الآخر، ووجود المحدَث – بفتح الدال – لا شك فيه، إننا نراه بأعيننا، وهذا يدل على وجود المحدِث – بكسر الدال – وهو الله سبحانه وتعالى.

وقد أشار القرآن الكريم إلى دليل الحدوث: قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾[العنكبوت:٢٠].

- ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[الأعراف:٢٩].

- ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[الأنبياء:١٠٤].

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

[الأنعام:٧٥-٧٩].

وقد استدل بأفول الكواكب على حدوثها، فلا تَصْلُحُ أن تكون ربًّا، بل لها مُحدِث، وهو الله الذي أحدث السماوات والأرض جميعًا.

ثانيًا: دليل الخلق:

ويسمى دليل الإبداع، ودليل الاختراع، ودليل الفطر.

وقد وردت مادة (الخلق) في القرآن الكريم (٣٣٦) مرة، تحدث القرآن عن خلق السماوات، والأرض، والليل، والنهار، والشمس، والقمر، والإنسان، وغير ذلك.

ودليل الخلق يعتمد على مقدمتين:

المقدمة الأولى: أن هذه الموجودات مخلوقة؛ فإن ذواتنا نحن لم تكن موجودة ثم وجدت، ولكل منا وقت وجد فيه لم يكن قبله موجودًا، وكذلك عالم الحيوان، وعالم النبات، وعناصر الكون مهما اختلف العلماء في تقدير أعمارها فهم متفقون على أنها لم تكن موجودة، ثم وجدت.

والقانون الثاني للديناميكا الحرارية (قانون الطاقة المتاحة) أو (ضابط التغير) يثبت أن للكون بداية[1]، فهو إذن مخلوق.

كما أن فناء الأشياء - كما نراه - يدل على أنها مخلوقة؛ لأن الأزلي لا يفنى، ويقاس عليها مثيلاتها من الممكنات الموجودة فهي قابلة للفناء أيضًا؛ فهي مخلوقة.

يقول (جون كليفلاند كوثران) رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث: «تدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة، والآخر بسرعة ضئيلة، وعلى ذلك فإن المادة ليست

(١) انظر: وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى صـ٥٥، والله يتجلى في عصر العلم صـ٢٧.

أبدية، ومعنى ذلك أيضًا أنها ليست أزلية؛ إذ إن لها بداية، وتدلنا الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية، بل وجدت بصورة فجائية، وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد، وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لا بد أن يكون مخلوقًا، وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان»[1].

والمقدمة الثانية: وهي كل مخلوق له خالق، قضية بدهية، لا تحتاج إلى دليل، وهي مركوزة في فطرة الإنسان.

إنه إذا وقعت حادثة لم يُدْرَ فاعلها قيل: إن الفاعل مجهول، ولم يقل أحد قط: إنه ليس لها فاعل، فكيف يراد من العقلاء أن يقطعوا الصلة بين العالم وربه؟

إننا لم نكن شيئًا، فكنا، فمن كوننا؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١][2].

وهذه القضية (كل مخلوق له خالق) لا تطبق على الله فلا يقال: من خلق الله؟؛ لأن الله ليس مخلوقًا. فالشيء إما أن يكون خالقًا أو مخلوقًا، فإن ثبت أنه مخلوق استحال أن يكون خالقًا، وإذا ثبت أنه الخالق استحال أن يكون مخلوقًا.

ونقف قليلًا مع نظرية (النشوء والارتقاء) لداروين تلك النظرية التي يدرسها طلبة الجامعات، والمرحلة الثانوية (قسم العلوم) بوزارة التربية والتعليم، ومعاهد الأزهر، يدرسها الطلبة (إجباريًا) ضمن منهج (الأحياء) ويطبع من الكتاب المقرر الذي يحويها آلاف النسخ في كل عام[3].

(١) الله يتجلى في عصر العلم صـ٢٥.

(٢) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي صـ٢١.

(٣) انظر: التاريخ الطبيعي للصف الثالث الثانوي ص١٦٠ - ١٨٣ ط سنة ١٩٧٦م وقد لاحظت وجود نقد يسير في الطبعات الأخيرة، انظر طبعة سنة ١٩٩٥م صـ٢٠٢.

وهي تتعارض مع الإسلام الذي قال بالخلق المباشر للموجودات، ووجود خالق، عالم، مريد، قادر؛ إذ يرى أصحاب هذه النظرية: أن الأنواع والأجناس قد نشأ بعضها عن بعض بطريق التطور والارتقاء من البسيط إلى المعقد، وبقانون الانتخاب الطبيعي، والبقاء للأصلح، والوراثة، حتى وصل التطور إلى (القرد) ومن القرد إلى الإنسان مع وجود حلقة مفقودة بين القرد والإنسان، ويرون أن ظاهرة الحياة قد نشأت في المادة في البداية بطريق الصدفة!!

ونسارع فنقول: إن هذه ليست نظرية، إنما هي فرض لم تثبت صحته؛ فلم يستطع صاحب الفرض ولا أتباعه التدليل على صحته بأدلة علمية وبراهين صحيحة مقنعة.

كما أنها تتعارض مع ما قرره علم التشريح، وعلم الأجنة، ومع شهادة الصخور، ونتائج علم الجيولوجيا[1].

«إن قوانين التكاثر - كل حسب نوعه - تؤيده بقايا الكائنات الحية من كل الأنواع، والعلم يتفق مع الحقيقة بأن جميع الأجناس قد انحدرت من الزوجين الأصليين.

والحفريات تثبت الظهور المفاجيء، لمدنيات أرقى، والعلم يقول بأن الإنسان لا يستعمل إلا جزءًا ضئيلًا من مخه، الأمر الذي يعتبر نقدًا مباشرًا لنظرية الارتقاء؛ لأن الارتقاء لا ينجم عنه أجزاء عديمة النفع، ولكن الأديان تقول بأن الإنسان كان في البداية كاملًا، ويستخدم مخه: كله ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[التين: ٤، ٥].

(١) انظر: منيرة علي الغاياتي، مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين ص١٠ -١٨ مكتبة وهبة.

ويلاحظ هذا فيما كان يتمتع به قدماء المصريين من معرفة مذهلة، وفي بناء الأهرامات دليل على قدر من المعرفة يقف علماء اليوم مبهورين محاولين في تواضع أن يكتشفوا سره، لكن هذا الكمال الأول قد فقده الإنسان بعصيانه لخالقه، وما استتبع ذلك من تدهور في قواه البدنية والذهنية»[1].

وأعلن (أوستين كلارك) العالم البيولوجي...أنه لا توجد علامة واحدة على الاعتقاد بأن أيًا من المراتب الحيوانية الكبرى تنحدر من غيرها، إن كل مرحلة لها وجودها المتميز، الناتج عن عملية خلق خاصة ومتميزة لقد ظهر الإنسان على الأرض فجأة وفي نفس الشكل الذي نراه عليه الآن.

ثم يأتي الدور على النشوئي الشهير (الكونت دي نوي) ليعترف بأن: كل مجموعة وكل فصيلة تبدو وكأنها جاءت إلى الوجود فجأة، إننا لم نعثر على أي شكل انتقالي، ومن المستحيل أن ننسب أي مجموعة حديثة إلى أخرى أقدم»[2].

هذا ما يقوله المتخصصون في هذا المجال، ونوجه إلى أصحاب (النشوة والارتقاء) هذه الأسئلة، وليس لديهم عنها جواب:

كيف تفسرون هذا النوع من التطور الارتدادي الذي يتم من المعقد إلى البسيط، أي: عكس ما زعمتم من أن التطور يسير من البسيط إلى المعقد؟

كيف تفسرون ما نلاحظ من أن التطور لا يتم بسرعة واحدة في الأنواع والأجناس المختلفة، بل وفي النوع الواحد أيضًا؟

كيف تفسرون بقاء(القرد) وانقراض الحيوان الذي كان واسطة بينه وبين

(١) مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين صـ٢٥.

(٢) المرجع السابق صـ١٣، ١٤، وانظر: (دارون ونظرية التطور) تأليف: شمس الدين آق بلوت/ ترجمه عن التركية: أورخان محمد علي/ ط. دار الصحوة..

الإنسان؟ أليس القول بالانتخاب الطبيعي، والبقاء للأصلح يقتضي انقراض القرد، وبقاء الحيوان الواسطة، والواقع غير ذلك؟

كيف تفسرون وجود قدرات متفوقة لدى بعض المخلوقات لا يوجد مثلها لدى الإنسان؟ كقدرة الطيور على الطيران، وقدرة الضفادع على العيش في الماء والبر، وقدرة الجِمال والحمير على الرؤية في الظلام. هل هذه الأنواع أرقى من الإنسان!!

لقد أعلنت أوروبا عن زيف هذه النظرية بعد أن أدت دورها الذي أشيعت من أجله؛ وهو بيان التعارض الصريح بين العلوم الطبيعية، التي أدت إلى التقدم الحضاري في أوروبا، وبين الدين الذي قدمته الكنيسة للناس خلال قرون، والذي من أجله اضطهد العلماء، وحكم عليهم بالقتل والسجن والتعذيب، وحكم على كتبهم ومؤلفاتهم بالإعدام والحرق.

ثم استخدمت دول الاستعمار هذه النظرية في تحطيم أديان الأمم المستعمرة بعرضها في ثوب علمي؛ حتى ينخدع بها طلاب العلم، ثم تحدث آثارها في التشكيك في الدين.

وقد ألغيت دراسة هذه (الفرضية) في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٥م بعد أن ثبت علميًّا زيفها، وأصدر (الكنيست) في إسرائيل قرارًا بتحريم دراستها؛ (لأنها تتعارض مع عقيدة الخلق كما وردت في التوراة) هكذا ذكروا، ونُشِر هذا في جريدة الأهرام القاهرية!!

ومع ذلك فإن المسئولين - في مصر - يصرون على تدريسها للشباب في هذا السن الذي يتسم بالقلق، والحيرة، والبحث عن حقيقة هذا الوجود في حين يعترضون على تدريس الدين الحق في الجامعات، ويمارون في اعتباره مادة نجاح أو رسوب في المدارس، إن هذا لشيء عجيب!!

نماذج من عرض القرآن لدليل الخلق:

١- خلق السماوات والأرض:

- ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[فصلت:٩-١٢].

ورد الحديث عن خلق السماوات والأرض في نحو (٤٢) موضعًا من القرآن الكريم - وهذا الموضع أكثر تفصيلًا - حيث بيَّن أنه -تعالى- خلق الأرض في يومين، وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها في يومين آخرين، وفرغ من السماوات في يومين، فكان خلق السماوات والأرض في ستة أيام كما صرح بذلك القرآن الكريم في أكثر من سورة[1].

وقد كانت السماوات والأرض شيئًا واحدًا متصلًا، خلقه الله -- تعالى- من الماء؛ فقد قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[الأنبياء:٣٠-٣٢].

---

(١) في سور: الأعراف/ ٥٤ - يونس/ ٣ - هود/ ٧ - الفرقان/ ٥٩ - السجدة/ ٤ - ق/ ٣٨ - الحديد/ ٤.

قال البيضاوي: «أي: كانت شيئًا واحدًا، وحقيقة متحدة، ففتقناهما بالتنويع والتمييز»[1].

وجاء في الحديث الشريف: **«كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض»**[2].

وروى ابن جرير عن ابن عباس: أن الله -عز وجل- كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئًا غير ما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانًا، فارتفع فوق الماء فسما عليه، فسُمي سماء، ثم أيبس الماء، فجعله أرضًا، فالماء أصل لجميع الكائنات.

وقد حدد القرآن عدد السماوات بأنها سبع سماوات قال تعالى:

- ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[الإسراء:٤٤].
- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾[المؤمنون:١٧].
- ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾[نوح:١٥، ١٦].

أما الأرض فمع تكرر ذكرها في القرآن الكريم (٤٦١) مرة فإنه لم ترد إلا آية واحدة تشير إلى عددها، وهي:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾[الطلاق:١٢]

وقد خلق الله ـ تعالى ـ الأرض في شكل كرة عظيمة ضخمة. وقد أشارت إلى ذلك بعض آيات القرآن الكريم:

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص٣٥٤ .

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق ـ الفتح (٦/ ٢٨٦).

فقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾[الزمر: ٥]. والتكوير يكون على الشيء الكروي.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾[الحجر:١٩]، فإذا ذهبت إلى أي مكان في الأرض ونظرت تراها ممتدة، منبسطة، مدحوة، فهذا دليل على كرويتها؛ لأنها لو كانت مربعة، أو مستطيلة، أو مثلثة، أو في أي شكل آخر لكان لها أطراف ونهايات من كل جانب إذا وصلت إليها لن تجد أرضًا، فهذا دليل على كرويتها.

وقد جعلها الله تعالى تدور حول نفسها، وتدور حول الشمس:

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾[الفرقان:٦٢].

فالليل والنهار لا يخلف أحدهما الآخر إلا إذا كانت الأرض تدور حول نفسها، فيكون نصفها ليلًا مظلمًا، ويكون نصفها الآخر نهارًا مضيئًا نتيجة تعاقب الليل والنهار ويكونان موجودين معًا على سطحها.

ويقول تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ۝٤٥ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾

[الفرقان:٤٥، ٤٦].

فامتداد الظل وحركته لا يحدث إلا إذا كانت الأرض تدور حول نفسها أمام الشمس.

«وقد جعل الله للأرض أقطارًا مثل أقطار السماوات تحيط بها، وغلافًا جويًا محيطًا بها يحميها ويحفظها، وهو جزء منها؛ ولذلك تحدث القرآن عن المشي في الأرض وليس على الأرض:

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾[الأنعام:١١]، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾[النمل:٦٩]، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠]، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾[الروم:٤٢] فلماذا لم يقل: سيروا على الأرض؟

لقد أتت الحقيقة العلمية لتثبت أننا فعلًا نسير في الأرض، وليس على الأرض؛ لأن هناك غلافًا جويًّا يحيط بالأرض وهو جزء منها، ونحن لا نخرج من الأرض إلا اذا خرجنا من هذا الغلاف الجوي.

فالطائرات التي تطير على ارتفاعات مختلفة تطير في الأرض، وليس خارج الأرض، ولكن الذي يخرج من الأرض هي سفن الفضاء التي تتجاوز الغلاف الجوي للأرض»[1].

٢- خلق الإنسان:

ورد الحديث عن خلق الإنسان في القرآن الكريم في (٤٢) موضعًا.

منها ما يتعلق بخلق الإنسان الأول سيدنا آدم عليه السلام، ومنها ما يتناول خلق زوجه حواء، ومنها ما يدور حول خلق نسلهما.

أما ما يتصل بخلق الإنسان الأول (آدم) فإن القرآن فصَّل ذلك، وبيَّن مراحل خلقه؛ ليثبت وجود الخالق، ويظهر دلائل علمه، وإرادته، وقدرته.

بيَّن القرآنُ (المادةَ) التي خلق منها آدم، وكيف تحولت من حال إلى حال، حتى صار بشرًا سويًّا صالحًا لأن يكون خليفة في الأرض.

وهذه المادة هي (التراب) قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٥٩].

---

(١) من حديث الشيخ الشعراوي نقلًا عن موسوعة روائع الشعراوي بتصرف ص١٥٩، ١٦٠.

و(الماء) قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾[الفرقان:٥٤].

ومن التراب والماء كان (الطين) قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[سورة ص:٧١] وهو طين (لازب) لازق يلصق باليد؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾[الصافات:١١]، واختار منه (سلالة) منتقاة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[المؤمنون:١٢].

وهذه السلالة اسودت وتغيرت، فصارت (الحمأ المسنون) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[الحجر:٢٦] أي: من طين يابس يصلصل أي يصوت، كائن من حمأ مسنون، فهو كالفخار قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾[الرحمن:١٤].

وبعد ذلك (سوَّاه) أي: خلقه ونفخ فيه من روحه؛ قال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[سورة ص:٧١، ٧٢].

وأما ما يتعلق بخلق زوج آدم (حواء) فقد أجمل القرآن الحديث عنه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[النساء:١]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[الأعراف:١٨٩].

وبيَّن الحديث النبوي أن الله خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام.

وأما حديث القرآن عن خلق نسل آدم، فهو حديث مستفيض، جاء في أكثر

من موضع، وكل من هذه المواضع تدل على وجود الخالق الأعظم، ويتسم أسلوب العرض بالدقة الدقيقة، والجمال الأخاذ، والإعجاز العلمي.

من هذه المواضع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون:١٢-١٤].

وإذا فهمنا أن المراد بالإنسان في هذا النص المبارك هو الإنسان الأول ـ سيدنا آدم عليه السلام - فإنه خلق من سلالة من طين على النحو الذي وضحته الآيات الكريمة التي سبق ذكرها.

وإذا كان المراد بالإنسان عموما آدم ونسله فإن العلم الحديث أثبت أن جسم الإنسان يتكون من العناصر التي يتكون منها التراب: «فهو يتكون من الكربون، والأكسجين، والأيدروجين، والفسفور، والكبريت، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور، والمغنسيوم، والحديد، والمنجنيز، والنحاس، واليود، والفلورين، والكوبالت، والزنك، والسيلكون، والألومنيوم، وهذه نفسها هي العناصر المكونة للتراب، وإن اختلفت نسبها في إنسان عن آخر، وفي الإنسان عن التراب إلا أن أصنافها واحدة»[١].

ومن هذه العناصر يتكون الغذاء، ومنه تكون النطفة التي هي عبارة عن مَنِيّ الذكر، وبييضة الأنثى، إنها خلية واحدة، ولكنها الدليل على وجود الخالق – جل في علاه – وهل تجد أدق من وصف رحم الأم بالقرار المكين؟

(١) الله والعلم الحديث لعبد الرازق نوفل صـ١٨٣.

وتبدأ هذه الخلية الواحدة تنمو وتتكاثر، فمنها يتكون اللحم، والعظم والجلد، والأنسجة، والغضاريف، والسوائل، والأجهزة المتنوعة المختلفة للإنسان، والعجيب أن هذه الخلية الواحدة تحمل الصفات الوراثية سواء كانت جسمية، أو عقلية، أو نفسية!!

«انظر إلى الجنين: كيف يتغذى في بطن أمه، وكيف يتنفس، وكيف أن الحبل السُّري الذي يربطه بأمه ليتغذى به منها، قد رُوعي عند تكوينه ما يتحقق الغرض الذي تكون من أجله دون إطالة قد تسبب تخمر الغذاء فيه، أو قِصر قد يؤدي إلى اندفاع الغذاء إليه مما قد يؤذيه. إذا ما فكرنا في ذلك، فلا نملك إلا أن نعترف بقدرة الصانع، ولطف الخالق»[(١)].

وتأمل كيف هيأ الله للجنين الجو المناسب، والوضع الملائم، فأحاطه بثلاثة أغشية صماء، لا تتأثر بالحرارة الخارجية، ولا ينفذ منها الماء أو الضوء، ولا تؤذيه رائحة ما في جوف أمه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[الزمر:٦].

ويوضح لنا سيدنا رسول الله ﷺ معنى قوله تعالى: ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر:٦]، فيقول فيما رواه الشيخان:«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بكتب أربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد».

---

(١) الله والعلم الحديث لعبد الرازق نوفل صـ٤٨.

فتبدأ الأم تشعر بحركة الجنين بعد مائة وعشرين يومًا عند نفخ الروح فيه، وهذه الروح هي التي سيترتب عليها التكليف والحساب بعد البلوغ، وهي تختلف عن الحياة الأولية التي كانت موجودة في النطفة.

وتأمل: كيف خلق الله من المضغة البناء العظمي للإنسان الذي يعطيه شكله المميز، ويحفظ له قوامه، وجعل بين كل عظمتين (مفصلة) تمنحه الحركة الدقيقة المطلوبة سواء أكانت دائرية، أو في اتجاه واحد، أو في اتجاهين، ولولا هذه المفاصل لأصبح جسد الإنسان قطعة واحدة، ووضع حول المفصل سائلًا لزجًا ييسر الحركة أشبه بالشحم الذي يوضع للآلات المعدنية، وخلق حول العظام (عضلات) لحمية تقوم بتحريكها، مع اختلاف عجيب في حجم وشكل وعمل كل عظم، ومفصل، وعضلة!

وتمرُّ أيام الحمل حتى لحظة الولادة، ولكن كيف يخرج هذا الجنين من هذا المكان الضيق بعد أن كبر حجمه، وزاد وزنه؟

إن الله – سبحانه – وتعالى يهيئ أسباب ذلك: فيفرز الرحم السوائل اللازمة لخروج الجنين إلى الخارج. يقول الحق: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾[عبس:١٧-٢٠].

وهذا نموذج من دليل الخلق الذي تحدى به الحق جميع الخلق فقال: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[الطور:٣٥، ٣٦].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[الأحقاف:٤].

يا أيها الماءُ المهينُ من الذي سوَّاك ... ومن الذي في ظلمة الأحشاء قد والاكا
ومن الذي غذَّاك من نعمائه ... ومن الكروب جميعها نجاكا
ومن الذي شقَّ العيونَ فأبصرت ... ومن الذي بالعقل قد حلَّاكا
ومن الذي تعصي ويغفر دائما ... ومن الذي تنسى ولا ينساكا

* * *

٣- خلق الطعام:

- قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[عبس:٢٤-٣١].

رأينا فيما سبق أن الإنسان في بطن أمه يحصل على غذائه منها عن طريق الحبل السُّري. وقبل خروجه من بطن أمه يكون الحق -تعالى- قد أعدَّ له مصدرًا آخر لطعامه، وهو ثدي أمه الذي يبدأ فيه تصنيع اللبن، وهو الغذاء الأمثل له بما يحويه من مواد نشوية، ودهنية، وبروتينية، وفيتامينات، وأملاح. والذي يختلف تركيبه وتركيزه يوما بعد يوم؛ ليتناسب مع حجمه، ومع قدرة معدته على هضمه.

وبعد أن يُتمَّ الرضاعة يكون الله قد هيأ له جهازه الهضمي من فم وأسنان .. إلخ؛ لتناول ما أودعه الله له في الأرض من نبات وحيوان تكفي لمخلوقات الله، قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾

[فصلت:١٠].

فقد هيأ الله تربة الأرض للإنبات بحيث يسهل انتقال ما فيها من مواد غذائية إلى بذور النبات: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن

كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر: ١٩، ٢٠].

وكل بذرة تحمل خصائص نوعها وصنفها، فتشق الأرض إلى أعلى مكونة: الساق، والفروع، والثمار، وتشق الأرض إلى أسفل مكونة: الجذور، والعروق التي تمتص من التربة الغذاء.

ولا بد من مياه الري، وإلا بقيت البذور جافة كما هي دون إنبات فاقتضت حكمته – تعالى – أن تتبخر مياه البحار، فتصير سحابًا يسقط غيثًا مغيثًا، تتكون منه الأنهار، والعيون، والمياه الجوفية محفوظة في صحن صخري، حتى لا تغور في أعماق الأرض: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

وحرارة الشمس عنصر مهم للإنبات ولكن بقدر معين؛ لأنها لو كانت ساطعة دائمًا لاحترقت النباتات. من هنا كانت حكمة خلق الليل والنهار: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ الَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦].

والمادة الخضراء الموجودة في النبات هي مصانع الغذاء؛ حيث تحول المواد المبثوثة في التربة من ماء وأملاح ومعادن، وتضيف إليها ثاني أكسيد الكربون الموجود في الهواء، مع استخدام حرارة الشمس تحول ذلك إلى مواد غذائية صالحة لطعام الإنسان والحيوان.

تأمل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا

قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام:٩٩].

* * *

ثالثًا: دليل التقدير:

نلاحظ أن كل ما تقع عليه حواسنا من موجودات مُقَدَّر بقدر معين، وكل مقدر بقدر معين لابد له من فاعل عالم مختار قادر، وهو الله سبحانه وتعالى.

فمن الذي خصَّ كل موجود بالقدر المحدود الذي هو عليه؟ وكان من الممكن أن يكون أصغر مما هو عليه أو أكبر، أو يكون أطول أو أقصر، أو يكون أصلب أو ألين، أو يكون أثقل أو أخف، أو يكون أكثف أو ألطف، أو يكون أبرد أو أحرَّ، أو يكون أحلى أو أمر، أو يكون أسرع أو أبطأ، أو يكون أقرب أو أبعد، وغير ذلك من خصائص المادة المحتاجة لكي تُوْجَد إلى مَنْ يُقدرها بقدرها، سواء كانت مما يوزن أو يقاس، أو يكال، أو يُعد؛ تأمل قوله تعالى:

- ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[الطلاق:٣].
- ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد:٨].
- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى:٢، ٣].

ويقول عن الأرض: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾[فصلت:١٠]. ويقول: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر:١٩-٢١].

ويقول عن الليل والنهار: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[المزمل:٢٠].

ويقول عن الشمس والقمر: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٣٨-٤٠].

ويقول عن الإنسان: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾[عبس:١٩].

* * *

رابعًا: دليل التسخير:

وهذا الدليل يعتمد على ما نشاهده في هذا الكون من تسخير كل أجزائه لخدمة الإنسان، وموافقة كل عوالمه لوجوده، وهذا التسخير وتلك الموافقة يدلان دلالة قاطعة على وجود فاعل، قادر، حكيم.

تأمل تسخير عالم الأفلاك للإنسان؛ يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[الرعد:٢].

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[الأنعام:٩٦، ٩٧].

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[النحل:١٢].

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى

لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس:٣٧-٤٠].

وتدبر تسخير عالم الحيوان والطيور؛ يقول تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٥-٨].

- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾[النحل:٦٦].

- ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:٦٨، ٦٩].

- ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[الحج:٣٦].

- ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[الزخرف:١٢، ١٣].

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[النحل:٧٩].

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾[الملك:١٩].

وانظر إلى تسخير عالم النبات للإنسان؛ يقول تعالى:

- ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:١٠، ١١].

- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[الأنعام:١٤١].

- ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[عبس:٢٤-٣٢].

وفكر في تسخير عالم الرياح والبحار والأنهار؛ يقول الحق:

- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾

[الأعراف:٥٧].

- ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[الحجر:٢٢].

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[الروم:٤٨].

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:١٤].

- ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[النمل:٦١].

- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[الشورى:٣٢، ٣٣].

وتمعن في تسخير أجهزة جسمك وأعضائك لك:

إن ما يسهل استخدامه والتحكم فيه قد سخره الله لك حسب إرادتك واختيارك: فلك أن تنظر بعينيك، وأن تخطو بقدميك، وأن تعمل بيديك، وأن تنطق بلسانك وشفتيك، وهكذا.

أما ما يصعب على الإنسان التحكم فيه من أجهزته وأعضائه، فقد سخره الله له اضطرارًا يعمل ليلًا ونهارًا.

وتأمل تسخير جهازك (الهضمي) وما فيه من: معدة، وأمعاء، وكبد وبنكرياس.

وجهازك (الدوري) وما فيه من: قلب، وشرايين، وأوردة، وشعيرات، وجهازك (التنفسي) وما فيه من: أنف، وحنجرة، وقصبة هوائية، ورئتين. فمن سخر كل ذلك للإنسان، ليس إلا الله جل في علاه.

* * *

خامسًا: دليل إجابة المضطر:

ويسمى الدليل النفسي، وهو يعتمد على ما يشعر به كل إنسان في وقت الشدة والضيق، أو الحيرة والقلق، أو المرض أو الغرق من وجود قادر حنان منان، يجيب دعاءه إذا سأله، ويفرج كربه إذا تضرع إليه، ويكشف ما به من سوء إذا لجأ إليه، ومن منَّا لم يمر بمثل هذه الأوقات !!

وكم أجاب الله دعوة المضطر!! تدبر هذه الآيات:

- ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:٤٠، ٤١].

- ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٦٣، ٦٤].

- ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[يونس:١٢].

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[يونس:٢٢، ٢٣].

- ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[الإسراء:٦٧].

- ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[النمل:٦٢].

- ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت:٦٥].

- ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾[الزمر:٨].

* * *

مناقشة الماديين

وبعد أن طوَّفت بك مع هذه الأدلة المختلفة على وجود الله ـ تعالى ـ أودُّ أن أقف لحظات مع الماديين؛ لنصفي معهم الحساب فيما يتعلق بهذا الموضوع،

والماديون هم الذين لا يؤمنون بوجود شيء إلا المادة فقط؛ فما يرى بالعين، أو يسمع بالأذن، أو يشم بالأنف، أو يذاق بالفم أو يلمس بالحس، هو الموجود، وغير ذلك ليس موجودًا .

ويرون أن وسيلة المعرفة هي التجربة فقط ولا وسيلة غيرها.

فهم يحصرون الوجود في الأشياء المادية وظواهرها، وإذا أردت إدراك شيء فليس أمامك إلا الملاحظة والتجربة.

وينكر الماديون بناء على ما تقدم وجود إله خالق لهذا الكون، وما يترتب على وجود هذا الإله من إمكان النبوة، والبعث، والخلود وما إلى ذلك، وكثيرًا ما نسمع منهم أن العالم وجد بالطبيعة، أو وجد بالصدفة، وأنه قديم لا بداية له، وسيستمر على غير نهاية، وأن الدين يتعارض مع مقررات العلم الحديث.

ونريد أن نناقشهم فيما يأتي:

١ - هناك أشياء يؤمن بوجودها العلماء الماديون، ويبنون عليها نظرياتهم، ولم يرها عالم واحد منهم، مثال ذلك:

الإلكترونات التي يؤمن بوجودها العلماء ويؤسسون على وجودها كثيرًا من النظريات والمخترعات .

والأثير الذي يتصورونه شيئًا لطيفًا لا وزن له غير قابل للضغط وهو يملأ الوجود كله.

الجاذبية التي يعتبرون وجودها حقيقة علمية، ويفسرون بها كثيرًا من الظواهر.

فماذا يقول الماديون في هذه الأمور؟ أيستطيع واحد منهم أن يدَّعي أنه قد رأى شيئًا منها؟

فلماذا ينكرون وجود إله لا نراه الآن؟ إنما نوقن بوجوده عن طريق آثاره وأفعاله.

يقول علماء الطبيعة: إن الضوء لا يُرى وإنما نحسه بآثاره، وعندما اقترب العلماء من الشمس وهي المصدر الطبيعي للضوء كان المتوقع أن يكون الضوء أقوى وأشد لكن كان العكس لم يجدوا ضوءًا قط؛ وذلك لعدم وجود شيء يظهر به الضوء كالغبار، والذرات المائية مثلًا.

فالضوء خلق من خلق الله، ولا يرى فكيف يستبعد وجود خالق، لا يرى الآن!!

٢- وإلى هؤلاء القائلين بأن العالم وُجد بالطبيعة، نوجه إليهم هذا السؤال: ما الطبيعة ؟ ما المقصود بها؟ وما حقيقتها؟

هل هي شيء حي أو ميت؟ قادر أو عاجز ؟ عالم أو جاهل؟

فإن قالوا: حي قادر عالم، فهو: الله.

أما إن كان غير ذلك فلا يتصور منه إيجاد أو خلق؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وتأمل ما كتبه الشيخ محمد الغزالي:

«دار بيني وبين أحد الملاحدة جدال طويل، ملكت فيه نفسي، وأطلت صبري، حتى ألقف آخر ما في جعبته من إفك، وأدفع بالحجة الساطعة ما يورد من شبهات.

قال: إذا كان الله قد خلق العالم، فمن خلق الله؟

قلت له: كأنك بهذا السؤال، أو بهذا الاعتراض تؤكد أنه لا بد لكل شيء من خالق.

قال: لا تلقني في متاهات. أجب عن سؤالي.

قلت له: لا لف ولا دوران. إنك ترى أن العالم ليس له خالق، أي: إن وجوده من ذاته دون الحاجة إلى موجد.

فلماذا تقبل القول بأن هذا العالم موجود من ذاته أزلًا، وتستغرب من أهل الدين أن يقولوا: إن الله الذي خلق العالم ليس لوجوده أول؟

إنها قضية واحدة، فلماذا تصدق نفسك حين تقررها، وتكذب غيرك حين يقررها؟

وإذا كنت ترى أن إلها ليس له خالق خرافة، فعالم ليس له خالق خرافة كذلك وفق المنطق الذي تسير عليه.

قال: إننا نعيش في هذا العالم، ونحس وجوده، فلا نستطيع أن ننكره؟

قلت له: ومن طالبك بإنكار وجود العالم؟

إننا عندما نركب عربة، أو باخرة، أو طائرة، تنطلق بنا في طريق رهيب، فتساؤلنا ليس في وجود العربة، وإنما هو: هل تسير وحدها، أو يُسيرها قائد بصير؟

ومن ثم فإنني أعود إلى سؤالك الأول لأقول لك: إنه مردود عليك.

فأنا وأنت معترفان بوجود قائم لا مجال لإنكاره. تزعم أنه لا أول له بالنسبة إلى المادة وأرى أنه لا أول له بالنسبة إلى خالقها، فإذا أردت أن تسخر من موجود لا أول له، فاسخر من نفسك قبل أن تسخر من المتدينين».

٣- أما القائلون بأن العالم وُجِدَ بالصدفة فإننا نقول لهم: من أين للعالم هذا النظام العجيب، وهذا الترتيب الدقيق الذي يحير العقول، ويدهش الألباب؟

وإن ما يحدث صدفة لا يتكرر، ولولا هذا التكرار المنظم ما استطعنا أن نقيم علمًا واحدًا من العلوم الطبيعية والرياضية.

«ولقد حسب العلماء احتمال اجتماع الذرات التي يتكون منها جزئي واحد من الأحماض الأمينية -وهي المادة الأولية التي تدخل في بناء البروتينات واللحوم- فوجدوا أن ذلك يحتاج إلى بلايين عديدة من السنين، وإلى مادة لا يتسع لها هذا الكون المترامي الأطراف!!

هذا لتركيب جزئي واحد على ضآلته فما بالك بأجسام الكائنات الحية جميعًا من نبات وحيوان؟! وما بالك بما لا يحصى من المركبات المعقدة الأخرى؟! وما بالك بنشأة الحياة وبملكوت السماوات والأرض؟!

إنه يستحيل عقلًا أن يكون ذلك قد تم عن طريق المصادفة العمياء، أو الخبطة العشواء، لا بد لكل ذلك من خالق مبدع عليم خبير، أحاط بكل شيء علما، وقدر كل شيء ثم هدى»[(١)].

ولندع الرد على القائلين بأن العالم وجد بالصدفة لكبار علماء الكون المتخصصين في أدق فروع العلم الحديث، وفي ردهم أيضًا أبلغ دليل على قضية تعارض العلم والدين.

يقول عالم الطبيعة البيولوجية الدكتور(فرانك ألن): «إن ملائمة الأرض للحياة تتخذ صورًا عديدة، ولا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة، أو العشوائية، فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار، وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام فيكون في ذلك تتابع

---

(١) انظر: الله يتجلى في عصر العلم صـ٤.

الفصول الذي يؤدي بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت الأرض ساكنة»[1].

ويقول الدكتور (جون كليفلاند كوثران) رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث: «هل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟ أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام، وتلك القوانين، ثم فرضته على نفسها؟ لا شك أن الجواب سوف يكون سلبيًا. بل إن المادة عندما تتحول إلى طاقة، أو تتحول الطاقة إلى مادة، فإن كل ذلك يتم طبقا لقوانين معينة، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة المعروفة التي وجدت قبلها»[2].

ويقول الدكتور (وولتر أوسكار لندبرج) عالم الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية، عضو ورئيس جمعيات عديدة لدراسة الطعام وتركيبته الغذائية، ومؤلف سلسلة كتب تركيب الدهون: «إن الطريقة العلمية تقوم على أساس انتظام الظواهر الطبيعية، والقدرة على التنبؤ بها في ظل هذا الانتظام، ونستطيع أن نقول بكل دقة: إن هذا الانتظام في ظواهر الكون والقدرة على التنبؤ بها -وهما الأساسان اللذان تقوم عليهما الطريقة العلمية- هما في الوقت ذاته أساس الإيمان بفكرة وجود الله؛ إذ كيف يتسنى أن يكون هنالك كل هذا النظام، وأنَّى يتسنى لنا أن نتنبأ بهذه الظواهر مالم يكن هنالك مبدع، ومدبر، وحافظ لهذا النظام العجيب»[3].

وهذا عالم آخر حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة مانيسوتا، ورئيس

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم صـ٢٤.

(٢) المرجع السابق صـ٦.

(٣)المرجع السابق صـ٤٠.

قسم البحوث الذرية بالبحرية الأمريكية، وأخصائي في الإشعاع الشمسي والبصريات الهندسية والطبيعية يقول: «لقد أتيح لي بفضل اشتغالي بدراسة الطبيعة أن أدرس التركيب المعقد إلى درجة لا يتصورها العقل لبعض مكونات هذا الكون الذي لا تقل فيه روعة التذبذبات الداخلية لأصغر ذراته، وما دون ذراته عن النشاط المذهل لأكبر النجوم السابحة في أفلاكها، والذي يسير فيه كل شعاع من الضوء، وكل تفاعل كيمياوي أو طبيعي، وكل خاصية من خواص كل كائن حي وفق قوانين ثابتة، لا تتبدل ولا تتغير، تلك هي الصورة التي تقدمها لنا العلوم، والتي كلما تأملها الإنسان، اكتشف من بالغ دقتها، وروائع جمالها مالم يكن قد اكتشفه من قبل»[١].

ويقول: «إن كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله، وإنها تدل على وجوده حتى دون حاجة إلى الاستدلال بأن الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها»[٢].

وهذا أستاذ آخر تخصص في وراثة النباتات ودراسة شكلها الظاهري وفي الحياة البرية يقول: «إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها، والتي لا يحصيها عد وهي التي تتكون منها جميع المواد، كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها: كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تُكَوِّنَ الحياة»[٣].

وتأمل ما يقول مصمم العقل الإلكتروني (كلودم. هاثاواي) في هذا الصدد:

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم صـ٤١.
(٢) المرجع السابق صـ٥٢.
(٣) المرجع السابق صـ٧٩ .

«ليس العالم من حولنا إلا مجموعة هائلة من التصميم والإبداع والتنظيم. وبرغم استقلال بعضها عن بعض فإنها متشابكة متداخلة، وكل منها أكثر تعقيدًا في كل ذرة من ذرات تركيبها من ذلك المخ الإلكتروني الذي صنعته، فإذا كان هذا الجهاز يحتاج إلى تصميم، أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجي الكيمي البيولوجي الذي هو جسمي، والذي ليس بدوره إلا ذرة بسيطة من ذرات هذا الكون اللانهائي في اتساعه وإبداعه إلى مبدع يبدعه؟

إن التصميم، أو النظام، أو الترتيب، أو سَمهَا ما شئت، لا يمكن أن ينشأ إلا بطريقتين: طريق المصادفة، أو طريق الإبداع والتصميم وكلما كان النظام أكثر تعقيدًا، بَعُدَ احتمال نشأته عن طريق المصادفة، ونحن في خضم هذا اللانهائي لا نستطيع إلا أن نسلم بوجود الله.

هذه شهادات طائفة ممن تخصصوا تخصصًا دقيقًا على مستوى عالٍ في فروع العلم الحديث المتنوعة. فماذا بعد هذا؟

تأمل في هذه المعاني:

قل للطبيب تخطفته يدُ الردى ... يا شافيَ الأمراضِ: مَن أرداكا؟

قل للمريض نجا وعُوفي بعدما ... عجزت فنونُ الطب: من عافاكا؟

قل للصحيح يموت لا من علة ... من بالمنايا يا صحيحُ دهاكا؟

قل للبصير وكان يحذر حفرة ... فهوى بها من ذا الذي أهواكا؟

بل سائل الأعمى خطا بين الزحا ... م بلا اصطدام: من يقود خطاكا؟

قل للجنين يعيش معزولًا بلا ... راعٍ ومرعى: ما الذي يرعاكا؟

قـل للوليـد بكـى وأجهـش بالبكـاء ... لـدى الـولادة: مـا الـذي أبكاكـا؟

وإذا تـرى الثعبـان ينفـث سِـمَّه ... فاسـأله: مـن ذا بالسـموم حشـاكا؟

واسـأله كيـف تعيـش يـا ثعبـان أو ... تحيـا وهـذا السُّـمُ يمـلأ فاكـا؟

واسـأل بطـونَ النحـل كيـف تقاطرت ... شـهدًا وقـل للشـهد مـن حلاكـا؟

بـل سـائل اللبـن المصفى كـان بـين ... دم وفـرث مـا الـذي صفاكا؟

وإذا رأيـت الحـيَّ يخـرج مـن حنـا ... يـا ميـتٍ فاسـأله: مـن أحياكـا؟

قـل للهـواء تحسُّـهُ الأيـدي ويخفـى ... عـن عيـون النـاس مـن أخفاكـا؟

قـل للنبـات يجـف بعـد تعهـد ... ورعايـة: مـن بالجفـاف رماكـا؟

وإذا رأيـت النبـت في الصـحراء يـر ... بـو وحـده فاسـأله: مـن أرباكـا؟

وإذا رأيـت البـدر يسـري ناشـرًا ... أنـواره فاسـأله: مـن أسـراكا؟

واسأل شعاع الشمس يدنو وهي أبـ ... عـد كـل شـيء مـا الـذي أدناكـا؟

قـل للمريـر مـن الثمـار مـن الـذي ... بـالمرِّ مـن دون الثمـار غـذاكا؟

وإذا رأيـت النخـل مشـقوق النـوى ... فاسـأله: مـن يـا نخـل شـق نواكـا؟

وإذا رأيـت النـار شـب لهيبهـا ... فاسـأل لهيـب النـار: مـن أوراكـا؟

وإذا تـرى الجبـل الأشـم مناطحًـا ... قمـم السـحاب فسـله مـن أرسـاكا؟

وإذا تـرى صـخرا تفجـر بالميـاه ... فسـله: مـن بالمـاء شـق صـفاكا؟

وإذا رأيــت النهــر بالعــذب الــزلال جـرى فسـلـه: مــن الــذي أجراكــا؟
وإذا رأيـت البحــر بــالملح الأجـاج طغــى، فســله: مــن الــذي أطغاكــا؟
وإذا رأيــت الليــل يغشــى داجيــا فاســأله: مــن يــا ليــل حــاك دجاكــا؟
وإذا رأيــت الصــبح يســفر ضــاحيًا فاسأله: من يا صبح صاغ ضحاكا؟
هــذي عجائــب طالمــا أخــذت بهــا عينــاك وانفتحــت بهــا أذناكــا!!
والله في كــل العجائـــب مـاثـــل إن لــم تكــن لــتراه فهــو يراكــا؟[1]

* * *

(١) هذه الأبيات من قصيدة بعنوان: (مع الله) للشاعر إبراهيم بديوي من علماء الأزهر الشريف/ نشرتها مجلة الوعي الإسلامي في عدد جمادى الآخرة ١٣٨٩هـ (صـ٣٦).

الفصل السابع

صفات الله تعالى

مقدمة:

لكل موجود صفات يتميز بها عن غيره، وصفات الله – تعالى- كلها صفات كمال، لا مجال للنقص فيها بحال من الأحوال؛ لأن له – تعالى- المثل الأعلى، كما قال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾[النحل:٦٠].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾[الشورى:١١]، أي: ليس كهو شيء، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾[البقرة:١٣٧] أي: بالذي آمنتم به فالكاف للتأكيد، وقد نزَّه الله ـ تعالى ـ نفسه عما يصفه به المشركون من صفات النقص فقال: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الصافات:١٨٠].

وعن ابن عباس أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: صف لنا ربك الذي تعبد. فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١]،...إلخ فقال: هذه صفة ربي ﷻ .

وعَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بـ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: «لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ»[1].

---

(١) رواه البخاري في التوحيد ـ الفتح ـ (١٣/ ٣٥٦).

وباب الصفات أوسع من باب الأسماء؛ لأن كل اسم من أسمائه الحسنى متضمن لصفة من صفاته العليا دون العكس.

ولأن من صفاته ـ تعالى ـ ما يتعلق بأفعاله، وأفعالُه لا نهاية لها.

ونحن نصف الله ﷻ بما وصف به نفسه في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة، ولا سبيل للعقل البشري. لأن يدرك كنه وحقيقة صفاته تعالى، وإن اشترك بعضها مع بعض صفات الخلق، لكنه اشتراك في اللفظ فقط. فعلى العقل البشري أن يقف عند ما أتى به الوحي من صفات لرب العزة -جل في علاه- ولا يتجاوز ذلك، ولا يجنح إلى الإفراط أو التفريط.

قال الإمام الشافعي: «لا يبلغ الواصفون كنه عظمته، الذي هو كما وصف نفسه، وفوق ما يصفه خلقه»[(١)].

تقسيم صفاته تعالى:

لا يمكننا حصر صفاته ﷻ لكننا إذا نظرنا إلى معناها نجدها تنقسم إجمالًا إلى قسمين:

١- صفات سلبية أو تنزيهية: وهي تدل على سلب النقص عنه -تعالى- فإذا قلنا: إنَّ من صفاته (البقاء) فهذا يعني: سلب الفناء والعدم عنه تعالى.

٢- صفات وجودية أو ثبوتية: وهي تدل على كمال موجود في الخالق وهي أكثر ورودًا في القرآن والسنة من الصفات السلبية.

وهي تنقسم إلى قسمين: ذاتية وفعلية:

(أ) **فالصفات الذاتية**: هي المعاني التي تدل على الكمال والعظمة،

---

(١) الرسالة صـ٨.

فيتصف بها، ويستحيل أن يتصف بضدها؛ لأن ضدها نقص، وهو لم يزل ولا يزال متصفًا بها، وذلك كالعلم والقدرة، ومنها الصفات الخبرية التي جاءت في القرآن والسنة ولا يدل عليها العقل، مثل: الوجه واليد.

(ب) **والصفات الفعلية**: هي الصفات التي تتعلق بمشيئته وقدرته؛ إن شاء فعلها، وإن لم يشأ لم يفعلها، فيمكن أن يتصف بها أو بضدها، وذلك كالإحياء، والإماتة، والخلق، والرزق، فهي من متعلقات قدرته، وكان علماء التوحيد القدامى لا يقسِّمون الصفات، ولا يميزون بعضها عن بعض في كتبهم، إنما يسردونها سردًا، مُكتفين بذكر الآيات القرآنية التي وردت فيها الصفة، والأحاديث النبوية بأسانيدها التي تدل على هذه الصفة، كما نرى ذلك عند الإمام ابن خزيمة (٢٢٣ - ٣١١هـ) في كتاب: (التوحيد وإثبات صفات الرب).

لكن من جاء بعدهم من العلماء اهتم بتقسيم صفات الله ﷻ وتبويبها؛ تيسيرًا على الدارس لها، والراغب في التعرف عليها.

الصفات التنزيهية أو السلبية:

هي الصفات التي تنفي عن الله ـ تعالى ـ النقص، فيكون معناها: نفي ضدها عنه تعالى، فإذا قلنا: من صفاته السلبية (البقاء) فمعناه: سلب الفناء عنه.

وقد نفي الله ـ تعالى ـ النقائص عن ذاته: ليثبت له كمال ضدها، وكذلك في السنة المطهرة.

مثال ذلك من القرآن الكريم:

- ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾[الكهف:٤٩] نفيُ الظلم يتضمن كمال عدله.

- ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨] نفي الموت يتضمن كمال حياته.

- ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ﴾[البقرة:٢٥٥] نفي ذلك يتضمن كمال حياته وقيوميته.

- ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾[البقرة:٢٥٥] لكمال قدرته.

- ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[سورة ق:٣٨] أيضًا لكمال قدرته.

- ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[الأنعام:١٠٣] لكمال جلاله، وعظمته وكبريائه.

- ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[سبأ:٣] لكمال علمه.

ومثاله من السنة المطهرة:

- قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لا يَنَامُ، وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»(١).

- وقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لا مُسْتَكْرِهَ لَهُ»(٢).

- وقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لا يَتَعَاظَمُ عَلَيْهِ شَيْءٌ»(٣).

- وقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلا التَّفَحُّشَ»(٤).

- وقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»(٥).

- وقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً يُعْطَى»(٦).

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢/ ٤٥٨).
(٢) رواه مسلم في الإيمان (١/ ١٦٢).
(٣) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٤/ ٢٦٣).
(٤) رواه مسلم في السلام (٤/ ١٧٠٧).
(٥) رواه البخاري في التوحيد – المتن (٩/ ١٤٨) والفتح (١٣/ ٤٠١).
(٦) رواه مسلم في صفات المنافقين (٤/ ٢١٦٢).

وقد قام علماء التوحيد بدراسة صفات الله التنزيهية، واختلفت طرقهم في عرضها، فمنهم من يُجمل، ومنهم من يُفصل، ومنهم من يلتزم بالألفاظ الواردة في القرآن والسنة، ومنهم من يستعمل المصطلحات العلمية في التعبير عنها بعد اتفاقهم على أنه يجب تنزيه الحق عن كل ما لا يليق بذاته جل في علاه.

وإليك نموذجًا لمن أجمل صفات التنزيه في أحد كتبه، وهو الإمام أبو حامد الغزالي، قال عن الله تعالى:

«إنه في ذاته واحد، لا شريك له، فرد لا مثيل له، صمد لا ضد له، منفرد لا ندَّ له، وإنه واحد قديم لا أول له، أزلي لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدي لا نهاية له، قيوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفًا بنعوت الجلال، لا يقضي عليه بالانقضاء والانفصال، بتصرم الآباد وانقراض الآجال، بل هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم.

وأنه ليس بجسم مُصوَّر، ولا جوهر محدود مقدَّر، وأنه لا يماثل الأجسام، لا في التقدير، ولا في قبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر، ولا تُحلُّه الجواهر، ولا بعرض، ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجودًا، ولا يماثله موجود، ليس كمثله شيء، ولا هو مثل شيء، وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه الأرضون ولا السماوات.

وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده استواءً منزهًا عن المماسة والاستقرار، والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش والسماء، فوق كل شيء إلى تخوم الثرى، فوقية لا تزيده قربًا إلى العرش والسماء، كما لا تزيده بعدًا عن الأرض والثرى، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء، كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى.

وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد؛ إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام.

وأنه لا يحل في شيء، ولا يحل فيه شيء. تعالى عن أن يحويه مكان، كما تقدس عن أن يحده زمان، بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان»[1].

وأغلب علماء التوحيد يذكرون في هذا الباب خمس صفات دل عليها العقل الصريح، والنقل الصحيح، وإليها ترجع سائر التنزيهات، فهي لها كالأمهات؛ وهي: القدم أو الأولية، والبقاء أو الآخرية، والقيام بالنفس، والمخالفة للحوادث، والوحدانية .وإليك التفصيل:

١- صفة الأولية

ويسميها علماء التوحيد (صفة القِدَم) ومعناها: أن الله – تعالى - لا أول لوجوده، فهو أزلي لا بداية له، ولم يسبقه عدم، فقد كان الله ولا شيء غيره، ثم خلق الخلق.

وقد سأل أحد الرهبان الإمام أبا حنيفة هذا السؤال: ماذا قبل الله؟ فأجاب أبو حنيفة: هل تُحسنِ العدد؟ قال: نعم، قال: ماذا قبل الواحد؟ قال: لا شيء قبله. قال: إذا كان الواحد الفاني لا شيء قبله، فالله – سبحانه- لا شيء قبله، وإذا وصفنا الله بالقدم، فمعناه يختلف عن وصف شيء من المخلوقات بالقدم؛ إذ معنى قدم المخلوق: طول المدة، وتوالى الزمن على الشيء.

(١) إحياء علوم الدين (١/ ١٥٤).

وقد جاء لفظ (القديم) في القرآن الكريم في ثلاث آيات:

١ - ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[يس:٣٩].

٢ - ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[يوسف:٩٥].

٣ - ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[الأحقاف:١١].

فالقديم في هذه الآيات معناه الذي توالى عليه الزمن، أما بالنسبة لله فهو الذي لا بداية له.

وهذا المعنى قد جاءت به اللغة العربية، ودوَّنه أصحاب المعاجم اللغوية: جاء في (القاموس المحيط): «القِدم ـ كعِنَب ـ ضد الحدوث»[(١)].

وجاء في لسان العرب: «القديم على الإطلاق: الله عز وجل ... والقِدَم نقيض الحدوث»[(٢)].

وورد في مختار الصحاح: «القدم ضد الحدوث»[(٣)].

وكان الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يطلق على الله لفظ (القديم) قال: «ثبت أن القديم شيء لا كالأشياء، وحي لا كالأحياء»[(٤)].

فنطلق على الله لفظ (القديم) على أنه صفة وليس اسمًا من الأسماء الحسنى؛ لأنه يتوسع في الصفات ما لا توسع في الأسماء.

وقد جاء الشرع بلفظ (الأول) وهو أفضل؛ لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه،

---

(١) (٣/ ٥٠٦).
(٢) (٥/ ٥٥٢).
(٣) صـ ٥٢٥
(٤) عقيدة الإمام أحمد لابن تميم الحنبلي بذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٦٥).

وتـابع لـه، قـال تعـالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[الحديد:٣].

وعن أبي هريرة قال كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول: «اللهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»[١].

أما لفظ (القديم) فلم أجده في السنة المطهرة إلا في رواية لابن ماجة في كتاب الدعاء، فقد عده ضمن أسماء الله الحسنى في أثناء سرده لها، وهذه الرواية ضعيفة كما في الزوائد[٢].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ»، قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ، إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ»، قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالُوا: جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ؟

قَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ.

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٨٤).

(٢) سنن ابن ماجة (٢/ ١٢٧٠).

فَنَادَى مُنَادٍ: ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الحُصَيْنِ، فَانْطَلَقْتُ، فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ، فَوَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا»[1].

وفي رواية: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**»[2].

بلفظ (قبله) بدل (غيره) الذي هو أصرح في القِدم، أي: لا الماء ولا العرش ولا غيرهما، وكأن راويها رواها بالمعنى أخذًا من حديث: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء**».

وبعطف خلق السماوات والأرض بلفظ (ثم) بدل الواو، ويؤيد ذلك ما رواه الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**»، قال: «**وعرشه على الماء**».

فترتيب المخلوقات هكذا: الماء، ثم العرش، ثم القلم، ثم السماوات والأرض.

والدليل العقلي على صفة القدم:

أنه ـ تعالى ـ لو لم يكن قديمًا لكان حادثًا مثل هذه المخلوقات، فلا يتأتى له أن يُحدثها، ولكان محتاجًا إلى علة تمنحه الوجود. كيف وهو الخالق لكل موجود؟!

---

(١) رواه البخاري في بدء الخلق – الفتح (٦/ ٣٣٠)، والبشرى: أن من أسلم نجا من الخلود في النار وقولهم: (بشرتنا فأعطنا) أي: أعطنا من أمور الدنيا، والذكر: اللوح المحفوظ، أو سجل الكائنات التي قدرها الحق.

(٢) رواها البخاري في التوحيد – الفتح (١٣/ ٤١٤).

٢- صفة الآخرية

ويسميها علماء التوحيد: صفة (البقاء)

ومعناها: أن الله ـ تعالى ـ لا آخر لوجوده، فلا يلحقه عدم أو فناء.

أما البقاء بالنسبة للمخلوق فمعناه: استمرار الوجود زمنين أو أكثر.

والدليل النقلي على صفة البقاء:

- قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾[الحديد:٣].

- وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان:٥٨].

- وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٨].

- قال الطبري: «معناه إلا هو»[١] تعالى.

وقال الشوكاني في تفسيرها: «أي إلا ذاته»[٢] تعالى.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧].

قال ابن عباس:«الوجه عبارة عنه تعالى»[٣].

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ١٢٧).
(٢) فتح القدير، الشوكاني، (٤/ ٢١٨).
(٣) ينظر: فتح القدير (٥/ ١٣٦).

وقال الشوكاني: «الوجه عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده»[(١)].

فسواء فسرنا (الوجه) بالذات، أو بصفة من صفات الذات فمعلوم أن الصفة لا تبقى من دون الموصوف، فالله باق بذاته وصفاته.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**لا إله إلا الله وحده، أعز جنده ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده**».

والدليل العقلي على اتصافه بالبقاء:

أنه لو لم يجب لله البقاء لجاز عليه الفناء. كيف ذلك وقد ثبت قدمه وكل ما ثبت قدمه استحال عدمه؟!

٣- صفة القيومية

ويسميها علماء التوحيد: (القيام بالنفس)، وقد ورد إطلاق (النفس) على الله ـ تعالى ـ كما في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[الأنعام: ٥٤]، وقوله: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[طه:٤١].

والنفس مأخوذة من النَّفاسة لا من التنفس؛ لاستحالته عليه.

ومعنى هذه الصفة: أنه – تعالى – مستغن عن غيره استغناءً تامًّا، فهو لا يحتاج إلى محل، ولا يحتاج إلى مخصص.

والمقصود بالمَحل: الذات التي تقوم بها الصفات، فلو كان محتاجًا إلى محل لكان صفة من الصفات، وليس ذاتًا متصفًا بصفات الكمال والجمال.

وليس المراد بالمحل (المكان) فنفي المكان عنه سنتناوله في صفة

---

(١)فتح القدير، الشوكاني (١/ ١٣٦).

(المخالفة للحوادث) وأما أنه – تعالى – لا يحتاج إلى مخصص؛ فلأنه إن احتاج إلى مخصص، أي: فاعل مؤثر يمنحه صفاته، كان حادثًا وهو محال.

وإذا نظرنا إلى مسألة الاحتياج إلى المحل والمخصص، أو عدم الاحتياج نجد ما يأتي:

أ) المستغني عن المحل والمخصص: هو ذات الله تعالى.

ب) المستغني عن المخصص فقط: هو صفات الله تعالى.

جـ) المحتاج إليهما معًا: هو صفاتنا .

د) المحتاج إلى المخصص فقط: هو ذواتنا .

وتكرر وصف الله بالحي القيوم في القرآن ثلاث مرات في البقرة/ ٢٥٥ وآل عمران/ ٢، وطه/ ١١١، والقيوم: القائم بنفسه المانح لغيره ما به قوامه كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[الرعد:٣٣].

وروي البخاري: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**»، وفي رواية «**قيام السماوات**».

قال قتادة: القيام القائم بنفسه بتدبير خلقه، المقيم لغيره[1].

ومن أسمائه الحسنى (الغني) قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣].

---

(١) رواه البخاري في التهجد – الفتح (٣/ ٦).

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

- ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[الأنعام:١٤].

- ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[المؤمنون:٨٨].

وقال في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**»[١].

والدليل العقلي: على اتصافه -تعالى- بهذه الصفة: أنه -تعالى- لو كان محتاجًا إلى محل، أو مخصص لكان حادثًا، وهو محال.

ولو قام – سبحانه– بغيره لكان عرضًا، والأعراض حادثة، وكان صفة قائمة بموصوفها فلا يتصف بصفات المعاني وهذا كله مستحيل عليه.

٤- مخالفته للحوادث

ومعنى هذه الصفة: عدم مماثلته -تعالى- للمخلوقات في الذات، والصفات، والأفعال. فذاته ليست كذواتنا، وصفاته ليست كصفاتنا، وأفعاله ليست كأفعالنا، ومهما تصورت ببالك فالله بخلاف ذلك، ولا يعلم حقيقة الله إلا الله.

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٤/ ١٩٩٤).

فالله - تعالى - ليس جوهرًا، وهو الجزء الذي لا يتجزأ، ولا جسمًا وهو المركب من الجواهر، ولا عرضًا وهو ما يقوم بغيره، فيكون محتاجًا إلى المحل، والله لا يحل في غيره، ولا يتحد بغيره، فكل هذه صفات الحوادث.

ولا يحده مكان، ولا يحصره زمان؛ لأنه كان قبل المكان والزمان، فهو على ما عليه كان.

والله - تعالى - يستحيل أن يكون في (جهة) من الجهات؛ لأن الجهة هي المكان المضاف إلى مكان آخر، وهي خاصة بالأشياء المادية، وما ليس جسمًا يستحيل أن يكون في جهة.

قال الإمام أبو حنيفة: «كان الله – تعالى – ولا مكان، كان قبل أن يخلق الخلق. كان ولم يكن أين - أي: مكان – ولا خلق، ولا شيء وهو خالق كل شيء»(١).

والدليل النقلي: على هذه الصفة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١] أي: ليس كهو شيء، فالكاف لتأكيد النفي مثل قوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾[البقرة:١٣٧]، أي: بالذي آمنتم به.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

[الإخلاص:٣، ٤].

والدليل العقلي: أنه لو كان مماثلًا للمخلوقات لكان حادثًا مثلها واحتاج إلى محدث، وقد ثبت له القدم فبطل كونه حادثًا، فلا يكون مماثلًا للمخلوقات.

---

(١) إشارات المرام للبياضي ص١٩٧.

الرد على مثبتي الجهة لله تعالى:

واستدلال المشبهة على إثبات الجهة لله – تعالى– برفع الأيدي إلى السماء في الدعاء، لا يدل على ثبوتها؛ لأن الله شرع لنا رفع الأيدي إلى السماء في الدعاء، كما شرع لنا السجود على الأرض في الصلاة، كما شرع لنا الطواف حول بيته الحرام، وكل ذلك لا يثبت جهة لله، ولما كان الرزق في السماء؛ فإليه ترفع الأيدي بالدعاء.

واستدلالهم بحديث الجارية التي قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» فقالت: في السماء، لا يدل على إثباتها؛ لأن (أين) كما يُسأل بها عن المكان، يُسأل بها عن المكانة والمنزلة، كما يقال لك: أين فلان منك؟ فنقول: في السماء، أي: في أعلى منزلة وأكمل رتبة.

قال أبو بكر بن فُورك: «إن معنى قوله ﷺ: «**أين الله**»: استعلام لمنزلته وقدره عندها وفي قلبها»[(١)].

وقال العلامة المحقق الشيخ زاهد الكوثري: «إن حديث الرسول ﷺ مع الجارية لم يكن إلا بالإشارة، وسَبَكَ الراوي ما فهمه من الإشارة في لفظ اختاره» وقال: إن كلمة (أين الله) ليست من لفظ الرسول.

وقد فعلت الرواية بالمعنى ما حدث في الحديث من اضطراب.

وقد ذكر البيهقي في (السنن الكبرى٧/ ٣٨٧): «اختلاف الرواة في لفظ الحديث مع أسانيد كل لفظ».

وقال الكوثري: «وقد توسعنا في شرح الحديث، وبيان مبلغ اضطرابه سندًا ومتنًا فيما كتبناه على نونية ابن القيم ص٩٤»[(٢)].

---

(١) مشكل الحديث ص١٥٩.

(٢) الأسماء والصفات هامش٥٥٦ ط د. محمد نجم الدين الكردي.

وإن ظن المشبهة أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام:١٨]، يثبت الجهة لله فقد قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾[الزخرف:٣٢] فهل هذه فوقية مكانية، أو فوقية مكانة ومنزلة؟

وهل كان فرعون فوق أهل مصر عندما قال: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧]، وهل هذه فوقية مكانية أو فوقية قهر وغلبة؟

وقولهم: إن نفي الجهات الست عنه ـ تعالى ـ نفي لوجوده فهذا قول باطل؛ لأنه ـ تعالى ـ كان موجودًا قبل وجود الجهات الست، بل قبل خلق العالم كله، وهل يتوقف وجوده ـ تعالى ـ القديم على وجود بعض مخلوقاته الحادثة!

إننا نؤمن بأن من أسمائه الحسنى: العلي، والأعلى، والكبير المتعال، وهو القاهر فوق عباده، وكل ذلك يعني: أنه لا يساويه شيء في المجد والعزة، وكل من سواه تحت قدرته وقهره، فليس علو مكان، بمعنى أن من فوق مئذنة المسجد أقرب إليه ممن في داخله، ومن يقف على الجبل أقرب إليه ممن في الوادي، تعالى الله وتقدس عن صفات الأجسام.

إن علوه ـ تعالى ـ ليس علو جهة إنه يقول: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾[الأنعام:١٢] وهذا يدل على أن المكان والمكانيات كلها ملك لله وملكوته، ويقول: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الأنعام:١٣]، وهذا يدل على أن الزمان والزمانيات كلها ملك لله وملكوته، فتعالى أن يكون علوه بسبب المكان.

قال عليّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إنَّ الله خلق العرش إظهارًا لقدرته لا مكانًا لذاته» وقال: «قد كان ولا مكان، وهو الآن على ما كان»[1].

وسئل أبو بكر الشبلي (٢٤٧ - ٣٣٤هـ) رَحِمَهُٱللَّهُ عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه:٥] فقال: «الرحمن لم يزل، والعرش بالرحمن استوى»[2].

قال جعفر الصادق (٨٠ - ١٤٨هـ) رَحِمَهُٱللَّهُ: «من زعم أن الله في شيء، أو من شيء، أو على شيء فقد أشرك؛ إذ لو كان على شيء لكان محمولًا، ولو كان في شيء لكان محصورًا، ولو كان من شيء لكان محدثًا»[3].

الصفات الموهمة للتشبيه:

وردت آيات قرآنية، وأحاديث نبوية بها ألفاظ ربما فُهِمَ منها مشابهة الله - تعالى - لخلقه في ذاته، أو صفاته، أو أفعاله:

١- **من النوع الأول**: النصوص التي جاء بها ألفاظ: الوجه، واليد، والعين، والجنب، والساق، والقَدمَ، والإصبعين، والصورة مما يوهم المشابهة في ذاته تعالى.

٢- **ومن النوع الثاني**: ألفاظ: الحب، والكره، والرضا، والغضب، والعجب مما يوهم المشابهة في صفاته تعالى.

٣- **ومن النوع الثالث**: الاستواء، والفوقية، والمجيء، والنزول، والإتيان، والضحك والتقرب مما يوهم المشابهة في أفعاله تعالى.

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٣٢١ط دار الآفاق.

(٢) الرسالة القشيرية (١/ ٤٠).

(٣) السابق.

وقد تعددت الآراء سلفًا وخلفًا في فهم هذه النصوص، وكثر الجدل حولها، بل قد انتقل الجدل إلى تحديد مذهب السلف نفسه بين أنصار الإمام الأشعري، واتباع الإمام ابن تيمية، حتى لتكاد هذه المسألة من بين مسائل العقيدة تحتل مركز الصدارة عند بعض الدعاة المعاصرين، ولا يجد في الإسلام ما يستحق التناول والعرض في أوروبا وأمريكا إلا استواء الرحمن على العرش، ونزول ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة، ووضع قدمه في النار يوم القيامة.

وخلال قرون مضت كتبت رسائل، وألفت كتب في هذا الموضوع تمثل كل الاتجاهات.

ويمكننا أن نحصر أهم المذاهب فيها في مذهبين:

المذهب الأول: مذهب أغلب السلف:

ويرون وجوب الإيمان بهذه النصوص كما وردت في الكتاب والسنة، وتنزيه الله عن مشابهة المخلوقات، ونفي المعنى المادي لهذه الألفاظ فالله - تعالى - ليس كمثله شيء.

إلى هنا يتفق العلماء في تحديد مذهب السلف، ثم يختلف أنصار الأشعري مع أتباع ابن تيمية في تصوير بقية مذهب السلف:

فيرى الفريق الأول: أن السلف كانوا يفوضون معنى هذه الألفاظ إلى الله تعالى، ولا يحاولون تفسيرها بمعانيها اللغوية المعروفة لهم؛ لأنها لا تسع المعاني الحقيقية التي استأثر الله بعلمها، فقد كانوا يُمرونها كما جاءت، فالله أعلم بمراده بصفاته، فهي من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، فالسؤال عنها بدعة.

ويرى الفريق الثاني: أن السلف كانوا يفسرون هذه الألفاظ ويعلمون معانيها اللغوية الظاهرة التي تدل عليها، ولا يفوضون معناها إلى الله، بل حددوا

المراد من كل لفظ منها، وأن الكيفية فقط هي المجهولة لهم، وأن هذه المسألة ليست من المتشابه، والآيات الواردة فيها آيات محكمات.

يقول ابن تيمية: «فمذهب السلف -رضوان الله عنهم- إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية عنها؛ لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات. وإثبات الذات إثبات وجود، لا إثبات كيفية، وكذلك إثبات الصفات، وعلى هذا مضى السلف كلهم»[1]. فهو يرى أن نفي الكيفية عما هو ليس بثابت يعد لغوًا من القول.

المذهب الثاني: مذهب أغلب الخلف:

وهم الذين جاءوا بعد القرون الثلاثة المفضلة في الحديث النبوي، وهم يرون وجوب الإيمان بهذه النصوص، وتنزيه الله -تعالى- عن مشابهة خلقه، وتأويلها تأويلًا يتفق مع تنزيه الله، فليس كمثله شيء، ولغة العرب فيها الحقيقة والمجاز المختلف الأنواع، وقد نزل القرآن بها، فلا بد من فهمه بأعلى قواعدها، وأساليب العرب في التعبير عن المعاني.

ويقولون: إن الراسخين في العلم ممن يعلم تأويله، وقد استعملوا التأويل استعمال الطبيب للدواء حين يجد الداء، والداء هنا هو التشبيه.

وعلى هذا المذهب الغالبية العظمى من مفسري القرآن الكريم وشراح السنة المطهرة.

بهذا الخلاف الذي أحدثه ابن تيمية في تحديد مذهب السلف مخالفًا جمهور العلماء خلال قرون سبقته صارت المذاهب في هذا النوع من صفاته تعالى ثلاثة نوجزها فيما يأتي:

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٦).

١- مذهب السلف كما فهمه جمهور العلماء:

فقد كان السلف على علم بدلالات هذه الألفاظ اللغوية (البشرية الحسية)، فليسوا جاهلين بمعانيها، وهم على علم بأن لها دلالات على معان حقيقية تناسب ذاته المقدسة، لم يتنطعوا للوصول بعقولهم إلى حقائقها وتفسيرها، بل فوضوا علم حقائقها إلى الله تعالى، وأمروها كما جاءت، واعتقدوا أنها من المتشابه.

ولذلك عُرف مذهبهم بمذهب (المفوضين)

وكان بعض السلف يؤول بعض هذه الصفات، وقد ذكرنا عشرات المواضع من تأويل الصحابة، والتابعين وأتباعهم خلال القرون الثلاثة في كتابنا: (تأويل السلف لصفات الله تعالى) .

٢- مذهب ابن تيمية:

وهو تفسير هذه الألفاظ بمعانيها اللغوية الظاهرة، ووصف الله بها حقيقة، ثم تنزيهه عن خلقه بكلمة (بلا كيف) لمنع تماثل صفاته لصفات عباده ورفض تأويلها رفضًا باتًّا، فهي لا تحتاج لتأويل، يقول ابن تيمية مثلًا: «الله معنا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة»[١].

وقد عُرف هذا المذهب بمذهب: (المثبتين).

٣- مذهب الخلف: وأهم ما يميز هذا المذهب - كما سبق أن ذكرنا - هو الأخذ بمبدأ التأويل، وإعمال العقل في فهم معنى اللفظ في سياقه، وليس فصل الكلمة عما قبلها وما بعدها. فقد يخرجها السياق عن أن تكون من صفاته تعالى.

---

(١) مجموع الفتاوي (٥/ ١٠٣).

وعُرف المذهب بمذهب (المؤولين).

وعلى هذا المذهب الغالبية العظمى من مفسري القرآن الكريم، وشراح الحديث النبوي الشريف، وعلماء أصول الدين.

وإذا بحثنا أسباب اتجاه هذا المذهب إلى الأخذ بالتأويل نجد أن أهم هذه الأسباب ما يأتي:

السبب الأول: رفع التعارض بين النص، والواقع الخارجي المحسوس.

السبب الثاني: رفع التعارض الظاهري بين بعض النصوص وبعضها.

السبب الثالث: رفع التعارض الظاهري بين بعض النصوص، والدليل العقلي اليقيني، فالشرع لا يصادم العقل.

١- **فمن أمثلة السبب الأول**: قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال:١٧].

فإذا تأملت الآية الكريمة تجد أن الله -تعالى- نفى قتل المسلمين للمشركين في غزوة بدر بقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧].

بينما الذي حدث في الواقع أنهم قتلوهم، فهنا تعارض ظاهري بين النص والواقع: فهل قتلوهم، أو لم يقتلوهم؟

فإن قلنا: قتلوهم خالفنا نص الآية: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾

وإن قلنا: لم يقتلوهم خالفنا الواقع: الذي حدث، وهو أنهم قتلوهم، إذن: لا بد من التأويل لرفع التعارض الظاهري.

وشيء آخر في الآية. وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال:١٧].

فالفعل الأول ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ ينفي أن الرسول قد رمى. وفي الواقع الذي حدث أن الرسول ﷺ أخذ قبضة من الحصى، ورمى بها المشركين.

والفعل الثاني في الآية: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ يثبت أن الرسول رمى.

فهل رمى الرسول، أو لم يَرْمِ؟ إن الفعلين متعارضان بالنفي والإثبات، والفعل المنفي معارض بالواقع الذي حدث.

إذن: لا بد من التأويل.

تأمل كيف أوّل الآية شيخ المفسرين الإمام الطبري (ت٣١٠هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: «فلم تقتلوا المشركين أيها المؤمنون أنتم، ولكن الله قتلهم، وأضاف - جل ثناؤه - قتلهم إلى نفسه، ونفاه عن المؤمنين به الذين قاتلوا المشركين؛ إذ كان - جل ثناؤه - هو مُسبِب قتلهم، ومن أمره كان قتال المؤمنين إياهم، ففي ذلك أدل الدليل على فساد قول المنكرين أن يكون لله في أفعال خلقه صنع به وصلوا إليها، وكذلك قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] فأضاف الرمي إلى نبي الله، ثم نفاه عنه وأخبر عن نفسه أنه هو الرامي؛ إذ كان - جل ثناؤه - هو الموصل المرمي به إلى الذين رُمُوا به من المشركين، والمسبب الرمية لرسوله.

فيقال للمسلمين ما ذكرنا: قد علمتم إضافة الله رَمْيَ نبيه ﷺ المشركين إلى نفسه، وتسديده بعد وصفه نبيه به، وإضافته إليه ذلك فعل واحد كان من الله بتسببيه وتسديده، ومن رسول الله ﷺ الحذف والإرسال»(١).

هكذا أول الطبري الآية، وأوضح ما فيها من (مجاز).

---

(١) جامع البيان (٩/ ٢٠٤).

٢- ومن أمثلة السبب الثاني:

وهو رفع التعارض الظاهري بين نصين، إضافة إلى ما في الآية السابقة: قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[التوبة:٦٧]، وقوله: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾[السجدة:١٤]، ومع قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[مريم:٦٤]، وقوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[طه:٥٢] ففي الآيتين الأوليين أثبت النسيان، وفي الأخريين نفاه.

ولما كان (النسيان) نقصًا لا يوصف الله به، ولا يمكن أن يقال: لله ـ تعالى ـ نسيان حقيقي يليق بذاته، أو أنه ينسى بلا كيف! وجب تأويله في الآيتين الأوليين بأن الله جزاهم بأن صيَّرهم بمنزلة المنسي من الثواب والجزاء، وأنهم لما تركوا ذكر الله بالعبادة ترك ذكرهم بالرحمة والإحسان. فارتفع التعارض.

وقد ذكر الإمام الطبرى تأويل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا للنسيان بالترك[١].

مثال آخر: ذكر الله أنه سيسأل جميع عباده يوم القيامة عما فعلوا فقال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الأعراف:٦]، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[الصافات:٢٤]، وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[الحجر:٩٢، ٩٣]، وقد نفى السؤال في آيات أخرى فقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾[الرحمن:٣٩]، وقال: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[القصص:٧٨] فلا بد من التأويل.

مثال ثالث: قال تعالى للمؤمنين في شأن الكفار في سورة «التوبة»: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[التوبة:١٤] فذكر أنه تعالى هو الذي سيعذبهم.

---

(١) تفسير الطبرى (٨/ ٢٠١).

وقال تعالى في سورة «الأنفال»: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال:٣٣]، فقد نفى تعذيبه لهم ما دام رسول الله ﷺ موجودًا فيهم إكرامًا له.

فلا بد من التأويل:

فالمقصود بالآية الثانية أنه تعالى لا يعذبهم عذاب إبادة واستئصال. كما كان يحدث في الأمم السابقة ـ بالغرق، أو الصيحة، أو الريح ـ وإنما يكون عذاب الأنثى بغير ذلك. فالمسلمون مأمورون بعدم قتال النساء، والصبيان، ومن لم يقاتل من الكفار. فليس عذاب إبادة واستئصال.

٣- ومن أمثلة السبب الثالث:

وهو رفع التعارض الظاهري بين النصوص والدليل العقلي اليقيني الذي يثبت لله كل كمال يليق به، وينزهه عن كل نقص لا يليق به.

ومن أمثلة ذلك الأحاديث النبوية الآتية:

(أ) قال ﷺ: «**عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، فَوَاللهِ لا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا**»(١).

إن الملل هو استثقال الشيء، ونفور النفس عنه بعد محبته وهو نقص لا يجوز وصف الله به، ولا يمكن أن تقول: إن له ـ تعالى ـ صفة ملل تليق بذاته، أو أنه يملُّ بلا كيف!

إذن لا بدّ من تأويله، بأنه من باب المقابلة اللفظية مجازًا كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾[الشورى:٤٠]، فلما كان ـ تعالى ـ يقطع ثوابه عمّن قطع العمل مللًا، عبَّر عن ذلك بالملل من باب تسمية الشيء باسم مجازه.

(ب) قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ**

---

(١) رواه البخاري في الإيمان ـ الفتح (١/ ١٢٤).

تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»[1].

إن المرض، والجوع، والعطش نقائص يستحيل أن يوصف بها الرب ﷻ.

ولا يمكن أن نقول: إن له مرضًا، وجوعًا، وعطشًا يليق به، ولا يجوز أن نقول: إنه يمرض، ويجوع، ويعطش بلا كيف!

وإذا تأملنا الحديث الشريف، وجدناه يشير إلى تأويل هذه الألفاظ الثلاثة: فليس المرضُ مرضَه تعالى، وليس الجوعُ جوعَه، وليس العطش عطشه؛ إنما ذلك لعبده، فهو مجاز.

وأضف إلى ذلك قوله: «لوجدتني عنده» أي: وجدت ثوابي، وليس ذاتي وهذا تأويل أيضًا.

ولقد اضطر (ابن تيمية) الرافض للتأويل رفضًا باتًّا، والمشنِّع على القائلين به إلى تأويل هذا الحديث؛ لكنه سماه (تفسيرًا)!! مكابرة منه وعنادًا، حيث قال: «إن الله سبحانه لم يمرض، ولم يجُع ولكن مرض عبده، وجاع عبده، فجعل جوعه جوعه، ومرضه مرضه، مفسرًا ذلك

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٤/ ١٩٩٠).

بأنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، ولو عدته لوجدتني عنده، فلم يبق في الحديث لفظ يحتاج إلى تأويل»[1].

(جـ) قال ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»[2].

إن (الظل) لا يكون إلا لجسم مادي معتم يحجب الضياء والنور، فهل (الله) جسم من الأجسام؟ أو تقول: إن لله ظلًّا بلا كيف؟ أو ظلًّا يليق به؟

لا بد من تأويل الحديث بأن الظل ظل عرشه، وقد وردت إحدى روايات الحديث هكذا «سبعة يظلهم الله في ظل عرشه»[3] حيث لا ظل يومها إلا ظل العرش.

(د) قال ﷺ: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا تَقَرَّبَ عَبْدِي مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا - أَوْ بُوعًا - وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[4]، وفي رواية: «أتيته أهرول»[5].

فهل يعني قوله: «تقربت منه» قرب ذات الحق من ذات العبد، وقوله: «أتيته هرولة» أو «أهرول» إثبات صفة الهرولة، أو مشي يليق بذاته، أو يهرول بلا كيف!

أو أن المراد: تصوير سرعة تفضل الله على عبده المقبل عليه وعظم جزائه لمن توجه إليه.

---

(١) الرسالة التدمرية مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود، ط ثانية ١٤٠٠هـ، وط ثالثة ١٤٠٣هـ صـ٤٨.

(٢) رواه مسلم في الزكاة (٢/ ٧١٥).

(٣) فتح الباري (٢/ ١٦٩).

(٤) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٦٧).

(٥) رواه مسلم في التوبة (٤/ ٢١٠٢).

(هـ) قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[1].

فهل يعنى هذا أن الله يكون سمع الولي، وبصره، ويده، ورجله، فيكون جزءًا من العبد؟

أو يؤول بأن المراد تصوير نصرة وتأييد الله لوليه فيكون حافظ سمعه، ومسدد بصره، وهكذا؟

ثم إن (التردد) المذكور في الحديث صفة نقص لا تليق بذاته تعالى؛ لأنه فعل مَنْ لا يعلم عاقبة الأمور، ويتحير بين فعل الشيء وتركه، ولا يمكن أن نقول: إن لله ترددًا يليق بذاته، أو أنه يتردد بلا كيف!

فلا بدَّ من تأويله بأن الله يفعل فعلًا تُشبه صورته صورة فعل من يتردد؛ لبيان عطفه على عبده، ولطفه به، وشفقته عليه.

وبعد أن عرضت المذاهب الثلاثة أودُّ أن أنبه إلى أمور:

أولاً: هذا النوع من صفات الله - تعالى - ليس من الصفات العقلية التي يصل إليها العقل بالتفكير في العالم كصفات العلم، والإرادة، والقدرة، والحياة.

إنما هو من الصفات التي تؤخذ من الكتاب والسنة.

---

(١) رواه البخاري في الرقاق الفتح (١١/ ٣٤٨).

وقد يكون الإيمان بها دون العلم بمعناها أمرًا تعبديًا، وكم من أمر تعبدنا به غير واضح العلة والحكمة!!

ثانيًا: ليس كل ما يضاف إلى الله يكون صفة له، فقد أضاف إليه أمورًا ليست من صفاته كبيت الله، وعبد الله، وناقة الله، وروح الله.

ثالثًا: لا يلزم من إسناد بعض الأفعال إليه –تعالى– في القرآن والسنة أن له صفات من جنسها، مثال ذلك: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[التوبة:٦٧]، فهل من صفاته النسيان؟!

- ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[الإنسان:٢١]، فهل من صفاته السقى؟!
- ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾[المدثر:١٧]، فهل من صفاته الإرهاق؟!

رابعًا: لا يجوز أن نجمع مثل هذه الألفاظ في موضع واحد، حتى لا ندع للخيال فرصة، ولا للوهم سبيلًا لرسم صورة معينة في الذهن لذات الحق تعالى. فإذا ما تأملنا كل كلمة منها في سياقها وجدناها أبعد ما تكون عن مماثلة المخلوقين.

خامسًا: لابد لمن يتعرض لبيان معاني هذه الألفاظ من العلم بأساليب اللغة العربية، وطرقها في التعبير عن المعاني، فقد قال الإمام مالك:

«لا أُوْتَى برجلٍ يفسّر كتاب الله غير عالم بلغات العرب إلا جعلته نكالًا»(١).

وعقد الإمام الشافعي في رسالته الشهيرة بابًا بعنوان: (الصنف الذي يُبَيِّنُ

(١) صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام للسيوطى (١/ ٩٦).

سياقُه معناه)[1] تناول فيه: كيف يحدد السياق، أو ما يسميه علماء البلاغة (القرينة) المراد من اللفظ، وهو ما اصطلح عليه علماء البلاغة بالمعنى المجازي؛ إذ المعنى الحقيقي لا يحتاج إلى قرينة، وكلامه في غاية النفاسة، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن القرآن: «وأن منه ظاهرًا يُعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره»[2].

ويرى ابن قدامة الحنبلي في كتابه: (المغني) أن إنكار المجاز مكابرة.

رأيي في الموضوع:

إنني أميل إلى مذهب السلف كما صوره جمهور العلماء، وأرى أنه المذهب الأسلم والأحكم والأعلم.

وأستشهدُ عليه بكلام السلف أنفسهم:

١- قال الأوزاعي: سئل (مكحول) و(الزُّهري) عن تفسير الأحاديث فقال: «أمروها كما جاءت»، ورُوِي أيضًا عن الوليد بن مسلم قال: سألت (مالك ابن أنس) و(سفيان الثوري) و(الليث بن سعد) و(الأوزاعي) عن الأخبار التي جاءت في الصفات؛ فقالوا:«أمروها كما جاءت بلا كيف...والزهري ومكحول هما أعلم التابعين في زمانهم، والأربعة الباقون أئمة الدنيا في عصر تابعي التابعين»[3].

٢- قال محمد بن الحسن (١٣١ - ١٨٩هـ) صاحب أبي حنيفة: «اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن، والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب ﷻ من غير تفسير، ولا وصف،

---

(١) رسالة الشافعي صـ٦٢ تحقيق: أحمد شاكر/ ط دار التراث.

(٢) المرجع السابق صـ٥٢.

(٣) الفتوى الحموية لابن تيمية صـ٢٧.

ولا تشبيه، فمن فسَّر اليوم شيئًا من ذلك، فقد خرج عما كان النبي ﷺ، وفارق الجماعة، فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا»(١).

٣- وعن سفيان بن عيينة قال: سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه:٥] كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ المبين، وعلينا التصديق.

وهذا الكلام مروي عن مالك بن أنس تلميذ ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(٢).

٤- وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «آمنت بالله، وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله»(٣).

قال ابن كثير: «وقد روى عن الربيع وغير واحد من رؤوس أصحابه ـ أي الشافعي ـ ما يدل على أنه كان يَمُرُّ بآيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تحريف على طريقة السلف»(٤).

٥- وقال الإمام أحمد بن حنبل وقد سئل عن هذه الصفات: «نؤمن بها ونصدق بها، ولا كيف، ولا معنى، ولا نرد شيئًا منها، ونعلم أن ما جاء به الرسول

---

(١) الفتوى الحموية صـ٣٣.
(٢) المرجع السابق صـ٢٧.
(٣) لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي صـ٦.
(٤) البداية والنهاية (١٠/ ٢٦٥).

حق، ولا نرد على رسول الله ﷺ، ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه، بلا حد ولا غاية»[1].

٦- وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام ت ٢٢٤هـ: «هذه الأحاديث هي عندنا حق، حملها الثقات بعضهم عن بعض، غير أنا إذا سئلنا عن تفسيرها لا نفسرها، وما أدركنا أحدًا يفسرها».

هذه أقوال كبار علماء السلف في القرون الثلاثة الأولى حول ما ينبغي على المسلم تجاه هذه النصوص، ويتلخص -كما سبق- في أمرين: إقرارها، وإمرارها.

ألا يكفينا ما كفاهم!! ألا نقنع بما قنع به هؤلاء الأكابر!!

أذلك خير: أم هذا الجدل الذي يُضيع الوقت، ويبدد الجهد، ويورث الضغينة في قلوب المؤمنين من شبابنا المعاصر؟

مع الأخذ في الاعتبار أن التأويل قد ورد عن السلف لبعض الآيات، كما سبق أن أشرنا، وقد أفردنا له بحثًا مستقلًّا مطبوعًا والحمد لله.

٥- صفة الوحدانية

ومعنى وحدانية الله تعالى: عدم التعدد في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله. فلا يستحق أن يُعبد سواه.

١- فذاته تعالى ليست مركبة من أجزاء؛ ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١] فالشيء قد يكون واحدًا ومع ذلك يكون مركبًا من

(١) لمعة الاعتقاد صـ٦.

أجزاء، أما الله - تعالى - فهو أحد ليس مركبًا من أجزاء، ولا توجد ذات تشبه ذاته تعالى.

٢- ومعنى عدم التعدد في الصفات عدم وجود صفتين لله من نوع واحد كعلمين وقدرتين، وعدم وجود صفة لغيره تشبه صفته تعالى.

٣- وأما عدم التعدد في الأفعال فمعناه عدم وجود فعل لأحد غيره يشبه فعله تعالى.

الرد على ابن تيمية:

هذا معنى الوحدانية عند أهل السنة كما ذكره العلماء عبر القرون إلى أن جاء (ابن تيمية) فقسَّم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

(١) توحيد الألوهية.

(٢) توحيد الربوبية.

(٣) توحيد الأسماء والصفات.

وقال: إن الرسل لم يُبعثوا إلا لتوحيد الألوهية وهو: إفراد الله بالعبادة .

وأما توحيد الربوبية وهو: اعتقاد أن الله رب العالمين المتصرف في أمورهم فلم يختلف فيه أحد من البشر، وزعم أن الذين يتوسلون بالأنبياء والأولياء ويتشفعون بهم هم عابدون لهم كعباد الأوثان.

ونرد عليه بما يأتي:

(أ) أن هذا التقسيم بدعة ابتدعها ابن تيمية، ولم نجده عند أحد من السلف.

(ب) زعمه بأن توحيد الربوبية لم يخالف فيه أحد من البشر لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزمر:٣٨]، لا يدل على ما زعم؛ لأن الآية في نوع من الكفار، وهناك أنواع أخرى أشارت إليها آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[الجاثية:٢٤]، وقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[فصلت:٩] فهم منكرون لتوحيد الربوبية.

وقد أكثر القرآن الكريم من عرض الأدلة على توحيد الربوبية حتى إنه ليذكر أربعة عشر دليلًا عليها في موضع واحد في خمس آيات متتاليات في [سورة النمل] في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وفي قصة صاحب الجنتين: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾[الكهف:٣٧]، ثم يقول القرآن بعدها: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾[الكهف:٤٢].

وقال تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[يوسف:٣٩].

ولما دعا موسى فرعون إلى الإيمان برب العالمين: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء:٢٣].

فكيف يقال: إنه ليس في البشر من يَشُكُّ في الربوبية؟ وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾[آل عمران:٨٠]، والآية واضحة في تعدد الأرباب عندهم، وأين توحيد الربوبية عند من حاجَّ إبراهيم في ربه؟!

وابن تيمية يرى أن توحيد الربوبية وحده لا يجعل العبد مسلمًا. في حين أن آية الميثاق اكتفت به: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] وعندما يسأل الملكان الميت في قبره: مَنْ ربك؟ فيقول: ربي الله يكتفيان منه بتوحيد الربوبية، ولا يسألانه عن توحيد الألوهية.

(جـ) والواقع أنه لامعنى لتقسيمه هذا؛ لأن الإله الحق هو الرب الحق، والإله الباطل هو الرب الباطل، فالألوهية والربوبية متلازمان لا ينفصلان، والقول بأحدهما قول بالآخر، والإشراك في أحدهما إشراك في الآخر، وما لا يعتقد له ربوبية يستحيل أن يُتَّخذ معبودًا.

ولهذا نجد الأنبياء يكتفون في الدعوة إلى التوحيد بأحدهما، ويضعون كلا منهما موضع الآخر. حتى فرعون فعل ذلك، فقال مرة: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وقال مرة: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ فنسب لنفسه الربوبية، كما نسب لنفسه الألوهية بعدما قال لهم ما ذكره القرآن: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

[المؤمنون:٩١] أي: لو كان معه إله لكان ربًّا وخالقًا، ولو كان كذلك لذهب كل إله بما خلق، فالقرآن يقرر أن من أشرك في استحقاق العبادة كان مشركًا لا محالة في الربوبية.

(د) وأما التوسل بالصالحين، والاستعانة والاستغاثة بالمخلوق إلخ مما أدخله في مفهوم العبادة، وحكم على فاعله بالشرك في الألوهية، فلا بد من بيان معنى العبادة.

فالعبادة في الشرع هي: الخضوع والتذلل لمن يعتقد ربوبيته، فإذا فعل المسلم أمرًا بخضوع وتذلل، ولم يعتقد ربوبية المخضوع له؛ لم تكن عبادة شرعًا، ولو كان سجودًا، فسجود الملائكة لآدم ليس عبادة له؛ لأنهم لم يعتقدوا ربوبيته، فهذه الأفعال التي أدخلها في مفهوم العبادة ليست منها، فليست شركًا وليس فاعلها من المشركين طالما أنه مؤمن بأن الله وحده هو المعطي المانع، الضار النافع.

الأدلة النقلية على صفة الوحدانية:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾[البقرة:٢٥٥].

- ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[الأنبياء:٢٢][1].

- ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾[الإسراء:٤٢].

---

(١) وكلمة (إلا) في الآية الكريمة صفة لآلهة بمعنى غير، فهي اسم، لكن لم يظهر إعرابها إلا فيما بعدها؛ لكونها على صورة الحرف، ولا يجوز أن تكون أداة استثناء، لا من جهة المعنى، ولا من جهة اللفظ، أما من جهة المعنى؛ فلأنه يلزم منه نفي التوحيد؛ إذ التقدير: لو كان فيهما آلهة ليس فيهما الله لفسدتا، فيقتضي بمفهومه: أنه لو كان فيهما آلهة فيهم الله لم تفسدا وهو باطل. أما الثاني فلأن المستثنى منه يشترط أن يكون عامًّا، وآلهة جمع منكر في الإثبات، فلا عموم له؛ فلا يصح الاستثناء منه.

- ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[المؤمنون:٩١].

- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

- ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص:١-٤].

الأدلة العقلية:

إذا أبطلنا التعدد في الذات بمعنى وجود إلهين، فقد أبطلنا التعدد في الصفات بمعنى وجود صفة لغيره تشبه صفته تعالى، وأبطلنا التعدد في الأفعال بمعنى وجود فعل لغيره يشبه فعله ـ تعالى؛ لأن كلا منهما راجع إلى تعدد الذات.

وبناء على ذلك فنحن في حاجة إلى ثلاثة أدلة:

١- لنفي التعدد في الذات بمعنى عدم تركبها من أجزاء.

٢- ولنفي التعدد في الذات بمعنى عدم وجود إلهين .

٣- ولنفي تعدد الصفات بمعنى عدم وجود صفتين له من نوع واحد.

وإليك الأدلة:

أولًا: أما الدليل على نفي التعدد في الذات بمعنى عدم تركبها من أجزاء فهو أنه لو تركبت ذاته ـ تعالى ـ من أجزاء، لكان محتاجًا إلى أجزائه، والاحتياج دليل الحدوث، والحدوث عليه محال، ولكان محتاجًا إلى مَنْ رَكَّبَهُ، فلا يكون واجب الوجود[(١)].

---

(١) وبناء على ذلك فإننا نرفض محاولة (ابن تيمية) – سامحه الله ـ في كتابه: (التسعينية) (٢/ ٣٩٠ـ ٤٠٢) إثبات الأبعاض والأجزاء وما شابه ذلك لله ﷻ اعتمادًا على بعض الآثار الضعيفة التي رفضها علماء أهل السنة، مثل: =

ثانيًا: أما دليل نفي التعدد في الذات بمعنى عدم وجود إلهين فهو : لو فُرِضَ وجود إلهين، كل منهما متصف بصفات الألوهية من العلم والإرادة والقدرة إلخ، فإما أن تتفق إرادتهما، أو تختلفا، وكلٌّ من الفرضين محال؛ فوجود إلهين محال.

وذلك أنه لو تعلقت إرادة أحدهما بخلق شيء مثلًا وتعلقت إرادة الآخر بعدم خلقه ـ وهذه حالة الاختلاف ـ فالاحتمالات العقلية ثلاثة:

(أ) إما أن ينفذ مرادهما معًا، وهو محال؛ لأنه اجتماع للنقيضين (الخلق ـ وعدم الخلق).

(ب) وإما ألا ينفذ مرادهما معًا وهو محال؛ لأنه رَفْعٌ للنقيضين، ويلزم عجزهما، والعجز على الإله محال.

(جـ) وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر، وهذا يستلزم عجز من لم تنفذ إرادته، وبما أن الثاني مثله، فهو عاجز أيضًا؛ لأن ما ثبت لأحد المثلين يثبت للآخر.

=(أ) ما نُسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما من قوله: (إذا أراد الله أن يخوف عباده أبدى عن بعضه إلى الأرض).

(ب) وما نُسب لابن عباس أيضًا في معنى تجلي الله للجبل: «ما تجلى منه إلا مثل الخنصر» وفي رواية :«تجلى منه مثل طرف الخنصر»

(جـ) ذكر ما روي في قصة داود في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[سورة ص:٤٠] قال: «يُدنيه حتى يمسَّ بعضه»، وفي رواية: «ذلك الدنو حتى يمسَّ بعضه».

(د) ونقل عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩] قال: يُقعده معه على العرش» فهذه الآثار تتعارض مع وحدانية ذاته ـ تعالى ـ بالمعنى المذكور، ولا تصلح لإثبات عقيدة.

وأما بطلان احتمال اتفاق إرادة الإلهين على شيء واحد مثل: إيجاد محمد مثلًا، فالاحتمالات العقلية أربعة:

(أ) أن يوجداه معًا على سبيل الاستقلال في وقت واحد، وهو محال؛ لأنه يؤدي إلى اجتماع مؤثرين على أثر واحد.

(ب) أن يوجداه معًا على سبيل الترتيب، بأن يوجده أحدهما ثم يوجده الآخر، وهو محال؛ لأنه تحصيل الحاصل.

(جـ) أن يوجداه على سبيل المعاونة، فكل منهما يعاون زميله في إيجاده، وهو محال؛ لأنه يلزمه أيضًا عجز كل منهما واحتياجه إلى الآخر.

(د) أن يوجداه على سبيل التقسيم، بأن يوجد أحدهما بعضه، والآخر بعضه، وهو محال؛ لأنه يلزمه أيضًا عجز كل منهما، فكل منهما لا يقدر على التصرف فيما تصرف فيه زميله.

وإذا بطلت هذه الاحتمالات سواء في حالة الاختلاف، أو في حالة الاتفاق، انتفى القول بتعدد الذوات، وثبتت الوحدة لله تعالى.

ثالثًا: أما الدليل على نفي التعدد في الصفات، بمعنى عدم وجود صفتين لله - تعالى - من نوع واحد كقدرتين مثلًا فلأنه يلزم عليه أحد محالين:

(أ) إن كان الإيجاد بهما معا يلزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد.

(ب) وإن كان الإيجاد بإحداهما دون الأخرى يلزم عليه التعطيل للأخرى، وكونها لا فائدة منها.

وفي قوله ﷺ: **«اللهم إني استخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك»** ما يشير إلى أنه (علم) واحد، و(قدرة) واحدة.

صفات المعاني

المعاني: جمع معنى، وهو لغة: ما قابل الذات.

فيشمل الصفات: النفسية، والسلبية، والمعاني، والمعنوية.

اصطلاحًا: كل صفة قائمة بموصوف زائدة على الذات موجبة له حكمًا. فخرج بقولنا: (قائمة بموصوف): السلبية، وبقولنا: (زائدة على الذات): النفسية؛ لأنها عين الذات، وبقولنا: (موجبة له حكمًا): المعنوية؛ لأنها نفسها حكم. وعلى القول بأنها أمور اعتبارية فقد خرجت بقولنا: (قائمة بموصوف). وهذا التعريف يشمل صفات المعاني القديمة والحادثة، والفرق بينهما أن صفات القديم قديمة، وصفات الحادث حادثة، ولا تسمى صفات القديم أعراضًا. في حين تسمى صفات المعاني للحادث أعراضًا، وأمهات صفات المعاني سبع صفات وإليك بيانها:

١- صفة العلم

لحظاتُ تَأَمُّل: يبهرنا ما وصلت إليه أوروبا وأمريكا هذه الأيام من تقدم علمي هائل في مجال الصناعة والتكنولوجيا، وفي مجال التسليح وغزو الفضاء، وفي مجال الطب والتشخيص والعلاج، وفي مجال الزراعة والثروة الحيوانية.

وها هي ذي اليابان والصين تدخلان حلبة السباق في مجال الصناعات الدقيقة والثقيلة، وفي مجال الإلكترونات، والسيارات، والمنسوجات.

وتقفز إلى الساحة كل من: كوريا، وتايوان، وماليزيا وغيرهم، والجميع يحاول كشف أسرار الكون في الأنفس والآفاق.

ومن قبل ذلك كانت الحضارة الإسلامية هي الرائدة في جميع المجالات،

وعنها أخذت أوروبا في جامعات: قرطبة، وطليطلة، وصقلية، وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط التي كانت محل الالتقاء.

فأفادت أوروبا مما قدمه للبشرية أساتذة العلم المسلمون؛ من أمثال: جابر ابن حيان في الكيمياء، والخازن والحسن بن الهيثم في الفيزياء، وابن سينا وأبي القاسم الزهراني في الطب، والبيروني، واليوزجاني، والخوارزمي، وعباس بن فرناس في الفلك والرياضيات .

ما أعظم ما وصلت إليه البشرية من علوم خلال تاريخها الطويل! وما أكثر ما اكتشفه الإنسان من معارف في رحلاته للبحث عن المجهول!

كم هائل من العلوم! وقدر ضخم من المعرفة! فإذا ما انتقل الفكر من التأمل في علم الإنسان إلى التفكير في العلم الإلهي نجد الحق سبحانه يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء:٨٥]، إنه خطاب للبشرية جميعها في كل عصورها، أما علمه هو ـ جل في علاه ـ فإنه يقول عنه: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[طه:٩٨]، ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[آل عمران:٥].

تعريف صفة العلم:

علم الله تعالى: صفة وجودية أزلية قائمة بذاته – تعالى – بها تنكشف له جميع الأمور سواء كانت واجبة، أو جائزة، أو مستحيلة، وسواء كانت ماضية، أو حاضرة، أو مستقبلة، انكشافًا تامًّا، لا يسبقه خفاء أو جهل، ولا يعقبه ذهول أو نسيان .

فالعلم صفة من الصفات الوجودية التي تدل على معنى زائد على ذات الله ـ تعالى ـ هو كمال يجب أن يتصف به أزلًا وأبدًا .

والله ـ تعالى ـ يعلم الواجبات، فهو يعلم ذاته وصفاته، ويعلم الجائزات وهي المخلوقات، بل يعلم المستحيل كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[الأنعام:٢٨]، فهو يعلم أنهم لا يردون إلى الدنيا مرة أخرى، ولكن أخبر أنهم لو ردوا لعادوا إلى الكفر، وقال كذلك: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[الأنفال:٢٣].

وقال أيضًا: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾[الإسراء[١١١].

والله ـ تعالى ـ يعلم ما كان، وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف يكون. ولا يتغير علمه ـ سبحانه ـ بتغير الشيء المعلوم.

وهذا العلم الإلهي لا يسبقه جهل أو خفاء، ولا يعتريه ذهول أو نسيان.

ويطلق (العلم) على البشر كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾[المجادلة:١١]، وقال: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[الأنبياء:٧٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾[النمل:١٥].

هكذا يطلق العلم على البشر، ولكن الاشتراك في اللفظ فقط وليس المسمَّى كالمسمَّى.

فعلمنا نحن حادث مستفاد من الحواس أو من التفكير العقلي، وعلم الله قديم أزلي، وعلمنا محدود وقاصر، وعلم الله كامل محيط إحاطة تامة بالكليات والجزئيات، وعلمنا يحدث بعد حصول الشيء، وعلم الله سابق.

وعلمنا يعتريه النسيان والزوال، وعلم الله ليس كذلك.

وعلمنا بشيء يشغلنا عن علمنا بغيره، والله لا يشغله علم عن علم.

وللعلم الإلهي تعلق واحد: (تنجيزي قديم) وهو تعلقه أزلًا بالواجبات والمستحيلات والجائزات تعلق إحاطة وانكشاف دون سبق خفاء أو جهل.

صفة العلم في القرآن والسنة:

أثبت القرآن الكريم هذه الصفة لله ـ تعالى ـ فقال:

- ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[البقرة:٢٥٥].

- ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾[النساء:١٦٦].

- ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾[فصلت:٤٧].

- ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[هود:١٤].

- وورد أنه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[الرعد:٩]، وأنه: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[المائدة:١١٦]، ومن أسمائه الحسنى: (العليم) قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[يس:٣٨]، وهو الذي لا يخفى عليه خافية؛ ولا يعزب عن علمه قاصية ولا دانية.

ولم يرد وصفه ـ تعالى ـ بـ(العَلَّامة) في الكتاب أو السنة، فلا يجوز إطلاقه عليه، فهذه اللفظة تستعمل لمن ترقى في العلم من القلة والنقصان إلى الكثرة والكمال البشري يبذل غاية الجهد في طلب العلم.

ولم يَكتفِ القرآن الكريم بإثبات (العلم) لله ـ تعالى ـ بهذه الصِّيغ، بل نفي عن الله ـ تعالى ـ أضداد العلم:

فنفى عنه النسيان فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[مريم:٦٤]، وقال: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[طه: ٥١، ٥٢]. ونفي عنه الجهل فقال: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾[سبأ:٣].

ونفي عنه النوم فقال: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ﴾[البقرة:٢٥٥].

ومن أسمائه الحسنى التي لها صلة بالعلم:

١- اسمه: (الحفيظ) وللحفظ معنيان:

(أ) أحدهما ضد التضييع، فهو حافظ السماوات والأرض: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾[البقرة:٢٥٥].

(ب) والآخر ضد السهو والنسيان، وهذا يرجع معناه إلى صفة العلم.

٢- اسمه: (الخبير) ومن معانيه: العالم بكنه الشيء المطلع على حقيقته، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الملك:١٤].

٣- اسمه:(الشهيد) ومن معانيه: العالم، فهو عالم الغيب والشهادة، والغيب عبارة عما بطن، والشهادة عبارة عما ظهر، فإذا اعتبر العلم مطلقًا فهو العليم، وإذا أضيف إلى الغيبة والأمور الباطنة فهو الخبير، وإذا أضيف إلى الأمور الحاضرة فهو الشهيد ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء:٧٩].

وتدبر هذه المواضع القرآنية الأربعة التي تعرض لنا نماذج من علمه تعالى:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن

ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة:٧].

الموضع الثاني: قال سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[الأنعام:٥٩].

الموضع الثالث: قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[الرعد:٨-١٠].

الموضع الرابع: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾[لقمان:٣٤].

أما السنة المطهرة فيقول ﷺ:

- **«اللهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي».**
- **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ».**
- وجاء في حديثه ﷺ عن موسى والخضر قَالَ: **«وَجَاءَ عُصْفُورٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، ثُمَّ نَقَرَ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ».**

الأدلة العقلية على اتصافه ـ تعالى ـ بصفة العلم:

١ – إن الله ـ تعالى ـ خالق للعالم خلقًا متقنًا محكمًا، يدل على كمال علمه ـ جل في علاه ـ وتأمل في نفسك، وفيما حولك لترى العجب العجاب من الإبداع، والنظام، والإتقان، والإحكام، وهو دليل العلم، ويستحيل أن يكون المخلوق أكمل من الخالق.

وإذا ما رأيت مملكة النحل، أو بيت العنكبوت، فاعلم أن الذي ألهمهما ذلك الصنع هو العليم الخبير: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

٢ – كما أنه ثبت أن الله خلق العالم باختياره، وقصده، وإرادته، وهذا يدل على أنه عالم؛ إذ يستحيل أن يتوجه اختياره، وقصده، وإرادته إلى شيء ليس معلومًا له.

* * *

٢- صفة الإرادة

لحظاتُ تَأَمُّلٍ:

جلس في الاستراحة المجاورة لحجرة الولادة ينتظر البشرى السارة بميلاد أول أبنائه، فقد كان في علمه – تعالى – أن يهبه الذرية، وتحقق ما علمه الله، فحملت زوجه، واقترب موعد الوضع.

ولكن: أيكون ذكرًا أم أنثى ؟ أيُشْبه أباه وأعمامه، أم أمَّه وأخواله؟

أيكون صالحًا تقيًا بارًا بوالديه أم غير ذلك؟ وهل حان موعد وصوله إلى الدنيا؟ وفي هذا المكان من أرض الله؟ احتمالات كثيرة، وافتراضات عديدة. وقطع

أفكاره صوت يخبره بأن الولادة ليست قبل ساعة من الزمان، فنزل إلى حديقة المستشفى يتجول ويتأمل: أزهار وأشجار، وورود وثمار جميلة المنظر، طيبة الرائحة، متباينة الأنواع، متعددة الألوان، مختلفة الأحجام، متفاضلة في الأكل!

سبحان الله! الحديقة واحدة، والتربة واحدة، والجو واحد، وكلها يسقي بماء واحد! وصعد إلى هناك مرة أخرى، ليجد الخبر السار، وليسجد شكرًا لله. ما أعظم إرادة الله !!

تعريف صفة الإرادة الإلهية:

هي صفة وجودية أزلية قائمة بذاته – تعالى – يخصص بها الممكنات ببعض ما يجوز عليها من الأمور المتقابلة، والإرادة والمشيئة بمعنى واحد، فهي من نوع الصفات الوجودية الذاتية القديمة التي تقوم بذات الحق ـ سبحانه ـ وتدل على معنى زائد على معنى ذاته تعالى.

وإذا كان علم الله ـ تعالى ـ صفة انكشاف فإن إرادته صفة تخصيص؛ فهي تخصص الممكن ـ وهذا مجال عملها ـ بالوجود أو العدم، وبالصفات المعينة الخاصة به، وبالزمن المحدد له، وبالمكان المخصص له، وبالجهة المحددة له، وبالمقدار المعين الذي سيوجد عليه.

وهكذا كل ما وجد في العالم من المخلوقات وما يوجد الآن، وما سيوجد بعد ذلك.

فالإرادة الإلهية هي التي ترجح الاحتمال الذي سيوجد عليه المخلوق من بين سائر الاحتمالات الأخرى التي يتصور أن يوجد عليها من الأمور المتقابلة التي جمعها أحدهم في قوله:

الممكنــــــات المتقـــــابلات	وجودنـــا والعـــدم والصـــفات
أزمنــــة أمكنـــة جهـــات	كـــذا المقـــادير روى الثقـــات

ولا شأن للإرادة بالأمر الواجب؛ أو الأمر الممتنع، وبيان ذلك:

١ – لو تعلقت بالأمر الواجب عقلًا، فإما لترجيح وجوده، أو لترجيح عدمه، أما ترجيح وجوده فهو محال؛ لأنه موجود بالفعل، فكيف ترجح وجوده؟ إنه تحصيل حاصل، وأما ترجيح عدمه فالواجب العقلي غير قابل للعدم.

٢ – كذلك لا تتعلق إرادته –تعالى– بالأمر الممتنع عقلًا؛ لأنها لو تعلقت به فإما لترجيح وجوده وهو غير قابل للوجود، وإما لترجيح عدمه وعدمه حاصل.

إذن: لا تتعلق الإرادة بالواجب ولا بالمستحيل، بل بالأمر الممكن الوجود فقط.

ومعنى الإرادة الإلهية يختلف عن معنى الإرادة البشرية، فإن معنى إرادتنا للشيء: القصد، والعزم، والتصميم على فعله، وهذا المعنى حادث لا يتناسب مع الله ـ جل في علاه ـ.

كما أن إرادته ـ تعالى ـ وفعله متلازمان؛ بمعنى أنه ـ تعالى ـ إذا أراد أن يفعل فعل، وما فعله فقد أراده، بخلاف العبد فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريده، فلا يوجد فَعَّالٌ لما يريد إلا الله وحده.

وللإرادة الإلهية بالممكن تعلقان:

١ – تعلق صلوحي قديم: وهو صلاحيتها في الأزل لتخصيص كل ممكن بأي أمر من الأمور الجائزة عليه.

٢- تعلق تنجيزي قديم: وهو تخصيص الإرادة في الأزل كل ممكن ببعض ما يجوز عليه بدل البعض الآخر.

إرادته ـ تعالى ـ تشمل الخير والشر:

أولًا: مذهب أهل السنة: إن إرادة الله عامة تشمل الخير والشر والطاعة والمعصية. واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- الآيات القرآنية تصرِّح بذلك؛ ومنها:

- ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء:٣٥].

- ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:١٩-٢١].

- ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الأنعام:١٧].

- ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح:١١].

٢- إننا نرى الشر موجودًا في العالم، فإذا لم يكن الله هو الذي أراد وقوعه، فمن الذي أراد وقوعه؟ هل هناك إله غير الله ؟

٣- يلزم أن يكون وجود الشر في العالم بطريق القصر والإكراه بالنسبة لله تعالى، وأنه عاجز عن دفعه وإزالته، وهذا محال.

ومن أدب المسلم أن ينسب الخير إلى الله، والشر إلى نفسه، ولنتأمل قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا

﴿هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾[النساء:٧٨].

(كل من عند الله) هذا هو الحق، ولكن من حيث الأدب الذي ينبغي مع الله فإننا ننسب الخير إلى الله، والشر إلى النفس؛ ولذلك جاءت الآية التي بعدها لبيان هذا: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء:٧٩].

والشر نوعان:

١- شَرٌّ مَحْضٌ لا خير فيه بوجهٍ من الوجوه: وهذا النوع لا يخلقه الله تعالى؛ لأنه عبث، وهو منزه عنه، وهو المذكور في قوله ﷺ: «**والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك**»[1] أي: الشر الكلي المطلق ليس إلى الله.

٢- شَرٌّ جزئيٌّ أو إضافيٌّ: وهذا يخلقه الله لحكمة يعلمها، فإن كان في الشيء شر من وجه ففيه خير من وجوه. كنزول الأمطار التي ربما هدمت بعض البيوت لكن فيها حياة للناس، وللحيوان، وللنبات، وكحرارة الشمس التي ربما آذت إنسانًا لكنها ضرورية للوجود[2].

وهذا النوع من الشر إذا أردنا نسبته إلى الله تعالى فإما أن:

١- ندخله في عموم المخلوقات: كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ [الزمر:٦٢]، ولا نقول: الله خالق القردة، والكلاب، والخنازير.

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (١/ ٥٣٥).

(٢) انظر تفصيل ذلك عند ابن القيم: في (شفاء العليل) الباب الحادي والعشرين والخامس والعشرين.

٢- أو ننسبه إلى سببه المباشر: كما في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:٢].

٣- أو نحذف الفاعل، ونبني الفعل للمجهول: كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[الجن:١٠]، فمع الشر قال: (أريد)، ومع الخير والرشد ذكر الفاعل فقال: (أراد بهم ربهم رشدًا).

ثانيًا: مذهب المعتزلة: يرون أن الله لا يريد الشر، ولا الكفر، ولا المعاصي، واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- الشرور والمعاصي غير مأمور بها؛ فلا تكون مرادة لله؛ فالإرادة والأمر شيء واحد.

٢- لو كانت الشرور مرادة لكان الكافر مطيعًا بكفره، والعاصي مطيعًا بمعصيته؛ لأن الطاعة تحصيل مراد المطاع.

٣- لو كانت الشرور مرادة لوجب الرضا بها، والرضا بالكفر كفر.

رد أهل السنة على هذه الأدلة:

١- هذا الدليل مبني على أن الإرادة والأمر شيء واحد، وهو غير صحيح كما سنذكره في فقرة قادمة .

٢- الطاعة هي تحصيل ما أمر به المطاع، لا تحصيل ما أراده.

٣- لا يلزم من وجود الشرور وجوب الرضا بها فنحن مأمورون بأن نرضى بما يحب الله، ونسخط ما يسخطه، وهناك فرق بين الإرادة والرضا كما سنذكره إن شاء الله.

وفيما يأتي مواقف تدل على فساد رأي المعتزلة:

١ - حُكي أن القاضي عبد الجبار المعتزلي دخل على الصاحب ابن عباد وعنده الأستاذ أبو اسحاق الإسفراييني - وهو أحد علماء أهل السنة - فلما رأي الأستاذ قال: سبحان مَنْ تنزه عن الفحشاء.

فقال الأستاذ: سبحان مَنْ لا يجري في ملكه إلا ما شاء.

فقال عبد الجبار: أفيريد ربنا أن يُعصى؟

فقال الأستاذ: أفيُعصَى ربنا كرهًا؟

فقال عبد الجبار: أرأيت إن منعني الهدى، وقضى علي بالردى، أحسن إليَّ أم أساء؟

فقال الأستاذ: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فهو يخصُّ برحمته من يشاء.

٢ - وقف أعرابي على حلقة فيها (عمرو بن عُبيد) - أحد كبار المعتزلة - فقال: يا هؤلاء، إنَّ ناقتي سُرقت، فادعو الله أن يردها عليَّ.

فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم تُرِدَ أن تُسرق ناقته فسُرقت، فارددها عليه.

فقال الأعرابي: لا حاجة لي في دعائك.

قال: ولِـمَ؟

قال: أخاف ـ كما أراد ألّا تسرق فسرقت ـ أن يريد ردها فلا تُرد.

٣- تناظر (عمرو بن عبيد) مع مجوسي على سفينة، فقال له عمرو: لم لا تسلم؟

قال: لأن الله لم يُرِدَ إسلامي، فإذا أراد الله إسلامي أسلمت.

قال عمرو: إن الله يريد إسلامك، ولكن الشياطين لا يتركونك.

فقال المجوسي: فأنا أكون مع الشريك الأغلب.

الأدلة السمعية والعقلية على صفة الإرادة:

أولاً: الأدلة السمعية:

١- من القرآن الكريم: يقول الله تعالى:

- ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾

[البروج:١٤-١٦].

- ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[القصص:٦٨].

- ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[الشورى [٤٩، ٥٠].

- ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

[آل عمران:٢٦].

٢- ومن السنة المطهرة:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، فَإِنَّهُ لا مُكْرِهَ لَهُ**»(١).

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع قال: «**اللهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءُ الأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**»(٢).

ثانيًا: الأدلة العقلية:

١- إذا نظرنا إلى مخلوقات الله نجد أن بعضها متقدم، وبعضها متأخر، ويجوز عقلًا تقدم ما هو متأخر، وتأخر ما هو متقدم، فاختصاص بعضها بالتقدم وبعضها بالتأخر لا بد أن يكون بتخصيص مخصص، وإرادة فاعل مختار.

٢- وإذا تأملنا هذه الكائنات رأينا مظاهر التنوع بادية فيها، والتنوع مظهر الإرادة الحرة تدبرْ هذه المواضع القرآنية التي تشير إلى مظاهر التنوع:

- ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور:٤٥].

- ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد:٤].

---

(١) رواه البخاري في ك التوحيد ب في المشيئة والإرادة ـ الفتح (١٣/ ٤٥٦).

(٢) رواه مسلم في ك الصلاة ب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع (١/ ٣٤٧).

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر:٢٧].

تعلقات الإرادة: لها تعلقان:

١- تعلق صلوحي قديم: وهو صلاحيتها في الأزل لتخصيص كل ممكن بأي أمر من الأمور.

٢- تعلق تنجيزي قديم: وهو تخصيصها في الأزل الممكن الذي سيوجد بأحد الأمور.

الإرادة والأمر:

يختلف معنى الإرادة عن معنى الأمر، فإذا كانت الإرادة هي الصفة التي تختار للمخلوق أوصافه التي سيكون عليها، فإن الأمر طلب حصول الفعل. فهما متغايران:

١- فقد يريد الله شيئًا ويأمر به كإيمان أبي بكر الصديق؛ فإيمانه أمر الله به وأراده بدليل وقوعه، فإنه لا يقع في ملك الله إلا ما أراده.

٢- وقد يريد الله شيئًا ولا يأمر به مثل كفر أبي لهب، فقد أراده الله بدليل وقوعه، ولكنه ـ تعالى ـ لم يأمر أبا لهب بالكفر.

٣- وقد يأمر الله بشيء، ولا يريده كإيمان أبي جهل، فإيمانه أمر الله به، ولم يرده منه بدليل عدم وقوعه.

٤- وقد لا يأمر الله بشيء ولا يريده مثل كفر الأنبياء عليهم السلام، وهناك فرق بين إرادة المريد أن يفعل، وإرادته من غيره أن يفعل، فإذا أراد الفاعل أن يفعل شيئًا

فهذه الإرادة تتعلق بفعله هو، أما إذا أراد من غيره أن يفعل فهذه الإرادة تتعلق بفعل غيره، والإرادة الأولى لا تحتاج إلى الأمر، في حين تحتاج الإرادة الثانية إلى الأمر.

والله ـ تعالى ـ إذا أمر العباد بأمر، فقد يريد إعانة المأمور على ما أمره به، وقد لا يريد إعانته، وإن كان مريدًا منه الفعل فالله قد أمر الخلق بطاعته، ولكن منهم من أراد أن يخلق فعله ومنهم من لم يرد، فجهة خلقه ـ سبحانه ـ لأفعال العباد غير جهة أمره، فهو قد أمر فرعون وأبا لهب بالإيمان ولكن لا يلزم من أمره أن يعينهم على تحقيق الفعل، فهو يخلق ما يخلق لحكمة.

ومثال ذلك الذي جاء من أقصى المدينة يسعى وقال لموسى عليه السلام:

﴿إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[القصص: ٢٠]. فهذا مصلحته في أن يأمر موسى بالخروج، لا في أن يعينه على ذلك؛ إذ لو أعانه لضره قومه، فلا يلزم من أن يكون في الأمر حكمة أن يكون في الإعانة على فعل المأمور به حكمة، بل قد تكون الحكمة في عدم الإعانة.

الإرادة والرضا:

الرضا معناه: قبول الشيء واستحسانه ومحبته، وترك الاعتراض عليه، فمعناه مختلف عن معنى الإرادة:

١ – فقد يريد الله شيئًا، ويرضى عنه: كإيمان المؤمنين، وتوبة التائبين.

٢ – وقد يريد الله شيئًا ولا يرضى عنه، ولا يحبه: كمعاصي المؤمنين، وكفر الكافرين، فهي بإرادته تعالى، ومع ذلك لا يحبها، ولا يرضى عنها كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾[الزمر:٧]، وإن كان الكفر واقعًا بمشيئته تعالى.

وكما قال: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾[النساء:١٤٨].

وقال: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾[النساء: ١٠٨] أي: البهتان، وشهادة الزور، وبراءة الجاني، ورمي البريء.

وأخبر في كتابه أنه لا يحب المعتدين، ولا الظالمين، ولا الكافرين، ولا المفسدين، ولا المسرفين، ولا الخائنين، ولا المستكبرين، ولا من كان مختالًا فخورًا.

فإن قيل: كيف يريد الله أمرًا ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف تجتمع إرادته لشيء وبغضه وكراهيته له؟

فالجواب: أن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره .

١- فالمراد لنفسه: محبوب لذاته، ولما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

٢- والمراد لغيره: قد لا يكون مقصودًا للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده فهو مكروهٌ له من حيث نفسه وذاته، مرادٌ له من حيث إيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته، ولا يتنافيان؛ لاختلاف متعلقهما.

وذلك مثل الدواء الكريه إذا علم المريض أن فيه شفاءه، وكقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشَّاقة إذا علم أنها توصل إلى محبوبه.

فهو - تعالى - يكره الشيء ومع ذلك يريده؛ لأنه سبب إلى أمر أحبَّ إليه.

فقد أراد الله خلق إبليس وهو أصل الشَّر والفساد، ومع ذلك هو وسيلة إلى محاب كثيرة للرَّب ترتبت على خلقه، ووجودُها أحب إليه من عدمها.

من ذلك:

١ - أن يظهر للعباد قدرة الرب على خلق المتضادات المتقابلات: فقد خلق شر الخلق إبليس، كما خلق خير الخلق سيدنا محمدًا ﷺ، كما خلق الليل والنهار، والداء والدواء، والحياة والموت، والحر والبرد، والذكر والأنثي. فهذا من أدل الدلائل على كمال قدرته ﷻ.

٢ - ظهور آثار أسمائه القهرية: كالقهار، والمنتقم، والعدل، والضار، والشديد العقاب، والخافض، والمذل. فهذه الأسماء كمال لله، ولا بد من وجود متعلقها، ولو كان الخلق جميعًا في طبيعة الملائكة لم تظهر آثار هذه الأسماء.

٣- ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه، ومغفرته وستره، وتجاوزه عن حقه، وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكرهه ما ظهرت آثار هذه الأسماء المباركة، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»[١].

٤ - ظهور آثار الحكمة والخبرة، فإنه سبحانه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الحرمان والمنع مكان العطاء والفضل، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع، ولا الثواب موضع العقاب، ولا العقاب موضع الثواب، ولا العز مكان الذل، ولا الذل مكان العز.

---

(١) رواه مسلم في ك التوبة ب سقوط الذنوب بالاستغفار (٤/ ٢١٠٦).

فلو قُدر عدم الأسباب المكروهة لتعطلت حِكَمٌ كثيرة، ولفاتت مصالح عديدة، ولو عُطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب، وهذا كالشمس، والمطر، والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل من الشر كما سبق أن أشرنا.

٥- حصول أنواع مختلفة من العبودية لله، لولا خلق إبليس لما حصلت؛ مثل: عبودية الجهاد، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة لله، والمعاداة فيه.

ومثل: عبودية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وعبودية الصبر، ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الله على محاب النفس وعبودية التوبة، والاستغفار، والاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ويعصمه من كيده وأذاه. إلى غير هذا من الحكم التي تعجز العقول عن إدراكها.

فإن قيل: هل كان يمكن وجود تلك الحكم من دون هذه الأسباب؟

فهذا سؤال فاسد، وهو فرض وجود الملزوم من دون لازمه، كفرض وجود الابن من دون الأب، والحركة من دون المتحرك، والتوبة من دون التائب.

فإن قيل: كيف يرضى لعبده شيئًا ولا يعينه عليه؟

قلنا: لأن إعانته عليه تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكره إليه ـ سبحانه ـ من محبته لتلك الطاعة.

وقد أشار ـ تعالى ـ إلى ذلك في قوله:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝٤٦ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[التوبة:٤٦، ٤٧].

فأخبر ـ سبحانه ـ أنه كره انبعاثهم وخروجهم إلى الغزو مع رسوله ـ وهو طاعة ـ فلما كرهه منهم ثبطهم عنه، ثم ذكر ـ سبحانه ـ بعض المفاسد التي كانت تترتب على خروجهم مع رسوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: فسادًا وشرًّا ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ أي: سعوا بينكم بالفساد والشر ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: قابلون منهم، مستجيبون لهم، فيتولد من سعي هؤلاء، وقبول هؤلاء من الشر ماهو أعظم من مصلحة خروجهم، فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم. فهذا مثال يقاس عليه[1].

* * *

٣- صفة القدرة

لحظاتُ تأملٍ:

سافرت فوق سلسلة جبال (السروات) ساعات طويلة، وهالني منظر الوديان الخضر، والجبال الشم المختلفة في ارتفاعها، وأشكالها، وألوانها: بيض، وحمر، وغرابيب سود. سبحانه الله!!

ونزلنا لنستريح، واستلقيت على ظهري، وعيناي تجول في السماء، وقد دخل الليل، وبدت النجوم، تُرى ما عدد نجوم السماء؟ تذكرت ما أجاب به أحد علماء الفلك عن هذا السؤال: عددها عدد حبات الرمال الموجودة على شواطئ

---

(١) انظر تفصيل ذلك عند ابن القيم في (مدارج السالكين) (١/ ٢٥١ – ٢٥٦)، (٢/ ١٩٢ – ١٩٨).

بحار العالم!! سبحان الله!!

وداعبني النوم، وما أحلى النوم بعد التعب! إنه آية عظيمة، ونعمة جليلة. وانتبهت على صوت رفيقي: هيا لنتعشى. أتأكل من السمك أم من الدجاج؟ قلت: سمك ودجاج وسط الصحراء؟

سبحان الله !! ما أعظم قدرة الله!!

سَل الواحة الخضراء والماء جاريا   وهذي الصحاري والجبالَ الرواسيا
سَل الروضَ مُزدانًا سل الزهرَ والنَّدا   سل الليلَ والإصباحَ والطيرَ شاديا
وسل هذه الأنسامَ والأرضَ والسما   وسل كلَّ شيء تسمع الحمد ساريا
فلو جنَّ الليلُ وامتدَّ سرمدًا   فمن غيرُ ربي يُرجعُ الصبحَ ثانيا

تعريف صفة القدرة:

هي صفة وجودية أزلية قائمة بذاته تعالى، يتأتى بها إيجاد الممكنات وإعدامها على وفق علمه - تعالى - وإرادته.

فإذا كان علم الله صفة انكشاف، وإرادته صفة تخصيص، فإن قدرته صفة تأثير وتنفيذ لما علمه وأراده من الممكنات، فإذا علم الله - تعالى - أن سيكون لك غلام، واختارت الإرادة الإلهية ورجحت الصفات التي سيكون عليها الغلام فإن القدرة الإلهية هي التي ستبرز هذا الغلام إلى الوجود.

فبالقدرة يكون الإيجاد، وبالقدرة يكون الإعدام، وبالقدرة يكون الخلق، وبالقدرة يكون الرزق، وبالقدرة كانت الأرض مهادًا، والجبال أوتادًا، وبالقدرة كان النوم سباتًا، والليل لباسًا، والنهار معاشًا، وبالقدرة يكون إرسال الرياح، وإنزال مياه الأمطار، وإنبات الزروع والثمار والأشجار.

والقدرة كالإرادة لا تتعلق بالأمر الواجب؛ لأنها لو تعلقت به لإيجاده يكون تحصيل حاصل، ولو تعلقت به لإعدامه كان قلبًا للحقائق؛ لأنه لا يقبل العدم. كذلك لا تتعلق القدرة بالأمر المستحيل؛ لأنها لو تعلقت به لإيجاده كان قلبًا للحقائق؛ لأنه غير قابل للوجود، ولو تعلقت به لإعدامه كان تحصيل حاصل.

فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[آل عمران:٢٩]، أي: كل شيء ممكن قابل للوجود والعدم، أما المحال لذاته مثل كون الشيء موجودًا معدومًا في حال واحدة فلا تتعلق به القدرة.

وإذا سئلت: هل يقدر الله أن يخلق إلهًا مثله، أو يُهلك نفسه.

فقل: هذا محال لا تتعلق به القدرة الإلهية.

وعموم لفظ (كل) في موضع بحسبه ويُعرف ذلك بالقرائن:

فقوله تعالى عن الريح التي أرسلها على عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾[الأحقاف:٢٥]، أي: تدمر كل شيء يقبل التدمير ويستحقه، فمساكنهم - وإن كانت شيئًا - لم تدخل في عموم: (كل).

وقوله تعالى عن بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾[النمل:٢٣]. أي: من كل شيء يحتاج إليه الملوك، وهكذا.

وقدرة الله - تعالى - تختلف عن قدرة العبد؛ لأن قدرة العبد حادثة ومحدودة، ومحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة، وإذا قلنا: فلان من الخلق قادرٌ، فعلى سبيل التقييد، أي: قادر على كذا، ولا يقال: قادرٌ مطلقًا.

ولذلك فإنه لا يوصف أحد غير الله بالقدرة من وجه إلا ويصح أن يوصف

بالعجز من وجه آخر، بل من وجوه أخرى، والله ـ تعالى ـ هو الذي ينتفي عنه العجز من كل الوجوه.

وقدرته ـ تعالى ـ تعمل وفق النواميس الطبيعية التي أودعها في هذا الكون وحسب قانون الأسباب والمسببات الذي بنى عليه هذا الوجود. فقد جرت العادة أن توجِد القدرة الإلهية الشيء عقب حدوث سببه، ومع ذلك قد يخرق الله هذه العادة إذا شاء فلا يأتي بالمسبب عقب السبب؛ كتخلف الإحراق عن النار كما فعله مع خليله إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ أو يأتي بالمسببات من دون هذه الأسباب المعتادة كما خلق آدم من غير ذكر وأنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى ابن مريم من غير أن يمسها بشر؛ ليبين طلاقة قدرته تعالى، وأنها تفعل بسبب ومن دون سبب، ولعل في قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾[المائدة:٥٢]، إشارة إلى ذلك، فالفتح يكون بالأخذ بالأسباب، وأما الأمر الذي من عنده فيكون بكن فيكون.

وفِعلُ الله ـ تعالى ـ نوعان:

١ – نوع أبدعه كاملًا، لا يزيد ولا ينقص، إلى أن يشاء فناءه أو تبديله كالسماوات.

٢ – ونوع جعل أصوله موجودة بالفعل، وأجزاءه موجودة بالقوة، وقدَّره على وجه لا يتأتى منه غيرُ ما قدَّره فيه، كتقديره في بذور القمح أن ينبت منها القمح دون غيره من النباتات، وتقديره لمني الإنسان أن يكون منه الإنسان دون سائر الحيوانات.

* * *

نسبة الفعل بين الرب والعبد:

نلاحظ أن الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، قد تنسب بعض الأفعال التي نعلم يقينًا أنها من فعل الله تعالى، ومن مظاهر قدرته عز وجل؛ تنسبها إلى العبد وذلك باعتبار أنه كان سببًا فيها، وباشر إيجادها؛ ومن أمثلة ذلك:

١- نعلم أن الذي يهب الذرية هو الله تعالى، قال سبحانه: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[الشورى:٤٩، ٥٠].

ونرى أن القرآن الكريم ينسب ذلك إلى جبريل عليه السلام؛ قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم:١٦-١٩].

٢- نعلم أن الله هو الذي يخلق من الطين، وهو الذي يحيي الموتى ومع ذلك فإن القرآن ينسب ذلك إلى عيسى ابن مريم: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ﴾[آل عمران:٤٩].

٣- نعلم أن الذي يدبر الأمر هو الله جل في علاه ونرى القرآن الكريم ينسب ذلك إلى بعض الملائكة؛ قال سبحانه: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾[النازعات:١-٥].

٤- نعلم أن الله ـ تعالى ـ هو الذي يرزق عباده ومع ذلك نراه ينسب الرزق إلى الخلق، قال سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[النساء:٥].

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[النساء:٨].

٥- نعلم أن الله ـ تعالى ـ هو الغني المغني ومع ذلك يسند هذا إلى رسوله ويشركه معه بواو العطف في الإغناء، قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾[التوبة:٧٤].

٦- والذي يفرج الكروب هو الله تعالى، والذي ييسر الأمور هو الله تعالى، والذي يستر العباد هو الله تعالى.

ومع ذلك نجد الرسول ﷺ ينسب ذلك إلى العباد، فيقول في الحديث الصحيح: **«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»**[1].

٧- والذي يغيث الملهوف هو الله تعالى.

ونجد الرسول ﷺ يقول: **«مَنْ أَغَاثَ مَلْهُوفًا كَتَبَ اللهُ لَهُ ثَلاثًا وَسَبْعِينَ مَغْفِرَةً»**[2].

٨- والذي يفزع إليه في الحوائج هو الله تعالى.

---

(١) رواه مسلم في ك الذكر والدعاء ب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٤/ ٢٠٧٤).

(٢) رواه البخاري في التاريخ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس – جامع الأحاديث (٦/ ١٠٩).

ونجد رسول الله ﷺ يقول: «إن لله ـ تعالى ـ عبادًا اختصهم بحوائج الناس، يفزع الناس إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله»(١).

وهكذا ينسب الفعل إلى الله نسبة حقيقية، وينسب إلى العبد نسبة سببية مجازية.

صفة القدرة في القرآن الكريم:

لم ترد لفظة (القدرة) كما جاءت صفة (العلم) ولكن ورد وصفه ـ تعالى ـ بأنه: (قدير) قال سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١]، والقدير: هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة بلا زيادة ولا نقصان.

ومن أسمائه الحسنى: (القادر) قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[الأنعام:٦٥]، وقال سبحانه: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾[المرسلات:٢٣].

وورد أنه تعالى (المقتدر) قال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾[القمر:٥٤، ٥٥].

وورد أنه ذو القوة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[الذاريات:٥٨].

---

(١) رواه الطبراني عن ابن عمر – جامع الأحاديث (٢/٤٤٨).

فالقوة كمال القدرة، والمتانة كمال القوة، وكون الشيء يؤثر في غيره يسمى قوة، وكونه لا يتأثر بغيره يسمى أيضًا قوة.

فالإنسان الذي يقوى أن يصرع الناس يسمى قويًّا، والإنسان الذي لا ينصرع من أحد يسمى أيضًا قويًّا.

إذا تأملنا هذا، علمنا أن القوي على الحقيقة ليس إلا الله جل في علاه.

ولم يكتف القرآن الكريم بإثبات صفة القدرة لله – تعالى – فقط، بل أكد ذلك بأمور:

١ – إنه منزه عن التعب والنَّصب: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[سورة ق:٣٨].

٢ – إن قدرته لا تحتاج إلى آلات، أو أدوات، أو مواد: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢].

٣- إنه لا تفاوت في قدرته بين فعل الكثير والقليل: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[النحل:٧٧].

ومن حديث القرآن الكريم عن مظاهر قدرته – تعالى – نختار موضعين:

الموضع الأول: قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ

يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الروم:٢٠-٢٧].

الموضع الثاني: قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الزمر:٢١].

فبقدرة الله تُبَخِّرُ الشمس مياه البحار والمحيطات، فتصعد إلى السماء ماء عذبًا؛ لأن التبخير يخلصه من الأملاح التي تضر الإنسان والحيوان والنبات.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[الواقعة:٦٨-٧٠].

لكن لو ظل هذا الماء يرتفع في الفضاء لتبدد، ولم يُنتفع به، فاقتضت حكمته وقدرته أن يتكثف بالبرودة، ولكن كيف ذلك؟

كان الظاهر أن تزداد الحرارة كلما ارتفعنا إلى أعلى؛ لأننا نقترب بالارتفاع من الشمس، وهي مصدر الحرارة، ومعنى هذا أن يزداد بخار الماء حرارة كلما ارتفع إلى أعلى، فيخف وزنه، فيرتفع أكثر في السماء، فلا ينزل أبدًا إلى الأرض.

هذا هو الظاهر لنا، لكن الله قضى بعكس ما نظن لأول وهلة؛ فقد قضى ـ سبحانه ـ أن تنخفض الحرارة كلما ارتفعنا إلى أعلى حتى نصل إلى مسافة ثمانية

أميال فوق سطح البحر، وهذه هي منطقة تكون السحاب، وهي فوق أعلى الجبال.

وبعد هذه المنطقة نجد منطقة ثانية، تثبت فيها درجة الحرارة ولا تتغير، حتى ارتفاع ثلاثين ميلًا فوق سطح الأرض، بعدها تبدأ منطقة ثالثة تبدأ درجة الحرارة فيها في الارتفاع الشديد، تليها منطقة أخرى فيها تنخفض درجة الحرارة!

تأمل مظهر القدرة الإلهية في التصميم المحكم لطبقات الجو مما يضمن ارتفاع ماء البحر العذب فوق مستوى الجبال، ثم وقوفه وتكثفه بالبرودة الموجودة في الطبقة الأولى، حتى لا يغادر الأرض، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ﴾

[المؤمنون:١٨].

ولما كان بخار الماء خفيفًا لا يرى، فقد اقتضت حكمته - تعالى - وقدرته أن يرسل الرياح محملة بذرات الدخان، والأتربة، فتتلقح جزيئات بخار الماء بها، فتثيرها وتحركها، وتتجمع حتى تصير سحابًا ثقيلًا لا يغادر غلاف الأرض؛ تدبر قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[الروم:٤٨] كسفًا: قطعًا. الودق: المطر.

ويأمر الله الرياح بنقل هذا الماء من البحار إلى أعماق القارات. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ﴾

[الأعراف:٥٧].

وتأمل توزيع الماء العذب في عروق الأرض، وكيف أن الأرض تحفظه من

التعفن، وكيف تحفظه قريبًا من سطحها؛ حتى يمكن الانتفاع به في شكل عيون وآبار، تحتها صخور المياه الجوفية؛ حتى لا تغور في أعماق الأرض.

اقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

صفة القدرة في السنة المطهرة:

١- قال ﷺ: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ، وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ، وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ»[(١)].

٢- وقال ﷺ: «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»[(٢)].

٣- وقال ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ خَلْقَ شَيْءٍ لَمْ يَمْنَعْهُ شَيْءٌ»[(٣)].

٤- وعن أَنَسَ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ قَتَادَةُ: بَلَى، وَعِزَّةِ رَبِّنَا[(٤)].

٥- وكان ﷺ يَقُولُ فِي خلف كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»[(٥)].

---

(١) رواه البخاري في ك التوحيد ب قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ الفتح (١٣/ ٣٨٧).
(٢) رواه مسلم في ك السلام ب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء (٤/ ١٧٢٨).
(٣) رواه مسلم في ك النكاح ب حكم العزل (٢/ ١٠٦٤).
(٤) رواه مسلم في ك صفات المنافقين ب يحشر الكافر عاري الوجه (٤/ ٢١٦١).
(٥) رواه البخاري في ك القدر ب لا مانع لما أعطى الله – الفتح (١١/ ٥٢١).

٦- وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن:٢٩]. قَالَ: «مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَخْفِضَ آخَرِينَ»[١].

الدليل العقلي على صفة القدرة:

لو لم يكن الله ـ تعالى ـ قادرًا لكان عاجزًا، ولو كان عاجزًا ما وجد شيء من هذه الموجودات، وعدم وجودها باطل بالمشاهدة فبطل ما أدى إليه، وهو اتصافه بالمعجز، ووجب اتصافه بالقدرة.

تعلقات صفة القدرة:

لهذه الصفة المباركة تعلقان إجمالًا هما:

١- **تعلق صلوحي قديم**: وهو صلاحيتها في الأزل للإيجاد والإعدام فيما لا يزال[٢].

٢- **تعلق تنجيزي حادث**: وهو تأثيرها وإيجادها للأشياء بالفعل.

وأما تفصيلًا، فيمكن أن تتصور تعلقات القدرة هكذا:

أولًا: التعلق الصلوحي القديم المذكور.

ثانيًا: كون الممكن فيما لا يزال قبل وجوده في قبضة القدرة: إن شاء أبقاه الله على عدمه، وإن شاء أوجده بها.

ثالثًا: إيجاد الله ـ تعالى ـ المخلوق بها فيما لا يزال.

---

(١) رواه ابن ماجة في المقدمة (١/ ٧٣).

(٢) الأزل: ما قبل وجود المخلوقات حين كان الله ولا شيء معه، وانتهى بوجود أول مخلوق وما يزال: يبدأ بوجود المخلوقات ولا نهاية له.

رابعًا: كون الممكن حال وجوده في قبضة القدرة: إن شاء أبقاه الله على وجوده، وإن شاء أعدمه بها.

خامسًا: إعدام الله الشيء بالفعل عندما يحين وقت عدمه.

سادسًا: كون الممكن حالة عدمه في قبضتها: إن شاء أبقاه على عدمه، وإن شاء أوجده بها.

سابعًا: إيجاد الله ـ تعالى ـ بها المخلوق يوم البعث

* * *

٤- صفة الحياة

صفة الحياة: صفة وجودية أزلية قائمة بذاته تعالى، تصحح اتصافه بالعلم، والإرادة، والقدرة، ونحو ذلك من الصفات التي تستلزم حياة المتصف بها.

وحياة الله ـ تعالى ـ تختلف عن معنى حياة مخلوقاته، وليس في إمكان البشر أن يصلوا إلى حقيقة معنى حياته تعالى. بل إن البشر يقفون عاجزين عن فهم معنى الحياة بالنسبة للمخلوقات:

- إننا لا نفهم من معنى حياة النباتات إلا النمو.
- ولا نفهم من معنى حياة الحيوانات إلا النمو، والإحساس، والحركة الإرادية.
- ولا نفهم من معنى حياة الإنسان إلا النمو والإحساس، والحركة، والتفكير.

أما حقيقة معنى الحياة فهذا شيء صعب المنال. فما بالك بإدراك حقيقة حياته ﷻ؟!

وقد وردت الأدلة النقلية تثبت تلك الصفة: قال تعالى:

- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾[البقرة:٢٥٥].

- ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾[طه:١١١].

- ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨].

وحياته - تعالى - لا يلحقها فناء، ولا عدم، ولا موت.

حُكي أنه مات ابن لرجل: فبكى حتى عمي، فقيل له: الذنب لك؛ حيث أحببت حيًّا يموت، هلا أحببت الحي الذي لا يموت.

وكما أنه تعالى (حي) فهو (محيي) فيحيي الإنسان والحيوان بخلق الروح في الجسد، ويحيى الأرض بإنزال الغيث عليها.

وكما أنه المحيي، فهو (المميت) قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ [الملك:٢].

وإنما تَمدَّح بالإماتة؛ ليعلم الخلق أنه قادر على التصرف في الأشياء كيف شاء.

والفرق بين صفة (الحياة) و(المحيي) أن الصفة الأولى ذاتية، والثانية فعلية، وكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: **«يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»**[(١)].

(١) الترغيب والترهيب (١/ ٤٥٧).

أما الدليل العقلي على اتصافه – تعالى- بصفة الحياة فهو: أنه – تعالى – ثبت أنه متصف بالعلم، والإرادة، والقدرة، وكل مَنْ اتصف بهذه الصفات فهو حي.

فمن المسَلَّم عقلًا أن الميت لا يكون عالمًا قادرًا.

ومن أين هذه الحياة التي نراها في العالم إن لم تكن هبة من الحي الذي لا يموت؟!

* * *

٥- صفة السمع

سمع الله صفة من صفاته الوجودية الأزلية القائمة بذاته تعالى، تنكشف بها له جميع الأصوات والموجودات انكشافًا تامًّا يغاير الانكشاف بصفتي العلم والبصر، ليست بأذن أو آلة كسمع المخلوقات تعالى الله عن ذلك، فقد سمع موسى كلامه ـ تعالى ـ عند مناجاته، وسمع نبينا كلامه ليلة المعراج، وكلامه ـ تعالى ـ ليس بحرف ولا صوت .

إنه يسمع كل شيء في هذا الوجود.

إنه يسمع دعوات عباده، وتضرعهم إليه، ولا يشغله نداء عن نداء، ولا تمنعه إجابة دعاء عن دعاء، وتأمل ما يكون يوم عرفة قبيل الغروب من ضيوف الرحمن، وما يكون منهم حول بيت الله الحرام.

وصفة السمع غير صفة العلم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٣٧]، فلو كان السمع هو العلم لكان تكرارًا لا فائدة فيه.

وعندما أرسل الله موسى وهارون قال لهما: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦].

وقال عن المشركين الذين يكيدون لحبيبه المصطفى ﷺ: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾[الزخرف:٨٠].

وعندما جاءت (خولة بنت ثعلبة) تجادل رسول الله ﷺ في شأن زوجها نزل قوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾[المجادلة:١].

قالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ في جانب البيت تحدِّثه، ما أسمع ما تقول ولكن الله سمع قولها).

ولما رأى الرسول ﷺ أصحابه يرفعون أصواتهم بالتكبير أشفق عليهم ودنا منهم وقال: «**ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ**»[١].

وعَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ: «**لَيْسَ أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَدًا وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**»[٢].

لا تسألن بني آدمَ حاجةً ... وسل الذي أبوابهُ لا تحجبُ
الله يغضبُ إن تركت سؤالَه ... وبُنَيّ آدمَ حين يُسألُ يغضبُ

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٧٦).
(٢) رواه البخاري في الأدب – الفتح (١٠ / ٥١١).

والدليل العقلي على اتصافه بالسمع: أنه لو لم يتصف بالسمع لاتصف بضده، وهو الصمم، والصمم نقص، وهو على الإله محال.

كما أن في المخلوقات نعمة السمع، وهي هبة من الله تعالى، ولا يعقل أن يكون واهبها فاقدًا لها، فلو لم يكن سميعًا لكان في المخلوقات ما هو أكمل من خالقها، وهذا محال.

وقال ﷺ: «**مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدًّا وَيَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ**»[(١)].

* * *

٦- صفة البصر

هي صفة وجودية أزلية قائمة بذاته ـ تعالى ـ تنكشف بها له جميع المشاهدات. وهي ليست بجارحة وحاسة كبصر المخلوقات؛ لأن الله منزه عن ذلك.

وهى صفة تعم جميع المخلوقات؛ ولذلك قيل: إذا عصيت مولاك فاعصه في موضع لا يراك. ولا تقل: كيف يحدث السمع بلا أذن! والبصر بلا أعين! فإنك ترى في منامك أشياء مختلفة الألوان والأحجام وتسمع كلام من تراهم في منامك، وسمعك نائم وبصرك نائم؛ إنه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ومن أسمائه الحسنى: (البصير) وهو الذي يشاهد ويرى حتى لا يغيب عنه ما تحت الثرى.

---

(١) رواه البخاري في الأدب – الفتح (١٠ / ٥١١).

تعلق السمع والبصر:

وسمعُ الله وبصره يتعلقان بالأمر الموجود فقط، سواء كان واجبًا أو ممكنًا، ولا يتعلقان بالمعدوم سواء كان مستحيلًا أو ممكنًا، وللسمع والبصر تعلقات ثلاثة:

أ- تعلق صلوحي قديم: وهو صلاحية السمع والبصر في الأزل للتعلق بما سيوجد من الممكنات.

ب- تعلق تنجيزي قديم: وهو تعلقهما أزلًا بذات الله وصفاته تعلق انكشاف.

جـ- تعلق تنجيزي حادث: وهو تعلقهما فعلًا بالممكنات بعد وجودها تعلق إحاطة وانكشاف.

الدليل على صفة البصر:

- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[المجادلة:١].

- وقال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾

[العلق:٩-١٤].

وقال ﷺ: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(١).

وقد عاب خليل الله إبراهيم على الأصنام أنها لا تسمع ولا تبصر؛ فلا تصلح للعبادة، ولا للألوهية، فقال لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا

(١) رواه البخاري (١/ ١١٥/ ح:٤٧٧٧).

يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـًٔا﴾[مريم:٤٢]، وقال لقومه عباد الأصنام: ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾[الشعراء:٧٢، ٧٣]

الدليل العقلي: أنه -تعالى- لو لم يتصف بالبصر لاتصف بضده، وهو العمى، وهو نقص على الله محال.

والبصر كمال، وكل كمال الله أولى أن يتصف به، ولا يعقل أن يكون واهب البصر للمخلوقات فاقدًا له، وإلا كان المخلوق أكمل من الخالق وهو محال، وأجمعت الأمة على اتصافه -تعالى- بصفتي: السمع والبصر:

يا مَنْ يرى مَدَّ البعوضِ جناحَهُ ... في ظلمةِ الليلِ البهيم الأليلِ
ويرى نباط عروقِها في نحرِها ... والمخَّ في تلك العظامِ النّحَّلِ
ويرى ويسمعُ ما يرى ما دونها ... في قاعِ بحرٍ زاخرٍ متُجَندلِ

* * *

٧- صفة الكلام

لحظاتُ تأمل:

إنَّ الله -تعالى- خلق الأرض: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾[فصلت:١١].

وعهد إلى ملائكته المدَبِّرات أمرًا بالقيام على شئون خلقه من: إحياء، وإماته، وخلق، ورزق، وغيث، وخسف، ورفع، وخفض، وغير ذلك.

وعهد إلى رسله من البشر بتبليغ رسالاته إلى خلقه.

كل ذلك كان ويكون بهذه الصفة المباركة: صفة الكلام.

إن الإنسان منا كم يستخدم من الكلمات والألفاظ في أثناء حديثه، وكتابته وقراءته!!

بل كم لغة تتكلم بها مخلوقات الله!!

فما ظنك بكلام من الكثرة والعظمة على النحو الذي يشير إليه قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[لقمان:٢٧].

ويشير إليه قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[الكهف:١٠٩].

تعريف صفة الكلام والمذاهب فيها:

صفة الكلام صفة يكون بها الدلالة والإفهام.

وأجمعت الأمة على أنه - تعالى - متكلم، هذا ليس محل خلاف، لكنهم عندما فكروا في المسألة عقليًا وجدوا دليلين متعارضين:

الأول: أن كلامه - تعالى - صفة له، وكل صفاته قديمة فكلامه قديم.

الثاني: أن كلامه مكون من أجزاء متعاقبة في الوجود حسب القراءة أو الكتابة، وكل ما كان كذلك فهو حادث مخلوق، فكلامه حادث مخلوق. فافترقت الأمة إلى أربع فرق:

- ذهبت فرقتان إلى صحة الدليل الأول، وهما: الحنابلة والأشعرية.

- وذهبت فرقتان إلى صحة الدليل الثاني، وهما: الكرامية والمعتزلة.

١) **فالحنابلة**: قالوا: كلامه - تعالى - حروف وأصوات تقوم بذاته.

وهو قديم. ولكن .. كيف يكون قديمًا قائمًا بذاته، وكل حرف يحصل بعد انقضاء سابقه؟!

٢) **والأشعرية**: قالوا: كلامه نوعان: نفسي ولفظي.

أ- فالكلام النفسي: هو المعاني التي تكون في النفس، وهو غير العلم؛ لأن العلم صفة انكشاف، وغير الإرادة؛ لأنها صفة تخصيص، وهذا الكلام النفسي هو القديم .

ب- والكلام اللفظي وهو العبارات التي تدل على ما في النفس، وهذا النوع حادث.

٣) **والكرامية**: قالوا: كلامه حروف وأصوات حادثة تقوم بذاته.

ولكن .. كيف يكون الله محلًّا للحوادث؟

٤) **والمعتزلة**: قالوا: كلامه حروف وأصوات، لكنها ليست قائمة بذاته تعالى، بل يخلقها في غير ذاته؛ كاللوح المحفوظ، أو جبريل، أو النبي مثلًا.

ولكن ... كيف يكون الله متكلمًا بكلام لا يقوم بذاته؟ وهل تُعَدُّ أنت متكلمًا إذا قام الكلام بزميلك؟

ثم قامت المعارك الحامية بين الفرق، وتصارعت الأدلة، وازدادت الهجمات ضراوة على كل فريق، مما سودت به الصفحات الضخمة، وضيع فيه وقت المسلمين في محاولة التعرف على حقيقة وكنه (كلام الله) حتى سمي علم التوحيد بـ(علم الكلام) كما سبق.

ولا أريد أن أعرض لمذهب كل فرقة وأدلتها، فهذا أمر يطول جدًّا، ويرهق إلى أقصى درجة؛ لكنني أريد أن أنبه إلى أمر مهم بعد أن أيقنَّا بثبوت هذه

الصفة لله، وهو ضرورة التفرقة بين ما يقوم بذاته ـ تعالى ـ من هذه الصفة، وما يقوم بذواتنا نحن.

إننا عندما نقرأ أو نكتب أو نسمع كلام الله لا بد أن نفرق بين هذين الأمرين.

وقد أشرنا في المقدمة إلى دور أعداء الإسلام في ظهور مشكلة خلق القرآن في البيئة الإسلامية، وقد تورط فيها بعض الخلفاء، وما كان ينبغي لهم أن يفرضوا رأيًا فكريًّا على جميع العلماء والمفكرين ولا أن يمتحنوهم للتأكد من موقفهم من هذه القضية التي ما أثارها رسول الله ﷺ ولا أصحابه رضي الله عنهم.

وبسبب هذا البلاء خرج الإمام البخاري فارًّا، وقال: اللهم اقبضني إليك غير مفتون، فمات بعد أربعة أيام.

وسجن (عيسى بن دينار ت ٢١٢هـ) فقيه الأندلس في عصره عشرين سنة.

وسئل الإمام (الشعبي ت ١٠٣هـ) عنها فقال: أما التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان فهذه الأربعة حادثة، وأشار إلى أصابعه فكانت سبب نجاته.

واشتهر هذا الجواب عن الإمام الشافعي رضي الله عنه.

وحبس الإمام (أحمد بن حنبل) وضُرب بالسياط حتى غُشي عليه. ويذكر أن النبي ﷺ قال للإمام الشافعي في المنام: بشِّر أحمد بالجنة على بلوى تصيبه في خلق القرآن، فأرسل له كتابًا ببغداد فلما قرأه بكى، ودفع للرسول قميصه الذي يلي جسده، وكان عليه قميصان، فلما وصل إلى الشافعي غسله، وادَّهن بمائه؛ تبركًا به، وطلبًا للشفاء من الله.

وقد قال الإمام البيضاوي - وهو من هو - عن صفة الكلام: «والإطناب في ذلك قليل الجدوى؛ فإن كنه ذاته وصفاته محجوب عن نظر العقول»[1].

ويكفينا أن نثبت لله - تعالى - هذه الصفة المباركة صفة الكلام؛ لأنها صفة كمال. لا يمكن أن يخلو عنها الإله الحق، ألا ترى أنه ردَّ على عُبَّاد العجل بأنه لا يتكلم، وهذا نقص، فلا يصلح أن يكون إلهًا، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾[الأعراف:١٤٨] وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾[طه:٨٩].

* * *

---

(١) متن الطوالع صـ٧٩.

الفصل الثامن

ولله الأسماء الحسنى

وصف أسماء الله بالحسنى:

وصف الله أسماءه[1] بالحسني في أربع آيات من القرآن الكريم:

- ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:١٨٠].

- ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[الإسراء:١١٠].

- ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[طه:٨].

- ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الحشر:٢٤].

وقد ورد في سبب نزول الآية الأولى أن أحد الصحابة كان يصلي، ويقول في صلاته: يا رحمن، يا رحيم. فسمعه رجل من مشركي مكة فقال: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربًا واحدًا، فما بال هذا يدعو اثنين! فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠][2].

---

(١) الاسم هو اللفظ الموضوع لمعنى المتجرد عن الزمان، والمسمى هو المعنى الذي وضع الاسم بإزائه، والتسمية وضع الاسم للمعنى، فهي أمور ثلاثة متغايرة، انظر: شرح المقاصد (٢/ ١٢٤)، وتفسير الرازي (١/ ١٠٨).

(٢) تفسير القرطبي ص٢٧٦١ ط الشعب.

فبينت الآية أن لله - تعالى - عدة أسماء، على المسلم أن يدعو الله بها ويسميه بها، ويثني عليه بها، ويناديه بها إذا أراد شيئا منه - جل في علاه - وهذه الأسماء كلها حسنى؛ لأنها تدل على أحسن المعاني وعلى أكمل الصفات، ونطلب بكل اسم منها ما يليق به، فنقول: يا رحمن ارحمني، يا هادي اهدني، يا تواب تب علي، يا رزاق ارزقني، وإذا أردت اسمًا متضمنًا جميع صفات الكمال فقل: يا الله.

وقد ذكر الله - تعالى - بعض الأسماء في أواخر سورة الحشر حيث قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الحشر:٢٢-٢٤].

معنى الإلحاد في أسمائه تعالى:

الإلحاد هو الانحراف والميل عن القصد، ويكون في أسمائه على النحو الآتي:

١- أن يوصف الله بما لا يجوز أن يوصف به، كوصفه بالأب عند النصارى، وبالجسمية عند الكرامية؛ حيث قالوا: إن الله جسم كالأجسام.

٢- أن يُنفي عن الله بعض أسمائه التي ثبتت له كما يفعله الشيعة الباطنية الغلاة.

٣- أن يُشتق من أسمائه صفة وتُطلق على غيره كالأصنام، كتسمية الصنم باللات من لفظ الجلالة (الله)، والعُزي من اسمه (العزيز)، ومناة من اسمه (المنان).

عدد أسمائه الحسنى:

روى الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»[1].

وقد انقسم العلماء تجاه هذا الحديث إلى فريقين:

الفريق الأول: يرى أنه ليس لله ـ تعالى ـ أسماء إلا هذه التسعة والتسعين اسمًا، والغرض من الحديث تحديد عدد أسماء الله، وحصرها في هذا العدد ومن هذا الفريق الإمام ابن حزم.

وهذه الأسماء حسب رواية الترمذي عن أبي هريرة هي:

(هو الله الذي لا اله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور)[2].

---

(١) رواه البخاري في التوحيد – الفتح (١٣/ ٣٧٧)، ومسلم في الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٦٢).

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٥/ ٥٣٠) – المقيت: أي خالق الأقوات، الحسيب: أي المحاسب=

الفريق الثاني: يرى أن الله ـ تعالى ـ أسماء أكثر من هذا العدد المذكور في الحديث، وليس المراد من الحديث الإخبار بعدد الأسماء وحصرها في هذا العدد، وإنما المراد من الحديث الإخبار بأن من أحصى هذه الأسماء دخل الجنة.

ولا يجوز أن نسمِّي الله إلا بما ورد في القرآن الكريم، أو السنة المطهرة(1)، أو أجمع العلماء على جواز إطلاقه حتى ولو كان معناه صحيحًا، وهذا معنى قول العلماء: «(أسماء الله توقيفية).

فلا يقال: من أسمائه (الموجد)؛ لأنه لم يرد في الشرع وإن كان معناه صحيحًا، وإنما يقال: هو (الخالق)؛ لوروده في الشرع، ولا يقال: (الله سخي) بل يقال: (جوَّاد كريم) ولا يقال: (الله شفيق) بل يقال:(رحيم) وهكذا، هذا بالنسبة إلى الأسماء، وقد يتسامح في الصفات مالا يتسامح في الأسماء، فنقول من صفاته تعالى: أنه صانع العالم، وموجده، ومدبره، وهكذا... ما دام أن الوصف يدل على الكمال.

والدليل على أن أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين ما يلي:

أولًا: أنه لم يثبت في حديث صحيح سرد وعد هذه الأسماء: فالحديث الذي ورد فيه ذكر الأسماء بروايتيه ضعيف، مع وجود اختلاف بين الروايتين بالزيادة والنقصان(2).

=عباده، الواسع: الذي لا حدود لمعاني أسمائه وصفاته. المجيد: أي جميل الأفعال كثير الأفضال، الحق: أي الثابت الذي لا يزول، الولي: المتولي أمور خلقه، الواجد: أي الغني، الصمد: أي المقصود في الحاجات، المقسط: العادل في حكمه، النور: الظاهر وجوده المظهر لوجود غيره الرشيد: المرشد لعباده. الصبور: الذي لا يعجل العقوبة.

(1) من العلماء من اشترط ورود (الاسم) في السنة المتواترة؛ لأن هذا الأمر يرجع إلى اعتقاد ما يجوز أو يستحيل على الله تعالى، وبعضهم اكتفى بخبر (الآحاد)؛ لأن إطلاق الاسم مسألة عملية يكفي في ثبوتها حديث الآحاد.

(2) سنن ابن ماجة (٢/ ١٢٦٩).

وقد رجَّح الإمام ابن حجر أن سرد الأسماء ليس مرفوعًا إلى النبي ﷺ وإنما هو من جمع بعض الرواة[1].

ثانيًا: وردت أسماء لله ـ تعالى ـ في القرآن والسنة لم ترد في هاتين الروايتين؛ منها:

أ) اسم (الرب) وأغلب الدعاء بهذا الاسم.

ب) اسم (الوتر) ففي الحديث: «**لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، لا يَحْفَظُهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَهُوَ وَتْرٌ يُحِبُّ الوَتْرَ**»[2].

جـ) اسم (المنَّان) عَنْ أَنَسٍ، أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي، ثُمَّ دَعَا: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ، بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**»[3].

د) اسم (السُّبُّوح) فقد كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده:

«**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ**»[4].

هـ) اسم (مقلب القلوب) عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: كَانَتْ يَمِينُ النَّبِيِّ ﷺ: «**لا وَمُقَلِّبِ القُلُوبِ**»[5].

و) اسم (الشافي) عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا اشْتَكَى مِنَّا

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢١٥).

(٢) رواه البخاري في الدعوات – الفتح (١١/ ٢١٤).

(٣) رواه أبو داود في الصلاة (٢/ ١٦٧).

(٤) رواه مسلم في الصلاة (١/ ٣٥٣).

(٥) رواه البخاري في الإيمان والنذور – الفتح (١١/ ٥٢٢).

إِنْسَانٌ، مَسَحَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»[1].

ثالثًا: بل إنَّ الرسول ﷺ يُصَرح بأنَّ لله أسماء استأثر بها في علم الغيب عنده، وله أسماء قد يكشف عنها لبعض أوليائه وأحبابه:

فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا»، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: «بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»[2].**

فهذا الحديث واضح في أن أسماء الله –تعالى– أكثر من تسعة وتسعين.

معنى إحصاء الأسماء:

ذكر العلماء لقوله ﷺ: «من أحصاها دخل الجنة» عدة معاني:

١) المراد من الإحصاء العدُّ والحفظ: أي من عدها وحفظها، ودعا الله بها كلها، ولم يقتصر على الدعاء ببعضها استحق الثواب الموعود به، وذلك بشرط إيمانه، قال البخاري: (أحصيناه: حفظناه)[3].

٢) المراد بالإحصاء الإطاقة: كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾

---

(١) رواه مسلم في السلام (٤/ ١٧٢١).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٩١) والحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٩).

(٣) الفتح (١٣/ ٣٧٧).

[المزمل:٢٠] أي: لن تطيقوه، فمن أحصاها أي: من أطاق القيام بحق هذه الأسماء، فإذا قال: (الحكيم) سلَّم جميع أوامره؛ لأنها على مقتضى حكمته، وإذا قال: (القدوس) نزَّه الحق عن جميع النقائص والمعايب، وإذا قال: (الرازق) وثق بالرزق، وهكذا.

٣) المراد بالإحصاء الإحاطة: من قول العرب: فلان ذو حصاة، أي: عقل ومعرفة، فعلى المسلم أن يبذل غاية جهده في الإحاطة بأسمائه -تعالى- من الكتاب والسنة.

٤) المراد بالإحصاء العمل بمقتضى الأسماء: فما يسوغ الاقتداء بمعناه اقتدى به، كالرحيم والكريم والعفو، وما يختص منها به -تعالى- يُقِرُّ العبد به ويخضع له، كالجبار والمتكبر والأحد، وما كان فيه معنى الوعد رغب العبد فيه. وتطلع إليه، كالوهاب والولي واللطيف، وما فيه معنى الوعيد خشي منه وخاف، كالمنتقم والمذل والقهار.

أمور مهمة تتعلق بأسمائه الحسنى:

الأمـــر الأول:

ثبوت الأسماء الحسنى يدل على ثبوت صفاته العليا دون العكس، فلا يلزم من ثبوت الصفة أن له اسمًا منها.

فثبوت اسمه (العليم) يدل على ثبوت صفة العلم، قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٣١]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[البقرة:٢٥٥]، فالآية الأولى أثبتت الاسم، والثانية الصفة، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يونس:١٠٧]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾

[الكهف:٥٨]، فدلت الآية الثانية على أن الرحيم هو المتصف بالرحمة، وأجمع أهل اللغة على أنه لا يقال عليم إلا لمن له علم، ولا رحيم إلا لمن له رحمة.

لكن إذا وردت الصفة فلا يلزم أن يكون له اسم منها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٦]، فالآية دلت على ثبوت صفة الكلام لكن لم يرد ضمن أسمائه الحسنى: المتكلم.

الأمـر الثاني:

سَمَّى الله نفسه بأسماء، وسمَّى بها بعض خلقه، وسمَّى صفاته بأسماء، وسمَّى ببعضها خلقه، وليس المُسَمَّى كالمُسَمَّى:

١ - فسمَّى نفسه: حيًّا، وعليمًا، رؤوفًا، رحيمًا، سميعًا، بصيرًا، عزيزًا، ملكًا، مؤمنًا، جبارًا، متكبرًا.

وقد سمي بعض عباده بهذه الأسماء فقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾[الأنعام:٩٥]، [الروم:١٩]، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات:٢٨]، ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾[الصافات:١٠١]، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨]، ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[الإنسان:٢]، ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾[يوسف:٥١]، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾[الكهف:٧٩]، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾[السجدة:١٨]، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[غافر:٣٥].

ومعلوم أن لا يماثل الحيُّ الحيَّ، ولا العليمُ العليمَ، ولا العزيزُ العزيزَ، وكذلك سائر الأسماء.

٢- وسمَّى بعض صفاته علمًا وقوة؛ فقال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾[النساء: ١٦٦]، ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[فصلت:١٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[الذاريات:٥٨].

وأطلق هذه الصفات على خلقه، فقال عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾[يوسف:٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[هود: ٥٢]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[التكوير:١٩، ٢٠]، ومعلوم؟ أنه ليس العلمُ كالعلمِ، ولا القوةُ كالقوةِ.

الأمـــر الثالث:

الاسم إذا كان جامدًا لا يتضمن معنى حسنًا، فليس من أسمائه الحسنى مثل (الدهر) فهو اسم جامد للوقت والزمن، قال تعالى عن منكري البعث: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾[الجاثيـــــة:٢٤]، يريدون مرور الليالي والأيام.

وأما قوله ﷺ قال الله ـ عز وجل ـ «**قَالَ اللهُ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»[1] فلا يدل على أن الدهر من أسماء الله تعالى؛ لأن الذين يسبُّون الدهر، إنما يريدون الزمان الذي هو محل الحوادث: لا يريدون الله: ـ تعالى ـ فيكون معنى قوله: (وأنا الدهر) ما فسره بقوله: (بيدي الأمر، أقلبُ الليل والنهار) فهو ـ سبحانه ـ خالق الدهر وما فيه، وقد بين أنه يقلب الليل والنهار، وهما الدهر، ولا يمكن أن يكون المقلب ـ بكسر اللام ـ هو

(١) رواه البخاري في التوحيد – الفتح (١٣/ ٤٧٢/ ح:٧٤٩١) ومسلم (٤/ ١٧٦٢).

المقلب ـ بفتحها ـ وبهذا تبين أنه يمتنع أن يكون الدهر في هذا الحديث مرادًا به الله ـ تعالى؛ لأن في الحديث مجازًا بالحذف.

الأمـــر الرابع:

من أسمائه ـ تعالى ـ ما هو مخصوص به؛ لا يجوز إطلاقه على غيره، كالرزاق، والمحي، والمميت، والقدوس، والرحمن، ومالك الملك، ذي الجلال والإكرام. ومنها ما يجوز إطلاقة على غيره مع اختلاف المعنى ـ كما سبق ـ مثل: الحي، الرحيم، الحليم.

ومن أسمائه ما يوصف به مطلقًا ويوصف به غيره مقيدًا؛ كالرب، والقابض، والباسط، والخافض، والرافع.

ومن أسمائه ما يوصف الله به مدحًا؛ ويوصف به غيره ذمًّا كالجبار، والمتكبر.

ومن أسمائه ما لا يطلق عليه إلا مقترنًا بمقابله؛ لأنه إن أطلق وحده أوهم نقصًا، فلا نقول: (الضار) وحده، بل نقول: الضار النافع، ولا نقول: (المانع) وحده، بل المعطي المانع، ولا نقول: (المذل) وحده بل: المعز المذل، ولا نقول: (الخافض) وحده، بل: الخافض الرافع.

وأسماؤه المضافة لا تطلق عليه من دون الإضافة، مثل: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف:٦٤]، ﴿خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾[الأعراف:١٥٥]، ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون:١٤]، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة:٤]، ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[البقرة:١١٧]، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ

﴿إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[غافر:٣]، ﴿جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران:٩]، «مقلب القلوب»[1].

الأمر الخامس:

اختلف العلماء في موضوع (اسم الله العظيم) الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سئل به أعطى، وإليك بعض ما قالوه:

١ - أنكر بعضهم تخصيص أحد أسمائه - تعالى - بأنه الاسم الأعظم. وقالوا: إن كل اسم من أسمائه، يذكره العبد مستغرقًا فيه فذلك الاسم هو الاسم الأعظم، وحملوا ما ورد من ذكر الاسم الأعظم في السنة على أن المراد به العظيم وقالوا: لا يجوز تفضيل بعض أسمائه على بعض، وممن ذهب هذا المذهب: الطبري، والأشعري، وابن حبان، والباقلاني.

٢- وذهب بعض العلماء إلى وجود الاسم الأعظم، وانقسموا إلى فريقين:

أ) فريق يرى أنه غير محدد، ولا معلوم للخلق مع الاعتراف بوجوده فقد استأثر الله بعلمه.

ب) وفريق يرى أنه معلوم للخلق، وهؤلاء اختلفوا في تحديده على نحو أربعين قولًا؛ لاختلافهم في ترجيح بعض الأحاديث النبوية على بعض.

فمن قائل إنه: (الله) أو (الحي القيوم) أو (ذو الجلال والإكرام) أو (الحنان المنان).

والذي يظهر لي أن الله قد أخفاه ضمن الأسماء الحسنى؛ كي يجتهد العبد بالذكر بها كلها، وقد يكون مركبًا من أكثر من اسم من أسمائه، فالمهم حضور القلب عند الذكر، واستكمال شروط الدعاء، وذلك كما أخفى ليلة القدر؛ ليجتهد

---

(١) حديث: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك» رواه الترمذي في الدعوات (٥/ ٥٣٨).

العبد في إحياء ليالي رمضان، وكما أخفى الصلاة الوسطى وساعة الإجابة يوم الجمعة، والله أعلم.

وفيما يأتي بعض الأحاديث النبوية التي وردت في اسم الله الأعظم:

١ - عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ **«لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ»**[١].

قال الحافظ ابن حجر: هذا الحديث أرجح ما ورد في هذا الباب من حيث السند.

٢- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ جَالِسًا فِي الْحَلْقَةِ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَلَمَّا رَكَعَ وَسَجَدَ فَتَشَهَّدَ، ثُمَّ قَالَ فِي دُعَائِهِ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ، يَا بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، إِنِّي أَسْأَلُكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَتَدْرُونَ بِمَا دَعَا اللهَ؟»** قَالَ: فَقَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»**[٢].

٣- عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ:**

- ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٦٣].

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة.

(٢) رواه كذلك أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة.

- ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[آل عمران:١، ٢][1].

٤- عَنْ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى اسْمِ اللهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى؟ الدَّعْوَةُ الَّتِي دَعَا بِهَا يُونُسُ حَيْثُ نَادَاهُ فِي الظُّلُمَاتِ الثَّلَاثِ،** ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٧]، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ كَانَتْ لِيُونُسَ خَاصَّةً أَمْ لِلْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا تَسْمَعُ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الأنبياء:٨٨]»، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّمَا مُسْلِمٍ دَعَا بِهَا فِي مَرَضِهِ أَرْبَعِينَ مَرَّةً فَمَاتَ فِي مَرَضِهِ ذَلِكَ أُعْطِيَ أَجْرَ شَهِيدٍ، وَإِنْ بَرَأَ بَرَأَ وَقَدْ غُفِرَ لَهُ جَمِيعُ ذُنُوبِهِ**»[2].

* * *

دراسة بعض أسمائه الحسنى:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[الحشر:٢٢-٢٤].

تحدثنا في فصل (صفات الله ـ تعالى) عن صفة العلم، وفيما يأتي نتناول معاني بقية الأسماء في النص القرآني المذكور.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي، وقال عنه: «حديث حسن صحيح».

(٢) رواه الحاكم في المستدرك.

معنى اسمه تعالى (الله):

الله: هو الموجود المتصف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، المستحق لجميع المحامد.

واتفق العلماء على أن ما سوى لفظ (الله) من أسمائه ـ تعالى ـ مشتق من صفاته العليا، فاسمه العليم مشتق من العلم، و(القدير) من القدرة، وهكذا.

أما لفظ (الله) فقد اختلفوا فيه على رأيين:

الرأي الأول: أنه غير مشتق من شيء أصلًا، بل هو اسم انفرد الحق به، كأسماء الأعلام؛ وذلك لأن سائر الأسماء تضاف إليه، فوجب أن يكون هذا اسمًا للذات.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، فأضافها جميعها لهذا الاسم.

كما أن قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، يدل على أنه لم يُسمَّ باسم غير (الله)، ولو كان مشتقًّا لكان صفة.

الرأي الثاني: أنه مشتق.

واختلفوا في أصل اشتقاقه على أقوال؛ منها:

القول الأول: أنه **مشتق** من الفعل (ألَهَ) يألَه بمعنى: عبد، فمعنى الله: المعبود بحق.

ويستعمل هذا الفعل (أله) بمعنى: أجار، وأَمَّنَ، فمعنى الله: أي: الذي يجير من يلجأ إليه، ويُؤَمِّن من يلوذ به.

أو من: أَلِهَ: يأله بمعنى تحير؛ لأن العقول متحيرة في كنه جلاله وكماله.

القول الثاني: أنه مشتق من الفعل: لاه يلوه، بمعنى احتجب؛ فهو محتجب: تعجز العقول عن إدراك حقيقته.

أو من: لاه يلوه بمعنى علا وارتفع؛ فهو العليّ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[الأنعام:١٨].

معنى (الرحمن الرحيم):

الرحمن: المنعم بجلائل النعم، والرحيم: المنعم بدقائقها.

والرحمة بالنسبة إلى الإنسان: رقة في القلب تقتضي التفضل والإحسان .

والرحمة من صفات ذاته تعالى، وهي إرادة إيصال الخير للمخلوق، ودفع الشر عنه، وعلى هذا فقد كان الله في الأزل رحمانًا رحيمًا؛ لأن إرادته أزلية، فقد أراد في الأزل أن ينعم على عبيده المؤمنين فيما لايزال.

وقال بعض العلماء: الرحمة من صفات الفعل، وهي إيصال الخير، ودفع الشر؛ فالرحيم هو الذي يفعل الرحمة، ويوصل النعمة.

وليس من شروط كونه رحيمًا ألا يفعل إلا الرحمة، فهو تعالى: رحيم، كريم، ودود، في حق بعض عباده.

وقهار، جبار، منتقم، في حق آخرين.

كما أنه: قابض باسط، ضار نافع، معز مذل، محيي مميت، حسب ما تقتضيه حكمته.

ولا نهاية لرحمته، كما أنه لانهاية لقهره.

واسم (الرحمن) خاص بالحق لا يجوز إطلاقه على غيره.

بخلاف (الرحيم) فقد أطلقه على حبيبه ﷺ فقال: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[التوبة:١٢٨]، وقال له: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

وهو أبلغ من الرحيم؛ لأنه رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة، ورحمته في الدنيا شاملة للمؤمن والكافر، والصالح والطالح، بإيصال الرزق والصحة وغير ذلك. ورحمته في الآخرة خاصة بالمؤمنين.

وحروف (الرحمن) أكثر وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

كما أن وزن (فعلان) للمبالغة دائمًا؛ يقال: رجل عريان إذا لم يكن له ثوب أصلًا، فإن كان له ثوب ممزَّق يقال: إنه عار، ولا يقال: عريان.

وأما وزن (فعيل)فيكون للمبالغة وغيرها كالسميع بمعنى السامع، والقتيل بمعنى المقتول، وليس فيهما مبالغة.

ومن الآيات القرآنية التي ذُكرت فيها صفة الرحمة:

- ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

- ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾[الأنعام:١٣٣].

- ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾[الكهف:٥٨].

- ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾[الأنعام:١٤٧].

- ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾[الروم:٥٠].

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨].

- ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:١٥٦].

ومن الأحاديث النبوية التي تبين لنا رحمة ربنا:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي**».

وعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَمِنْهَا رَحْمَةٌ بِهَا يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ بَيْنَهُمْ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**».

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ**».

ولما عجب الصحابة من رحمة الأم برضيعها قال لهم: «**اَللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»[(١)].

معنى اسمه (الملك):

من أسمائه (الملك) قال تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ [المؤمنون:١١٦].

ومن أسمائه (المالك) قال تعالى: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة:٤].

---

(١) هذه الأحاديث المباركة رواها مسلم ك التوبة ب سعة رحمة الله (٤/ ٢١٠٧).

و(المليك) قال تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[القمر:٥٥].

و(مالك الملك) قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾[آل عمران:٢٦].

والملك: هو الذي يملك الأشياء، ويقدر على التصرف فيها حسب علمه وإرادته. وهذا لا يكون على الحقيقة إلا لله تعالى؛ فهو إذا شاء ملك، وإذا شاء أهلك.

واختلف العلماء في أيهما أبلغ: ملك أو مالك؟

قال الشوكاني: «والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر؛ فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع، والهبة، والعتق، ونحوها.

والملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك، ورعاية مصالح الرعية.

فالمالك أقوى من الملك في بعض الأمور. والملك أقوى من المالك في بعض الأمور.

والفرق بين الوصفين بالنسبة للرب سبحانه: أن الملك صفة لذاته، والمالك صفة لفعله».

ولا يجوز أن نسمي غير الله - تعالى - باسم: (الملك).

وأما الوصف بمالك وملك فيجوز أن يوصف بهما من اتصف بمفهومها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾[البقرة:٢٤٧].

وقد ذكر الله خمسة أنواع من مظاهر كونه الملك في قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران:٢٦، ٢٧].

فأولها: إيتاء الملك ونزعه؛ فليس هذا إلا الله.

وثانيها: ملك الإعزاز والإذلال؛ فهو وحده المعز المذل.

وثالثها: ملك تقليب الليل والنهار وما يترتب على ذلك من المنافع.

ورابعها: ملك الإحياء والإماتة ويدخل فيه الإنسان، والحيوان، والنبات.

وخامسها: ملك الرزق كما قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ﴾[هود:٦].

معنى اسمه (القدوس):

القدوس مشتق من الفعل: قدُس يقدس بمعنى: طهر، وقدَّسه: عظَّمه وكبره، قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾[البقرة:٣٠].

وقيل للجنة: (حظيرة القدس)؛ لطهارتها من آفات الدنيا.

وقيل لجبريل: (روح القدس)؛ لطهارته من العيوب في تبليغ الوحي إلى الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولأنه ينزل بما يطهر النفوس.

وسمي (بيت المقدس) كذلك؛ لأنه مكان يتطهر فيه من الذنوب فمعنى اسمه (القدوس): المنزه عن النقائص والعيوب.

أو هو: مَن تقدست عن الحاجات ذاته، وتنزهت عن الآفات صفاته فهو من الصفات التنزيهية.

معنى اسمه (السلام):

السَّلْم والسلامة: الخلوص من الآفات الظاهرة والباطنة.

والسلامة الحقيقية ليست إلا في الجنة؛ إذ فيها بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وصحة بلا سَقَم؛ قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:١٢٧]، أي: دار السلامة.

وقال تعالى عن يحيى عليه السلام: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[مريم:١٥]، فأكرمه في هذه المواضع الثلاثة، وخصَّه بالسلامة من آفاتها، وسلَّمه من شرها.

فمعنى اسمه (السلام): ذو السلامة، أي: البراءة من العيوب، ويكون من صفات التنزيه.

أو معناه: المُسَلِّم، فهو يسلم على أوليائه في الجنة كما قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾[الأحزاب:٤٤] وقال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[يس:٥٨]، فيكون من صفات الأفعال أيضًا.

معنى اسمه (المؤمن):

لفظ (المؤمن) مشتق في اللغة من (الإيمان) وهو مصدر لفعلين:

أحدهما: من التصديق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف:١٧]، أي: بمصدق لنا.

والآخر: من الأمان الذي هو ضد الإخافة. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفٍۭ﴾[قريش:٤].

فعلى الأول يكون معنى اسمه (المؤمن): المصدِّق، فهو يصدق أنبياءه بالمعجزات الدالة على صدقهم.

وعلى الثاني يكون معنى اسمه (المؤمن): واهب الأمن، وباعث الطمأنينة في قلوب المؤمنين، فلا خوف لمن يلجأ إليه، ويلوذ بحماه، ولا أمن إلا في كنفه جل في علاه.

معنى اسمه (المهيمن):

المعنى الأول: المهيمن معناه: الشاهد كقوله: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾[المائدة:٤٨] أي: شاهدًا عليه فهو ـ تعالى ـ شاهد على خلقه بما يصدر منهم من أقوال أو أفعال، وعالم بهم لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

المعنى الثاني: المهيمن: الرقيب الحافظ وهو اسم لمن كان موصوفًا بمجموع صفات ثلاث:

أحدها: العلم بأحوال الشيء.

والثاني: القدرة التامة على تحصيل مصالح ذلك الشيء.

والثالث: المواظبة على تحصيل تلك المصالح.

فالجامع لهذه الصفات اسمه (المهيمن)، ولن تجتمع على الكمال إلا لله.

معنى اسمه (العزيز):

كما ذكر الله بأن من أسمائه (العزيز) أثبت لنفسه صفة (العزة) فقال:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾[المنافقون:٨]، وقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الصافات:١٨٠].

وفي اشتقاق اسمه (العزيز) عدة احتمالات:

الأول: أن يكون بمعنى أنه لا مثل له ولا نظير، من عزَّ الشيء يعِزُّ ـ بكسر العين ـ يقال: عزَّ الطعام في البلد: إذا تعذر وجوده، فإذا سُمِّيَ الشيء الذي يعسر وجود مثله بالعزيز ـ فبأن يسمى الذي يمتنع عقلًا أن يكون له نظير بالعزيز أولى.

قال الإمام الغزالي: «العزيز: هو الذي يقلُّ وجود مثله، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه. فما لم تجتمع هذه المعاني الثلاثة فيه لم يطلق عليه اسم العزيز، فكم من شيء يقل وجوده، ولكن لا يحتاج إليه، فلا يسمى عزيزًا، وقد يكون بحيث لا مثل له، والانتفاع به عظيم جدًّا، ولكن يسهل الوصول إليه، فلا يسمى عزيزًا كالشمس، فإنه لا مثل لها، والانتفاع بها عظيم جدًّا، ولكنها لا توصف بالعزة، فإنه لا يصعب الوصول إليها، فأما إذا اجتمعت المعاني الثلاثة في شيء فهو عزيز»[1].

وهذه المعاني الثلاثة لا تتحقق بكمالها إلا في الله، فهو العزيز المطلق.

الثاني: أن يكون بمعنى: (الغالب) الذي لا يغلب. من عزَّ يعُزُّ ـ بضم العين ـ أي: غلب يغلب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾[سورة ص:٢٣]، أي: غلبني، فإذا قيل لمن غلب مع جواز أن يصير مغلوبًا ـ إنه عزيز، فالغالب الذي يمتنع أن يصير مغلوبًا، والقاهر الذي يستحيل أن يصير مقهورًا؛ أولى أن يسمى بالعزيز.

(١) المقصد الأسنى صـ٦٩، وشرح أسماء الله الحسنى للرازي صـ٢٠٤، والمثبت صياغة الرازي لفكرة الغزالي.

الثالث: أن يكون بمعنى: (الشديد القوي) يقال: عز يَعَزُّ - بفتح العين -: إذا اشتد وقوي، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾[يس:١٤].

الرابع: أن يكون بمعنى المُعِز، فهو يعز من يشاء من عباده، وعلى الاحتمال الأول يكون من صفات التنزيه، وعلى الثاني والثالث يكون من صفات الذات، وعلى الرابع يكون من صفات الفعل.

معنى اسمه (الجبار):

١- يقول العرب: ناقة جبارة: إذا عظمت وسمنت، فمعنى اسمه (الجبار): العظيم، فيكون من صفات الذات.

٢- ويقولون: نخلة جبارة: إذا طالت وعلت، وقصرت الأيدي عن أن تنال أعلاها، فيكون معنى (الجبار) العالي الذي لا تناله الأفكار، ولا تحيط به الأبصار، وعلى هذا يكون من صفات التنزيه.

٣- ويقولون: جبر السلطان فلانًا على الأمر، أي: أكرهه عليه، والحق هو الذي أجبر الخلق على ما أراد، لا يجري في ملكه إلا ما يشاء، وعلى هذا يكون من صفات الأفعال.

٤- ويقولون: جبرت الكسر إذا أصلحته، ويقولون: يا جابر كل كسير، فمعنى (الجبار) المصلح للأمور، فهو من صفات الأفعال أيضًا.

معنى اسمه (المتكبر):

١- المتكبر هو الذي يرى الكل حقيرًا بالإضافة إلى ذاته، فلا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه، وينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد؛ فإن كان صادقًا

كان التكبر صفة مدح، ولا يتصور ذلك على الإطلاق إلا في حق الله تعالى، وإن كان كاذبًا كان التكبر مذمومًا، وهذا في حق المخلوق.

وفي الحديث القدسي: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ**»[1].

فالتكبر في حقه صفة مدح وكمال، وفي حق غيره صفه ذم واختلال.

٢- وقالوا: المتكبر مأخوذ من الكبرياء، والكبرياء في اللغة المُلك ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[يونس:٧٨] يعني الملك، فعلى هذا المتكبر هو: الملك الذي لا يزول سلطانه.

٣- وقالوا: المتكبر بمعنى الكبير العظيم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف:٣١]، أي: أعظمنه، والحق الكبير الذي ليس لكبريائه نهاية، والعظيم الذي ليس لعظمته غاية.

معنى اسمه (الخالق)

للخلق في اللغة معنيان:

المعنى الأول: التقدير، وهو تكوين الشيء على مقدار معين ولا بد فيه من أمور:

١- قدرة مؤثرة في وجوده.

٢- وإرادة مخصصة لمقداره دون زيادة أو نقص.

٣- وعلم بذلك القدر الخاص؛ لأن إرادة الشيء تستلزم العلم به.

---

(١) رواه أبو داود في سننه، ب ما جاء في الكبر (٤/ ٣٥٠/ ح:٤٠٩٠).

ومن الآيات القرآنية التي جاء فيها الخلق بمعنى التقدير:

١- ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون:١٤]، أي: المقدرين؛ لأنه لا موجد إلا الله.

٢- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٥٩]، فالمراد من قوله: (كن فيكون): الإيجاد والإبداع، وقوله: (خلقه من تراب) مقدم عليه، والشيء المتقدم على الإيجاد ليس إلا التقدير، فمعنى (خلقه من تراب) أي: قدَّره.

٣- قوله لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي﴾ [المائدة:١١٠] أي: تقدر.

المعنى الثاني: الإيجاد من العدم:

ومن الآيات القرآنية التي جاء فيها الخلق بهذا المعنى:

١- ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾[الفرقان:٢] ولو كان الخلق هنا بمعنى التقدير لكان معنى الآية: وقدر كل شيء فقدره تقديرًا، وهذا تكرار لا فائدة فيه، إنما معنى خلق: أوجد وأبدع.

٢- ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[فاطر:٣]، ولا يمكن تفسير الخالق هنا بمعنى المقدر؛ لأن المقدرين كثير، فوجب أن يكون معنى الخالق هو: الموجد والمبدع.

٣- ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[لقمان:١١] أي: هذا إيجاده وإبداعه وصنعه، فهل أوجد غيره شيئًا؟

وعلى كلا المعنيين هو من صفات الأفعال.

معنى (البارىء المصور):

البرأ: القطع والفصل، يقال: برأت العود وبروته: إذا قطعته ونحته، وبريت القلم: إذا قطعته وأصلحته.

فهو سبحانه (الخالق) بمعنى أنه موجد للذوات والأعيان، و(بارئ) بمعنى أنه فصل بعض الأشخاص عن بعض، و(مصور) بمعنى أنه هو الذي يصور كل واحد من الأشخاص بصورته الخاصة التي يتميز بها، وبهذا يظهر الفرق بين الأسماء الثلاثة.

والمصور إما ان يكون مشتقًّا من :

١- صار يصور صَوْرًا كقال يقول قولًا: أو من: صار يصير صيرًا كباع يبيع بيعًا؛ بمعنى أمال كما في قوله تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾[البقرة:٢٦٠] أي: أملهن، فمعنى أن الله مصور، أي: خالق للأشياء على الشكل المائل إلى المصلحة والمنفعة التي من أجلها خلقت.

٢- أو صار يصير صيرًا بمعنى: فصل الشيء وخططه وشكله، وجعل له صورة مميزة فالحق يصور المخلوق بالصورة والشكل والهيئة التي يُعْرَف بها، ويتميز بها عن غيره، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٦]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[الإنفطار:٦-٨].

معنى اسمه (الحكيم):

١- الحكيم:العالم المتقن للأمور، وإحكام الله للأشياء: إتقان الله تدبيرها،

وحسن تقديرها، ولو كانت بقة أو نملة ففيها من الإتقان والدلالة على قدرة الخالق وعلمه ما لا يقل عما في خلق السماوات والأرض والجبال والبحار.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة:٧] ليس المراد الحسن الرائق في المنظر، فإن ذلك مفقود في القرد والخنزير، إنما المراد حسن التدبير في وضع كل شيء موضعه بحسب المصلحة.

٢- الحكيم: المانع من الفساد، ومنه سميت حكمة اللجام؛ لأنها تمنع الفرس من الجري والذهاب في غير قصد، والحكمة من هذا المعنى؛ لأنها تمنع صاحبها من الجهل والسفه.

* * *

الفهرس

الموضوع — الصفحة

الفصل السابع
صفات الله تعالى

الأزهر الشريف

AL AZHAR AL SHARIF

Azhar.press@yahoo.com

الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية

إن مجمع البحوث الإسلامية هو أحد الهيئات العلمية للأزهر الشريف يقوم على تحقيق كل ما يخدم المصلحة العامة للمسلمين، ويجمع كلمتهم، ويعمل على تحقيق الأمن والاستقرار، والتعايش السلمي، كما يعمل المجمع على تحقيق رسالة الأزهر في توعية الناس وتبصيرهم بحقائق هذا الدين، وتصحيح المفاهيم المغلوطة، وبيان سماحة ووسطية الإسلام، وأهمية فهم النصوص الشرعية مع فهم الواقع.

ومن هنا تأتي رؤية المجمع في اعتنائه بقضايا المجتمع الإسلامي؛ لجمع الكلمة بين المسلمين، وتحقيق التعايش السلمي بين الناس، وتجديد الثقافة الإسلامية وتجليتها في جوهرها الأصيل، وبحث القضايا المعاصرة، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

مطابع الأزهر
AL-AZHAR PRESSES

الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
سلسلة البحوث الإسلامية
(٥٤/١٩)

عقيدتنا



تأليف الأستاذ الدكتور
محمد ربيع محمد جوهري
أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين بالقاهرة وعميدها السابق
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

الجزء الثاني

الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
سلسلة البحوث الإسلامية
(٥٤/١٩)

عقيدتنا

تأليف الأستاذ الدكتور
محمد ربيع محمد جوهري
أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين بالقاهرة وعميدها السابق
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

الجزء الثاني

السنة الرابعة والخمسون - الكتاب التاسع عشر
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

جمهورية مصر العربية
الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
شارع الطيران ـ مدينة نصر
القاهــرة

فهرست الهيئة المصريَّة العامَّة
لدار الكُتُب والوثائق القوميَّة

جوهري، محمد ربيع محمد
عقيدتنا جـ٢

ص ٥, ١٧×٢٥ سم
عدد الصفحات: ٢٠٠

١ـ الإيمان بالملائكة
٢ـ الإيمان بالجن
٣ـ الإيمان بالكتب السماوية
٤ـ الإيمان بالرسل
٥ـ الأوليـــاء
٦ـ أشراط الساعة
٧ـ اليـــوم الآخـــر
٨ـ الإيمان بالقضاء والقدر

❁ الإدارة العامة للمطبوعات
رقم الإيداع: ٢٠٢٢/٢٥٥٨٤
الترقيم الدولي: ٤ – ٥٣٦ – ٢٠٥ – ٩٧٧ – ٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد ربي، وأصلي على خاتم رسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هديه إلى يوم الدين، وبعد...

فهذا هو الجزء الثاني من (عقيدتنا)

وكان الجزء الأول قد شمل الكلام على: وجود الله تعالى، وأسمائه الحسنى، وصفاته العليا.

وهذا الجزء يشمل بقية موضوعات الإيمان، بعد أن غيرت فيه صياغة بعض الموضوعات إلى ما يتناسب مع ظروف من أُعدَّت لهم هذه الطبعة من القراء، وبعد أن أضفت أمورًا لم تكن موجودة في الطبعات السابقة.

واسأل الله لي ولإخواني المسلمين توبة نصوحًا، ومغفرة وفضلًا. وأن يُعلمنا، وينفعنا بما علمنا، هو حسبنا، ونعم الوكيل.

هذا وبالله التوفيق.

أ. د/ محمد ربيع محمد جوهري

الفصل الأول

الإيمان بالملائكة

حكم الإيمان بالملائكة:

الإيمان بوجود الملائكة واجب على كل مسلم؛ لأنه ركن من أركان الإيمان الستة التي ذكرها رسول الله ﷺ في جوابه لجبريل عندما سأله عن الإيمان، ومن أنكر وجودهم يكون كافرًا، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء:١٣٦].

خلقهم وصفتهم:

خلق الله هذا العالم الغَيبي من نور، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**»[1].

وكان ذلك قبل خلق آدم بدليل أن الله أخبرهم بأنه سيخلقه، وطلب منهم السجود له بعد خلقه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾

[الحجر:٢٨، ٢٩].

(١) رواه مسلم في الزهد (٤/ ٢٢٩٤).

ومسكن أغلبهم السماء، وبعضهم يسكن في الأرض.

وأخبر الله أن لهم أجنحةً، فقال:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

[فاطر:١].

ووصف ملائكة النار بأنهم غلاظ شداد:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:٦].

وأخبر أن جبريل ذو مِرَّة. وهي القوة، وحسن المنظر:

قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾[النجم:٥، ٦].

وقال عنه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[التكوير:١٩-٢١].

وليس فيهم شهوة، فلا يوصفون بالذكورة أو الأنوثة، مَنْ وصفهم بذكورة فسق؛ لأنه ادعى ما لا دليل عليه في أمر غيبي، ومن وصفهم بأنوثة كفر؛ لمعارضة قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾[الزخرف[١٩].

ولــذلك فهــم لا يتنــاكحون، ولا يتوالــدون، ولا ينــامون، ولا يــأكلون،

ولا يشربون، فإن خليل الله إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما زارته الملائكة، وقدَّم لهم العجل السمين لم يأكلوا:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[هود:٦٩، ٧٠].

فالملائكة أجسام لطيفة نورانية، يمكن أن تظهر في أشكال حسنة، ولا تحكمها الصورة؛ ولذلك لما جاء جبريل إلى مريم تمثَّل لها بشرًا سويًّا قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[مريم:١٧].

وكان يظهر أحيانًا في صورة الصحابي الجليل (دحية الكلبي) رَضِوَاللَّهُعَنْهُ[(١)].

وقد رآه رسول الله ﷺ على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها عند بدء الوحي، ومرة عندما فتر عنه، فقد روى مسلم عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ وهو يحدِّث عن فترة الوحي: «**فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**»[(٢)].

ورآه مرة أخرى ليلة الإسراء والمعراج.

وثبت أن الديكة ترى الملائكة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَانًا**»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن بـ كيف نزل الوحي – الفتح (٨/ ٦١٩).

(٢) رواه مسلم في ك الإيمان (١/ ٤٣).

(٣) رواه البخاري في بدء الخلق – الفتح (٦/ ٤٠٣).

والملائكة مفطورون على عبادة الله تعالى: وطاعته لا يملُّون، ولا يسأمون:

يقول تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء:٢٠].

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾[فصلت:٣٨].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾

[الشورى:٥].

وهم يتأذون مما يتأذى منه بنو آدم من الروائح الكريهة.

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْلِ الْبَصَلِ وَالْكُرَّاثِ، فَغَلَبَتْنَا الْحَاجَةُ فَأَكَلْنَا مِنْهَا فَقَالَ: «**مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْمُنْتِنَةِ، فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ الإِنْسُ**»(١).

وهم يموتون، حتى ملك الموت نفسه يموت:

- قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[القصص:٨٨].

- وقال: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[الزمر:٦٨].

عددهم وأشهرهم:

لا يعلم عدد الملائكة إلا الله تعالى:

قال سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر:٣١].

---

(١) رواه مسلم في المساجد (١/ ٣٩٤).

فهم من الكثرة بحيث لا يمكن أن نتصور عددهم، ويشير إلى ذلك ما ورد من أن لكل إنسان من الملائكة الحفظة عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، فكم تعداد سكان العالم اليوم؟ وكم يكون عدد هذا النوع من الملائكة؟

وما ورد من أنه ينزل في كل يوم من السماء سبعون ألف ملك يحُفُّون بقبر سيدنا محمد ﷺ فإذا ما عرجوا نزل غيرهم مثلهم[1]، فكم عدد هذا الصنف إلى يوم القيامة؟

وما جاء في حديث الإسراء والمعراج عن رسول الله ﷺ قال: «**فَرُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ**»[2].

ومن الملائكة الذين ورد ذكرهم بالاسم في القرآن الكريم (جبريل) الروح الأمين الموكل بالوحي، و(ميكائيل) الموكل بالأمطار والأرزاق. قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٩٨].

و(مالك) خازن النار، قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[الزخرف:٧٧].

وأما (عزرائيل) فلم يذكر باسمه في القرآن الكريم، وإنما يعبر عنه بـ(ملك الموت) ولم أجد حديثًا نبويًّا ينص على اسمه.

وممن ورد في السنة المطهرة: (إسرافيل) الموكل بالنفخ في الصور يوم

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٣/ ٤٩٢).

(٢) رواه البخاري في بدء الخلق - الفتح (٦/ ٣٤٩).

القيامة. فقد كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ جبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»(١).

أصناف الملائكة:

١) الموكلون بالأرحام:

قال ﷺ: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا، وَجِلْدَهَا، وَلَحْمَهَا، وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ؟ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ، بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ، وَلَا يَنْقُصُ»(٢).

٢) الحفظة:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾

[الأنعام: ٦١].

وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[الرعد:١١]. أي: يحفظونه حفظًا هو من أمر الله، أو يحفظونه بأمر الله. و«مِن» بمعنى الباء، وقد ورد أن لكل فرد عشرة بالليل، ومثلهم بالنهار، يحفظونه من المضار، ولا يفارقونه، ولو كان في بيت فيه كلب، أو جرس، أو صورة.

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (١/ ٥٣٤).

(٢) رواه مسلم في القدر (٤/ ٢٠٣٧).

٣) الكتبة:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[سورة ق:١٦-١٨].

و(رقيب) أي: حافظ (وعتيد) أي: حاضر. فهما وصفان لكل من الملكين، وليس (رقيب) اسمًا لأحدهما، و(عتيد) اسمًا للآخر كما يُظن.

والكتبة يُسَجلون كل ما يصدر عن العبد من قول، أو فعل، أو اعتقاد أو هَمّ كما في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ اللهُ ﷻ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا سَيِّئَةً، وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا**»[1].

ويفارقون العبد في حالات ثلاثة: عند الغائط، وعند الاغتسال، وعند الجماع، ويجعل الله لهم علامة على ما يصدر من العبد في هذه الحالات فيكتبونه.

وأحدهما مختص بكتابة الحسنات، والآخر مختص بكتابة السيئات، والأول أمير على الثاني؛ فإن فعل العبد حسنة بادر ملك الحسنات بتسجيلها، وإذا فعل سيئة قال كاتب السيئات لكاتب الحسنات: أأكتب؟ فيقول له: لا لعله يتوب. فإذا لم يتب العبد قال له: اكتب أراحنا الله منه.

ولعل الحكمة من هذه الكتابة أن العبد إذا علم أن كل ما يصدر عنه سيكتب، ويعرض على الملأ يوم القيامة، ربما يستحي من الإقدام على المعصية، أو بادر بالاستغفار والتوبة عنها قبل الفضيحة يوم القيامة.

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ١١٧).

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف:٤٩].

ويرى بعض العلماء أن الحفظة والكتبة صنف واحد من الملائكة مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الإنفطار:١٠-١٢] فهذه صفات لنوع واحد من الملائكة.

ومن يرى أنهما صنفان قال: إن (كاتبين) معطوف بغير حرف عطف، فتقدير الآية: وإن عليكم لحافظين كرامًا، وكاتبين يعلمون ما تفعلون، فكل صنف له صفاته.

وليس الملائكة الكتبة محصورين في الملكين الملازمين لكل منا، بل هناك من يكتب أفعال العباد غيرهما.

عَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ قَالَ: كُنَّا يَوْمًا نُصَلِّي وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». قَالَ رَجُلٌ وَرَاءَهُ: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «مَنِ الْمُتَكَلِّمُ؟». قَالَ: أَنَا، قَالَ: «رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا، أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ»[١].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ الْمَلَائِكَةُ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ طَوَوُا الصُّحُفَ وَجَاؤُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ»[٢].

---

(١) رواه البخاري في الأذان – الفتح (٢/ ٣٣٢).
(٢) رواه البخاري في بدء الخلق – الفتح (٦/ ٣٥١).

فهذان الحديثان يذكران بعض (الكتبة) غير الملكين الملازمين لكل منا.

٤- تبليغ الوحي:

- قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣، ١٩٤].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ﴾[البقرة:٩٧]، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجِبْرِيلَ: «أَلَا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟» قَالَ: فَنَزَلَتْ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾[مريم:٦٤][1].

وَعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلًا، فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ»**.

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا[2].

٥- حث المسلم على الخير:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»**[3].

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٣٥٢).

(٢) رواه البخاري في بدء الوحي - الفتح (٢/ ٢٥).

(٣) رواه مسلم في الزكاة (٢/ ٧٠٠).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ». قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ، فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ، فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ، فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[البقرة:٢٦٨](٢).

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا آوَى الرَّجُلُ إِلَى فِرَاشِهِ ابْتَدَرَهُ مَلَكٌ وَشَيْطَانٌ، فَيَقُولُ الْمَلَكُ: اخْتِمْ بِخَيْرٍ، وَيَقُولُ الشَّيْطَانُ: اخْتِمْ بِشَرٍّ، فَإِنْ ذَكَرَ اللهَ ثُمَّ نَامَ، بَاتَ الْمَلَكُ يَكْلَؤُهُ، وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ الْمَلَكُ: افْتَحْ بِخَيْرٍ، وَقَالَ الشَّيْطَانُ: افْتَحْ بَشَرٍّ، فَإِنْ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ عَلَيَّ نَفْسِي وَلَمْ يُمِتْهَا فِي مَنَامِهَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِنْ وَقَعَ عَنْ سَرِيرِهِ فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ»(٣).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ الْقَضَاءَ وُكِلَ إِلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ جُبِرَ عَلَيْهِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَسَدَّدَهُ»(٤).

---

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٤/ ٢١٦٧).
(٢) رواه الترمذي في تفسير سورة البقرة – التحفة (٨/ ٢٦٦) واللمة ما يقع في القلب. فما كان من الملك سُمّي إلهامًا، وما كان من الشيطان سمي وسوسة.
(٣) جامع الأحاديث (٣/ ٤٠٥)، ومجمع الزوائد (١٠/ ١٢٠).
(٤) رواه ابن ماجة في الأحكام (٢/ ٧٧٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يَزَالُ الْعَبْدُ فِي صَلاةٍ مَا كَانَ فِي مُصَلَّاهُ يَنْتَظِرُ الصَّلاةَ، وَتَقُولُ الْمَلائِكَةُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ حَتَّى يَنْصَرِفَ أَوْ يُحْدِثَ**»[1].

وعن عامر بن ربيعة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً لَمْ تَزَلِ الْمَلائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا صَلَّى عَلَيَّ فَلْيُقِلَّ عَبْدٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ**»[2].

٦- نصر المؤمنين في معاركهم:

- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[آل عمران:١٢٣-١٢٥].

- وقال ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال:٩].

- وقال ﷻ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[الأنفال:١٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «**هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ، عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ**»[3].

---

(١) رواه مسلم في المساجد (١/ ٤٥٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٤٤٥).

(٣) رواه البخاري في المغازي – الفتح (٧/ ٣٦٣).

وجاء جبريل إلى النبي ﷺ وقال: «مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قَالَ: مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ ـ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا ـ قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم فنظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِم أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فاخضرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدَّث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»(٢).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: رَأَيْتُ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَنْ شِمَالِهِ يَوْمَ أُحُدٍ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابُ بَيَاضٍ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ، يَعْنِي جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عليهما السلام(٣).

وفي هذا الحديث بيان كرامة النبي ﷺ على الله تعالى، وإكرامه إياه بإنزال الملائكة تقاتل معه، وبيان أن الملائكة تقاتل، وأن قتالهم لم يختص بيوم بدر، وأن رؤية الملائكة لا تختص بالأنبياء، بل يراهم الصحابة والأولياء، وفيه منقبة عظيمة لسعد بن أبي وقاص الذي رأى الملائكة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما رجع النبي ﷺ من الخندق، ووضع السلاح، واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام فقال: وَضَعْتَ السِّلَاحَ؟ وَاللهِ مَا وَضَعْنَاهُ، فَاخْرُجْ إِلَيْهِمْ. قَالَ: «فَإِلَى أَيْنَ؟» قَالَ: هَاهُنَا، وَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ(٤).

---

(١) المرجع السابق – (٧/ ٣٦٢).

(٢) رواه الإمام مسلم في الجهاد والسير (٣/ ١٣٨٤) وحيزوم: اسم فرس الملك، أي: تقدم ياحيزوم، وخطم أنفه أي: ظهر أثر الضربة عليها.

(٣) رواه مسلم في الفضائل (٤/ ١٨٠٢).

(٤) رواه البخاري في المغازي – الفتح (٧/ ٤٧٠)، ومسلم في الجهاد (٣/ ١٣٨٩).

٧- ملائكة الرحمة يدعون ويستغفرون للمؤمنين:

- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ [غافر:٧-٩].

- وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾[الأحزاب:٤٣].

وَعَنْ عَلِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَتَى أَخَاهُ الْمُسْلِمَ عَائِدًا، مَشَى فِي خِرَافَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسَ، فَإِذَا جَلَسَ غَمَرَتْهُ الرَّحْمَةُ، فَإِنْ كَانَ غُدْوَةً صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ كَانَ مَسَاءً صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ»(١).

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ دَعْوَةَ الْمَرْءِ مُسْتَجَابَةٌ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ يُؤَمِّنُ عَلَى دُعَائِهِ، كُلَّمَا دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ قَالَ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ»(٢).

وملائكة الرحمة لا يدخلون بيتًا فيه كلب، أو تمثال.

عن أبي طلحة عن النبي ﷺ قال: «لا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلا صُورَةٌ»(٣).

(١) رواه ابن ماجة في سننه في الجنائز (١/ ٤٦٣) وخرافة بفتح الخاء وكسرها أي في اجتناء ثمرها.
(٢) رواه ابن ماجة في المناسك (٢/ ٩٦٦).
(٣) رواه مسلم في اللباس والزينة (٣/ ١٦٦٥).

وفي رواية: «فِيهِ تَمَاثِيلُ أَوْ تَصَاوِيرُ».

وفي رواية: «لا تَصْحَبُ الْمَلائِكَةُ رُفْقَةً فِيهَا كَلْبٌ، وَلا جَرَسٌ»[1].

٨- قبض الأرواح:

- قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[السجدة:١١].

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[الأنعام:٦١].

- ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[الأنفال:٥٠].

- ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾[النازعات:١، ٢].

والمراد بالنازعات الملائكة التي تقبض أرواح الكفار بشدة وألم، والمراد بالناشطات الملائكة التي تقبض أرواح المؤمنين برفق ولين.

٩- خزنة جهنم:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:٦].

وعددهم تسعة عشر، وقد جعل الله هذا العدد فتنة واختبار، قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

(١) الروايتان في اللباس والزينة (٣/ ١٦٧٢).

ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[المدثر:٣٠، ٣١].

وهؤلاء هم الزبانية الذين هدد الله بهم الكفار في قوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[العلق:١٧، ١٨].

وعلى رأسهم (مالك) الذي يناديه الكفار وهم في النار ملتمسين الموت: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾[الزخرف:٧٧، ٧٨].

وهناك أصناف أخرى من الملائكة ورد ذكرهم في الكتاب والسنة.

الوحــــي

الوحي في اللغة:

يكون بمعنى **الإلهام**: كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[النحل:٦٨].

وكما في قوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[القصص: ٧]، وقوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾[طه:٣٨].

ويكون بمعنى **الإشارة**: كما في قوله تعالى عن زكريا: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[مريم:١١].

ويكون بمعنى **الأمر**: كما في قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[المائدة:١١١]، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[الزلزلة:٤، ٥].

ويكون بمعنى **التكوين والتدبير**: كما في قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾[فصلت:١٢].

ويكون بمعنى **الوسوسة**؛ لأنها تكون خفية كما في قوله:

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾[الأنعام:١٢١]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[الأنعام:١١٢].

والوحي في الشرع: إخبار الله أنبياءه بما يشاء.

وله طرق أشار إليها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾[الشورى:٥١].

الطريقة الأولى: الإلهام وهو النفث في الروع، أي القلب يقظةً أو منامًا قال ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي: أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل، ودعوا ما حرم**»(١).

ومنه الرؤيا الصادقة كرؤيا الخليل إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات:١٠٢].

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ».

الطريقة الثانية: المكالمة من وراء حجاب: كما كلم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكما فرض الله الصلاة على سيدنا محمد وأمته ليلة المعراج صلوات الله وسلامه عليه.

الطريقة الثالثة: أن يرسل رسولًا هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فيوحي بإذنه ما يشاء، وهو ملك كريم، ذو قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين.

وملك الوحي يهبط في صور مختلفة:

١) يظهر في صورته الحقيقية الملكية:

كما رآه الرسول ﷺ في غار حراء عند نزول: (اقرأ) وكما رآه في ليلة الإسراء: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾[النجم:١٣، ١٤].

---

(١) السراج المنير شرح الجامع الصغير (١/ ٤٦١) وهو حديثٌ حسن.

عن عائشة مرفوعًا: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ» رواه مسلم.

٢) يظهر في صورة إنسان يراه الحاضرون ويستمعون إليه:

كما ظهر في صورة أعرابي، وفي صورة الصحابي (دحية الكلبي) رضي الله عنه.

٣) يهبط خفية فلا يُرى:

ولكن يظهر أثر التغير والانفعال على النبي، فيغط غطيط النائم، ويغيب غيبة كأنها غشية أو إغماء، وليست كذلك، بل هي استغراق في لقاء الملك الروحاني، فيتصبب جبينه عرقًا في اليوم الشديد البرد، ويكون وقعه عليه كوقع الجرس إذا صلصل في أذان سامعه، ومثل دويّ النحل كما وصفه عمر رضي الله عنه، وذلك أشد أنواعه.

والحكمة في تقدم هذا الصوت العظيم أن يقرع سمعه الوحي، فلا يبقى فيه مكان لغيره قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزمل:٥].

وفي البخاري عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلًا، فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**».

قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا[١].

يفصم: يقلع وأصله القطع، قال تعالى: ﴿لَا انفِصَامَ لَهَا﴾

[البقرة:٢٥٦].

---

(١) رواه البخاري في بدء الوحي ـ الفتح (٢/ ٢٥).

الفصل الثاني
الإيمان بالجن

الجن والشياطين في اللغة:

جنَّ: ستر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾[الأنعام:٧٦].

والجانُّ: الجن، قال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٦].

والجانُّ: نوع من الحيَّات أكحل العينين، يميل إلى الصفرة، لا يؤذي قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾[النمل:١٠].

ويُجْمَع على (جِنان) وفي الحديث: «**إن فيها جنانًا كثيرًا**».

والجَنَان: القلب، وفي المثل: «**إذا فرِح الجَنان بكت العينان**».

والجِنّ: خلاف الإنس مفرده جِنِّيٌّ وجِنيَّة.

والجِنَّة: الجن، قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[الناس:٦].

والجُنَّة: السُّترة. قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾[المجادلة:١٦]، وفي الحديث: «**الصوم جنة**».

والجنة: كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[الكهف:٣٩].

والجَنين: الولد مادام في بطن أمه، وجمعه: أجِنَّة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾[النجم [٣٢].

والجنُّ يقال على وجهين:

أحدهما: بالمعنى العام المقابل للإنس، فيشمل كل المسترين عن الحواس من: جن، وملائكة، وشياطين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام:١٠٠]، والمقصود الذين قالوا: الملائكة بنات الله.

والآخر: بالمعنى الخاص، فلا يشمل إلا الجن فقط؛ لأن الروحانيين المستترين عن الحواس ثلاثة: أخيار وهم الملائكة، وأشرار وهم الشياطين، وأوساط فيهم أخيار وأشرار، وهم الجن.

والشيطان مشتق من: شطن بمعنى: بَعُدَ؛ لبُعده عن الخير، أو من شاط يشيط بمعنى احترق غضبًا؛ لأنه مخلوق من النار.

وكل عاتٍ متمردٍ من الجنِّ، والإنس، والدواب يقال له: شيطان.

وقيل: إن خبث الجنيُّ فهو شيطان، وإن زاد خبثه فهو مارد، فإن زاد على ذلك وقوي فهو عفريت، والجمع عفاريت.

وإبليس مشتق من الإبلاس، وهو الحزن الشديد من اليأس؛ ليأسه من دخوله الجنة(١).

الجن والشياطين في القرآن الكريم:

ورد ذكر (الجِنِّ) في القرآن الكريم ٢٢ مرة، و(الجانّ) ٧ مرات، و(الجِنَّة) ١٠ مرات.

وجاء ذكر (الشيطان) بالإفراد (٧٠) مرة، و(الشياطين) بالجمع (١٧) مرة. وورد ذكر (إبليس) في (١١) موضعًا.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، والوسيط، ومفردات الراغب في مواد: (ج ن ن) و(ش ط ن) و(ب ل س).

وكلها تدور حول المعاني التي سبق ذكرها.

خلق الجن وصفتهم:

خلق الله الجن من النار، كما ورد في الحديث السابق: «وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ»[1].

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[الرحمن:١٥]، **والمارج:** النار التي لا دخان لها.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[الحجر:٢٦، ٢٧]، فهي نار لا دخان لها، تنفذ في المسام، وفي الآية دليل على تقدم خلق الجانِّ على الإنسان.

وخلق إبليس من النار أيضًا؛ لأنه من الجن، كما قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[الكهف:٥٠].

وقال على لسانه: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[سورة ص:٧٦].

ولم يبق الجن على طبيعتهم النارية، كما لم يبق الإنس على طبيعتهم الترابية، إنما صار الجنُّ أجسامًا لها طبيعة خاصة، وقدرة على التشكل، بأشكال مختلفة، فالجنيُّ له القدرة على الظهور في صور متنوعة من إنسان، أو حيوان، أو نبات، صغُر الشكل أو كبر، وتحكمه الصورة التي يبدو فيها، بمعنى أنه لو ظهر في صورة إنسي، فقوته قوة رجل من الإنس، وإن ظهر في صورة كلب كانت قوته قوة كلب، وإن ظهر في صورة حيَّة كانت طبيعة الحيَّة تحكمه...وهكذا.

(١) رواه مسلم في الزهد (٤/ ٢٢٩٤).

ولكن الشيطان لا يستطيع أن يظهر في صورة رسول الله ﷺ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَمَثَّلُ بِي»[1].

والدليل على أن الجني لم يبق على طبيعته النارية أن الرسول ﷺ أمسكه بيده، وأراد أن يربطه في أحد أعمدة المسجد؛ حتى يراه المسلمون، ويلعب به صبيانهم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلاتِي فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ فَأَخَذْتُهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا»[2].

وفي رواية: «وَاللهِ لَوْلا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ»[3]، وفي رواية: «حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ لِسَانِهِ عَلَى يَدِي».

وكذلك ظهر الجني في صورة رجل سارق، وأخذه أبو هريرة، وأمسكه، ثم تركه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ».

(١) رواه مسلم في الرؤيا (٤/ ١٧٧٥).

(٢) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء – الفتح (٦/ ٥٢٧).

(٣) رواه مسلم في المساجد (١/ ٣٨٥).

قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ**».

فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ؛ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟**».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ**».

فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ؛ أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ.

قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا.

قُلْتُ: مَا هُوَ؟

قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[البقرة:٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ؛ فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟**».

قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ.

قَالَ: «**مَا هِيَ؟**» قُلْتُ قَالَ لِي إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ -وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ»(١).

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧]، المقصود من حيث لا ترونهم على صورتهم الحقيقية، أما لو تمثَّلوا في صور معينة فيمكن رؤيتهم، كما في هذين الحديثين.

والجن يأكلون ويشربون:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لا مَبِيتَ لَكُمْ وَلا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ»(٢).

وعن عبد الله بن عمر أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ»(٣).

والجن يتزوجون. ويتناسلون:

فعندما تحدث القرآن الكريم عن نعيم الجنة قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى

(١) رواه البخاري في الوكالة. الفتح (٤/ ٥٦٨)، يحثو: يقال: حثا يحثو، وحتى يحثي: أخذ ملء يديه. لأرفعنك: أذهب بك أشكوك. وعليَّ عيال: علي نفقة عيال. ولي حاجة: وفي نسخة: (وبي حاجة) رصدته: رقبته وانتظرته. وكانوا: أي الصحابة. وفي الحديث دليل على أن الجنَّ يأكلون من طعام الإنس، ويتكلمون بكلامهم، ويسرقون منهم، ويكذبون عليهم، وفيه دليل على اطلاع النبي على المغيبات.

(٢) رواه الإمام مسلم في الأشربة (٣/ ١٥٩٨) وقوله: (قال الشيطان) أي: لإخوانه الشياطين.

(٣) رواه الإمام مسلم في الموضع السابق.

﴿ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٧٢-٧٤].

وعندما ذكر النفر الذين استمعوا للقرآن قال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦]، ووجود الرجال يستلزم وجود الإناث، ويستلزم التناسل، وعندما حذّرنا من إبليس قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[الكهف:٥٠].

والجن مكلفون بعبادة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦].

وقد أرسل الله إليهم الرسل، وختمهم بسيدنا محمد ﷺ. فهو رسول للإنس والجن، وقد تحدى بمعجزته الكبرى الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء:٨٨].

وذلك بعد أن استمعوا له، وعلموا أنه كتاب أنزل بعد توراة موسى قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأحقاف:٢٩، ٣٠].

وقد اجتمع بهم رسول الله ﷺ، وإن كان لم يرَهم في اللقاء الأول، ولم يعلم بوجودهم حتى أخبره الله، وقد التقى بهم في أكثر من مكان؛ ليعلمهم شرع الله.

وكان من عادة شياطين الجن أن يصعدوا إلى السماء ليستمعوا إلى

الملائكة تتكلم ببعض ما يُوكل إليهم من أمور، ثم ينزل الشياطين إلى الكهان، فيخبرونهم بما سمعوا؛ بعد أن يضيفوا إليه أخبارًا كاذبة؛ ليضلوا أتباع الكهان، وعبدة الأصنام.

وشاء الله أن ينتهي هذا الوضع مع بعثته ﷺ، وتأمل ما جاء في الحديث التالي بهذا الخصوص: «عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنِّ وما رآهم. انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ: وقد حِيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسِلت عليهم الشُّهبُ، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟

قالوا: حِيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرسِلت علينا الشُّهبُ.

قالوا: ما ذلك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فمرَّ النفر الذين أخذوا نحو تهامة، وهو بنخل عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم، فقالوا: إنا سمعنا قرآنًا عجبًا، يهدي إلى الرشد، فآمنا به، ولن نُشرِك بربنا أحدًا». فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:١][(١)].

(١) رواه الإمام مسلم في الصلاة (١/ ٣٣١) وقوله: «(عامدين) أي: قاصدين، وسوق عكاظ كانت تقام قريبًا من عرفة بين مكة والطائف، مرة كل عام، تجتمع قبائل العرب، فيتعاكظون، أي: يتفاخرون ويتناشدون، وظلت تقام إلى سنة ١٢٩هـ ثم خربها الخوارج ونهبوها، و(الشهب) جمع شهاب، وهو شعلة النار (اضربوا مشارق الأرض ومغاربها) أي: سيروا وابحثوا فيها كلها عن السبب، (وهو بنخل) أي: وهو ﷺ في هذا المكان: نخل أو نخلة.

وتحكي لنا [سورة الجن] تفاصيل هذا الحدث العجيب.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الْكُهَّانَ كَانُوا يُحَدِّثُونَنَا بِالشَّيْءِ فَنَجِدُهُ حَقًّا! «**قَالَ: تِلْكَ الْكَلِمَةُ الْحَقُّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيَقْذِفُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ وَيَزِيدُ فِيهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ**»(١).

ودُعِيَ رسول الله ﷺ مرة أخرى للاجتماع بهم:

عَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَلْقَمَةَ: هَلْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجِنِّ؟ قَالَ: فَقَالَ عَلْقَمَةُ: أَنَا سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ، فَقُلْتُ: هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجِنِّ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَفَقَدْنَاهُ، فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ، فَقُلْنَا: اسْتُطِيرَ، أَوِ اغْتِيلَ!! قَالَ: فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلِ حِرَاءٍ.

قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَدْنَاكَ، فَطَلَبْنَاكَ، فَلَمْ نَجِدْكَ، فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فَقَالَ: «**أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ**». قَالَ: فَانْطَلَقَ بِنَا، فَأَرَانَا آثَارَهُمْ، وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ، وَسَأَلُوهُ الزَّادَ.

فَقَالَ: لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ**»(٢).

وعن مَعْنٍ قال: سمعت أبي قال: سألت مسروقًا: من آذن النبي ﷺ بالجن

(١) رواه الإمام مسلم في السلام (٤/ ١٧٥٠).

(٢) رواه الإمام مسلم في الصلاة (١/ ٣٣٢) والأودية: جمع واد وهو أرض بين جبلين تجتمع فيها السيول، والشعاب: جمع شعب، وهو الطريق في الجبل: (استطير) أي: طارت به الجن (اغتيل) أي: قتل خفية وسرًّا.

ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك - يعني ابن مسعود - أنه آذنته بهم شجرة[1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ «الرَّحْمَنِ» مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، فَسَكَتُوا، فَقَالَ: «**لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ، فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ؛ كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قَالُوا: لا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ**»[2].

والجن يسكنون البر والبحر والجو:

ومنهم مَن يسكن مع بني آدم في بيوتهم، ويُسَمَّون: (العمار) أو (العوامر) ليس من حقهم أن يظهروا للإنس في أية صورة من الصور وإلا استحقوا القتل بعد إنذارهم.

فعن أبي السائب مولى هشام بن زُهرة أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ فِي بَيْتِهِ، قَالَ: فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُهُ حَتَّى يَقْضِيَ صَلَاتَهُ، فَسَمِعْتُ تَحْرِيكًا فِي عَرَاجِينَ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا حَيَّةٌ، فَوَثَبْتُ لِأَقْتُلَهَا فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنِ اجْلِسْ، فَجَلَسْتُ.

فَلَمَّا انْصَرَفَ أَشَارَ إِلَى بَيْتٍ فِي الدَّارِ فَقَالَ: أَتَرَى هَذَا الْبَيْتَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: كَانَ فِيهِ فَتًى مِنَّا حَدِيثُ عَهْدٍ بِعُرْسٍ، قَالَ: فَخَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ، فَكَانَ ذَلِكَ الْفَتَى يَسْتَأْذِنُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِأَنْصَافِ النَّهَارِ فَيَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ،

---

(١) رواه مسلم في الموضع السابق، وقوله: (من آذن النبي) أي: أعلمه بحضور الجنّ، وهي الشجرة أنطقها الله له، كما قال: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسَلِّم عليَّ قبل أن أبعث» مسلم (٤/ ١٧٨٢).

(٢) الدر المنثور للسيوطي (٧/ ٦٩٠) ورواه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي.

فَاسْتَأْذَنَهُ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خُذْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ قُرَيْظَةَ». فَأَخَذَ الرَّجُلُ سِلَاحَهُ، ثُمَّ رَجَعَ فَإِذَا امْرَأَتُهُ بَيْنَ الْبَابَيْنِ قَائِمَةً فَأَهْوَى إِلَيْهَا الرُّمْحَ لِيَطْعَنَهَا بِهِ وَأَصَابَتْهُ غَيْرَةٌ، فَقَالَتْ لَهُ: اكْفُفْ عَلَيْكَ رُمْحَكَ وَادْخُلِ الْبَيْتَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الَّذِي أَخْرَجَنِي! فَدَخَلَ فَإِذَا بِحَيَّةٍ عَظِيمَةٍ مُنْطَوِيَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِالرُّمْحِ فَانْتَظَمَهَا بِهِ، ثُمَّ خَرَجَ فَرَكَزَهُ فِي الدَّارِ فَاضْطَرَبَتْ عَلَيْهِ، فَمَا يُدْرَى أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتًا؛ الْحَيَّةُ أَمِ الْفَتَى؟

قَالَ: فَجِئْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، وَقُلْنَا: ادْعُ اللهَ يُحْيِيهِ لَنَا!

فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِصَاحِبِكُمْ». ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئًا فَآذِنُوهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَاقْتُلُوهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ»[(١)].

وفي رواية: «إِنَّ لِهَذِهِ الْبُيُوتِ عَوَامِرَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْهَا، فَحَرِّجُوا عَلَيْهَا ثَلَاثًا، فَإِنْ ذَهَبَ وَإِلَّا فَاقْتُلُوهُ فَإِنَّهُ كَافِرٌ. وَقَالَ لَهُمْ: اذْهَبُوا فَادْفِنُوا صَاحِبَكُمْ»[(٢)].

---

(١) رواه الإمام مسلم في السلام (٤/ ١٧٥٦)، وأراد بالعراجين: الأعواد التي في سقف البيت، وفي رواية: (إذ سمعنا تحت سريره حركة) وقوله: (أخشى عليك قريظة) أي: يقتله يهود قريظة. وقوله: (فآذنوه) أي: أعلموه وأنذروه، فإن لم يذهب علمتم أنه ليس من عوامر البيت المسلمين، ويقول في الإنذار: «أنشدكن بالعهد الذي أخذ عليكم سليمان بن داود أن لا تؤذونا ولا تظهرن لنا» وقال مالك يقول: «أُحَرِّج عليك بالله واليوم الآخر أن لا تبدوا لنا ولا تؤذينا» قيل: إن هذا الإنذار عام في جميع حيَّات الأرض. وقيل: إنه خاص بحيَّات المدينة للسبب المذكور في هذا الحديث، وهو إسلام بعض الجن بدليل حديث: «خمس يُقتلن في الحلِّ والحَرَم» منها الحيَّات، ولم يذكر إنذارًا، وحديث الحيَّة الخارجة بمنى فإنه ﷺ أمر بقتلها، ولم يذكر إنذارًا.

(٢) المرجع السابق وقوله: (فخرجوا عليه) أي: قولوا للجن أنتم في حرج، أي ضيق إن عدتم إلينا فلا تلومونا إن ضيقنا عليكم بالتتبع والطرد والقتل.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ**»(١).

أي: ذكران الجن وإناثهم، فالخبث جمع خبيث، والخبائث جمع خبيثة.

والجن لهم قدرات فائقة:

قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[النمل:٣٩]. وقال تعالى عن سليمان: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾[سورة ص:٣٦-٣٨].

وقال في وصف أعمالهم له: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[سبأ:١٣]، المحاريب: الأبنية المرتفعة يُصعد إليها بدَرج، ولم تكن التماثيل محرمةً، والجفان: القِصَاع. والجوابي: أحواض الماء.

والجن يموتون، ويبعثون، ويدخلون الجنة أو النار:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي

---

(١) رواه البخاري في الدعوات – الفتح (١١/ ١٣٤) ومسلم في الحيض (١/ ٢٨٣).

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾[الأنعام:١٢٨-١٣١].

وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

[هود:١١٩].

وروى الحاكم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سُورَةَ الرَّحْمَنِ عَلَى أَصْحَابِهِ حَتَّى فَرَغَ، قَالَ: «**مَا لِي أَرَاكُمْ سُكُوتًا، لَلْجِنُّ كَانُوا أَحْسَنَ مِنْكُمْ رَدًّا، مَا قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ مَرَّةٍ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إِلَّا قَالُوا: وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعْمَتِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ**». وفي هذه السورة قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾، وجاء في [سورة الجن]: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

من أعمال الشيطان:

ذكر لنا القرآن الكريم أعمال الشيطان لنحذره، ومن ذلك:

(١) الشيطان يُسَوِّل ويُزيِّن:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾[محمد:٢٥]، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٤٣].

(٢) الشيطان يفتن ويوسوس:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

- ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف:٢٠].

(٣) الشيطان يَعدُ ويُمنّي:

- ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾[البقرة:٢٦٨].

- ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[النساء:١٢٠].

- ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:٦٤].

(٤) الشيطان يُخّوف ويُضِلُّ:

- ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران:١٧٥].

- ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾[النساء:٦٠].

(٥) الشيطان ينزغ ويُنْسِي:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾[الأعراف:٢٠٠].

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾

[المجادلة:١٩].

(٦) الشيطان يَمَسُّ ويؤذي:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾

[الأعراف:٢٠١].

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾

[ص:٤١].

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾[البقرة:٢٧٥].

قال الإمام القرطبي عند تفسيره لهذه الآية الكريمة: «في هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصَّرع من جهة الجن، وزعم أنه من فعل الطبائع، وأن الشيطان لا يسلك في الإنسان، ولا يكون منه مس»[(١)].

ويقول الإمام الآلوسي عن المس: «أصله اللمس باليد، سمي به؛ لأن الشيطان قد يمس الرجل وأخلاطه مستعدة للفساد فتفسد، ويحدث الجنون، وهذا لا ينافي ما ذكره الأطباء؛ لأن ما ذكروه سبب قريب وما تشير إليه الآية سبب بعيد، وقد يدخل في بعض الأجساد على بعض الكيفيات ريحٌ متعفن، تعلقت به روح خبيثة تناسبه، فيحدث الجنون، وربما استولى ذلك على الحواس وعطلها، واستقلت تلك الروح الخبيثة بالتصرف، فتتكلم، وتبطش، وتسعى بآلات

(١) تفسير القرطبي صـ١١٦٣، ط الشعب (٢).

- أعضاء - ذلك الشخص الذي قامت به من غير شعور للشخص بشيء من ذلك أصلًا، وهذا كالمشاهد المحسوس، الذي يكاد يُعدُّ منكره مكابرًا منكرًا للمشاهدات»[١].

نصائح نبوية:

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»[٢].

(٢) وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»[٣].

(٣) وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ ثَلَاثَ عُقَدٍ إِذَا نَامَ، بِكُلِّ عُقْدَةٍ يَضْرِبُ عَلَيْكَ لَيْلًا طَوِيلًا. فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عَنْهُ عُقْدَتَانِ، فَإِذَا صَلَّى انْحَلَّتِ الْعُقَدُ فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ. وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ»[٤].

(٤) عَنْ أَبِي الْعَلَاءِ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ! فَقَالَ

(١) روح المعاني بتصرف يسير (٣/ ٤٩).
(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين (١/ ٥٣٩) (ولا تجعلوا بيوتكم مقابر) أي: بعدم صلاة النوافل فيها.
(٣) رواه البخاري في بدء الخلق –الفتح (٦/ ٣٩٠).
(٤) رواه مسلم في صلاة المسافرين (١/ ٥٣٨).

رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ: خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفُلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا». قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي(١).

(٥) عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ - أَوْ كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ - فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ، فَحُلُّوهُمْ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَلَوْ تَعْرُضُ عَلَيْهِ شَيْئًا»(٢). وفي رواية: «فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا»(٣).

(٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ، فَإِذَا قُضِيَ أَقْبَلَ، فَإِذَا ثُوِّبَ بِهَا أَدْبَرَ، فَإِذَا قُضِيَ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ. فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا وَكَذَا، حَتَّى لَا يَدْرِيَ أَثَلَاثًا صَلَّى أَمْ أَرْبَعًا؟ فَإِذَا لَمْ يَدْرِ ثَلَاثًا صَلَّى أَوْ أَرْبَعًا، سَجَدَ سَجْدَتَيِ السَّهْوِ»(٤).

(٧) عَنْ أَبِي قَتَادَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللهِ، وَالْحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا حَلَمَ أَحَدُكُمْ حُلْمًا يَخَافُهُ، فَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ، وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ»(٥).

(٨) عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ،

---

(١) رواه مسلم في السلام (٤/ ١٧٢٨) (يلبسها عليّ) أي: يخلطها ويشككني فيها.

(٢) رواه البخاري في بدء الوحي - الفتح (٦/ ٣٨٧)، «وَأَوْكِ سِقَاءَكَ» الوكاء: رباط القربة، والمراد تغطية الماء.

(٣) رواه البخاري في بدء الخلق أيضًا- الفتح (٦/ ٤٠٣).

(٤) رواه البخاري في بدء الخلق - الفتح (٦/ ٣٨٨)، ومسلم في الصلاة (١/ ٢٩١)، والمراد بالنداء: الأذان، والمراد بالتثويب: الإقامة.

(٥) رواه البخاري في بدء الخلق – الفتح (٦/ ٣٩٠).

ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً، أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ. قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ» قَالَ الْأَعْمَشُ: أُرَاهُ قَالَ: «فَيَلْتَزِمُهُ»(١).

(٩) عن عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ حدَّثته أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا لَيْلًا قَالَتْ: فَغِرْتُ عَلَيْهِ، فَجَاءَ فَرَأَى مَا أَصْنَعُ فَقَالَ: «مَا لَكِ يَا عَائِشَةُ؟، أَغِرْتِ؟». فَقُلْتُ: وَمَا لِي لَا يَغَارُ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَقَدْ جَاءَكِ شَيْطَانُكِ؟». قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَمَعِيَ شَيْطَانٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قُلْتُ: وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قُلْتُ: وَمَعَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَ».

وفي حديث آخر: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ».

قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»(٢).

وأجمع العلماء على عصمة النبي ﷺ من الشيطان، فهذا الحديث تحذير للمسلم من فتنة القرين وإغوائه، فأعلمنا أنه معنا؛ لنحترز منه بحسب الإمكان.

(١٠) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَمَا إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ وَقَالَ:

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٤/ ٢١٦٧) (يضع عرشه) أي: سرير ملكه، والمراد: أن مركزه البحر، ومنه يبعث (سراياه) أي: جنوده إلى نواحي الأرض. (فأدناهم منه) أي: أقربهم وأحبهم اليه من يفرق بين الزوجين. (يلتزمه) أي: يعانقه ويحبه لكثرة شره، والعياذ بالله.

(٢) رواهما مسلم في صفات المنافقين (٤/ ٢١٦٨) (أسلم) بفتح الميم أي: أسلم القرين وآمن بالله، وبضم الميم أي: فأسلم أنا من شره وفتنته.

بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَرُزِقَا وَلَدًا، لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ»(١).

عن مجاهد قال: «إذا جامع الرجل، فلم يُسم انطوى الجانُّ على إحليله، فجامع معه»(٢). وفي رواية عنه: «إن الذي يجامع، ولا يُسمِّي يلتفُّ الشيطان على إحليله، فيجامع معه»(٣).

(١) رواه البخاري في بدء الخلق- الفتح (٦/ ٣٨٦).
(٢) ذكره القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[الإسراء:٦٤]، ص٣٩٠٥ طبعة الشعب، وكذا الإمام الألوسي – روح المعاني (٨/ ١١٢).
(٣) ذكرها الإمام ابن حجر في شرحه للحديث المذكور – الفتح (٩/ ١٣٧).

الفصل الثالث

الإيمان بالكتب السماوية

الركن الثالث من أركان الإيمان: أن يؤمن العبد بأن لله كتبًا أنزلها إلى رسله عليهم الصلاة والسلام، قيل: إنها مائة وأربعة كتب، لكن المذكور منها في القرآن ما يأتي:

(١) التوراة: أنزلها الله على موسى عليه السلام: قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾

[المائدة:٤٤]

وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأنعام:٩١].

(٢) الإنجيل: أنزله الله على عيسى عليه السلام: قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

[المائدة:٤٦].

(٣) الزبور: أنزله الله على داود عليه السلام: قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾

[الإسراء:٥٥].

(٤) صحف إبراهيم وموسى: قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[الأعلى:١٤-١٩].

(٥) القرآن الكريم: وهو آخر الكتب نزولًا، لا كتاب بعده؛ لأنه لا نبي بعد سيدنا محمد ﷺ حيث خُتِمَ به النبيون قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة:٤٨].

تحريف الكتب السماوية السابقة ونسخ القرآن لها:

لا وجود الآن للكتب السابقة على القرآن الكريم؛ فقد ثبت تحريفها وضياعها. قال تعالى في شأن التوراة: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥].

وقال: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[النساء:٤٦].

بل ثبت أنها أُحْرِقت، ولم تكن محفوظة في الصدور، ولا في السطور في مكان لم تمتد إليه يد البابليين الذين استولوا على القدس، وقتلوا كثيرًا من بني إسرائيل.

كما أن التوراة الموجودة الآن في يد اليهود ليست هي التوراة الموجودة في أيدي النصارى. فضلًا عما تحويه التوراة من تطاول على ذات الحق تعالى، ووصف لأنبيائه بما لا يليق من الكذب، والزنا، وعبادة الأصنام.

فقد نسبت السُّكر لنوح عليه السلام، ونسبت السكر والزنا بالبنات للوط عليه السلام، ونسبت الزنا بامرأة أوريا لداود عليه السلام بعد أن تخلص من زوجها.

وكذلك الحال بالنسبة للإنجيل. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾[المائدة:١٤، ١٥].

والأناجيل المتداولة الآن أربعة: إنجيل مرقص، وإنجيل يوحنا، وإنجيل لوقا، وإنجيل متَّى. وهي منسوبة إلى مؤلفيها، وقد كتبت بعد المسيح، وبينها من الاختلاف والفروق ما لا يحصى، وقد اختيرت من نحو سبعين إنجيلًا، وفيها كلام عن سيرة سيدنا عيسى وصلبه وموته في زعمهم. فكيف تكون الإنجيل الذي نزل عليه؟

وكان من أهم ما حرَّفوه البشارات بسيدنا محمد ﷺ التي كانت سببًا في إسلام كثير من النصارى في العهد النبوي وبعده، والتي حرصت الكنيسة على إخفائها تمامًا، وأصدر البابا (جلاسيوس) سنة ٤٩٢م أمرًا بتحريم قراءة بعض الكتب، وكان من أهمها إنجيل (برنابا) أحد الحواريين، وصودرت نسخ هذا الإنجيل من كل مكان، لكن مكتبة البابا (سكتش) الخامس كان بها نسخة منه عثر عليها الراهب (فرامينو) وكانت باللغة الإيطالية على الورق الإيطالي المعروف.

وفي هذا الإنجيل ما يدل على أن عيسى عليه السلام ليس إلا رسولًا من عند الله، وأن الرسول المنتظر هو محمد ﷺ **فقد جاء فيه هذا النص:**

«وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله الذي متى جاء كشف هذا

الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله»، وقد أعلن هذا الراهب إسلامه بعد اطلاعه على هذا الإنجيل ونشره، وقد عُثِرَ على نسخة أخرى إسبانية من هذا الإنجيل، أوائل القرن الثامن عشر. وأخيرًا تم اكتشاف بعض المخطوطات القديمة في منطقة البحر الميت تؤكد صحة إنجيل (برنابا) وهذه المخطوطات موجودة بالأردن، وقد جاء فيها: «إن عيسى كان مسيا للمسيحيين، وأن هناك مسيا آخر» أي: رسولًا آخر وهو سيدنا محمد ﷺ.

وصدق الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[الصف:٦].

لذلك فإن القرآن قد نسخ كل الكتب السابقة، واشتمل على أهم ما فيها وعلى ما يصلح لكل زمان ومكان من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾[الشورى:١٣].

وقد تكفل الله بحفظه وصيانته: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤١، ٤٢].

وقد نقل إلينا القرآن الكريم بالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ، وبالتواتر المفيد للعلم القطعي اليقيني، ولا يوجد أدنى شك في أن الذي نتلوه الآن هو ما كان يتلوه الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عنهم.

إعجاز القرآن الكريم:

والقرآن هو الدليل على نبوة سيدنا محمد ﷺ والدليل على أن القرآن من

عند الله تحدى الرسول الإنس والجن به، وعدم قدرتهم على معارضته والإتيان بمثله، لقد تحداهم متدرجا بهم من أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة، فلم يستطيعوا:

(١) ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ الإسراء [٨٨].

(٢) ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[هود:١٣].

(٣) ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾

[البقرة [٢٣، ٢٤].

وهكذا ثبت أنه من عند الله جلت قدرته.

ووصف رسول الله ﷺ القرآن فقال:

«عليكم بكِتَابِ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُم، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُم، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَل ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» رواه الترمذي.

أوجه إعجاز القرآن الكريم:

أولًا: فصاحته وبلاغته:

فهو في قمة الفصاحة، وغاية البلاغة، وتأمل كيف تأتي المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، وتدبر جمال التشبيه والتصوير، وحسن المطالع والمقاطع، وروعة التقديم، والتأخير، والتأكيد، وخلوه من الألفاظ الغثة والشاذة، وبُعده عن التناقض: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

وعلى الرغم من نزوله خلال ثلاث وعشرين سنة حسب الدواعي والظروف، وكان فصيحًا بليغًا معجزًا بحسب ترتيب هذا النزول، فهو أيضًا فصيح بليغ معجز بحسب ترتيب تلاوته المغاير لترتيب نزوله، أليس هذا أمرًا عجبًا؟!

ثانيًا: أثره في النفوس:

تأمل ما يحدث عند تلاوته من خشية، وعند سماعه من هيبة، وعدم السآمة أو الملل من قراءته وإعادته، وكيف ترق له القلوب، وتنجذب إليه النفوس:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[الحشر:٢١].

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الزمر:٢٣].

والمشركون من أهل مكة على الرغم من رفضهم للحق ظلمًا وعُلوًّا، وعنادًا واستكبارًا كانوا إذا أقبل الليل يخرجون مستخفين؛ ليسمعوا إليه مرتلًا من

أفواه المؤمنين في السَّحر على الرغم من تواعدهم على ألا يفعلوا، لكيلا يتأثروا، وعلى الرغم من منعهم رسول الله ﷺ من أن يقرأه في منتدياتهم وأسواقهم؛ حتى لا تنفعل به العرب، وتحذيرهم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه أن يرتله في صلاته في فناء بيته؛ كي لا يجتمع عليه الناس: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[فصلت:٢٦].

ولنتذكر موقف (الوليد بن المغيرة) وتأثره بالقرآن، وشهادته له فيما حكاه القرآن الكريم في سورة (المدثر).

وكذلك قصة إسلام (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه.

وبكاء (النجاشي) عندما استمع لصدر سورة (مريم) يرتلها (جعفر بن أبي طالب) رضي الله عنه.

ثالثًا: وفاؤه باحتياجات الخلق:

بما اشتمل من عرض للعقيدة الصحيحة، وإبطال للعقائد الباطلة، وبما حوى من بيان للعبادات التي تُقرِّب العبد من ربه، وبما ضمَّ من قواعد أخلاقية لازمة لحياة البشرية حياة هانئة فاضلة، وبما جاء فيه من تشريعات اجتماعية، واقتصادية، وسياسية، تحقق العدل للفرد، وللمجتمع الدولي كله.

«إن القانون الروماني هو خلاصة ما وصل إليه العقل البشري في مدى ثلاثة عشر قرنًا في تنظيم الحقوق والواجبات.

فإذا وازنا بينه وبين ما جاء على لسان محمد النبي الأمي وأنتجت الموازنة

أن العدل فيما قاله محمد، وتأكد لنا أنه ليس من صنع بشر، بل هو صنع العليم الحكيم اللطيف الخبير سبحانه»[1].

وقد دلَّ تطبيقه العملي على هذا الإنجاز الحقيقي الواقعي.

رابعًا: إخباره عن الغيب

(١) فمن أمثلة الغيب الماضي:

(أ) قصة سيدنا نوح التي جاء فيها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

[هود:٤٩].

(ب) وقصة سيدنا موسى، وجاء فيها: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

[القصص:٤٤-٤٦].

(جـ) وقصة مريم، وجاء فيها: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران:٤٤].

(١) شريعة القرآن من دلائل إعجازه للشيخ أبو زهرة ص١٢.

(٢) ومن أمثلة الغيب الحالي:

ما ذكره عن عالم الملائكة، وعالم الجن، وما نزل في شأن المنافقين من آيات كشفت عن نواياهم، وفضحت أساليبهم.

ومثل إخباره عن بعض المشركين بأنهم لن يؤمنوا:

كأبي لهب قال تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[المسد:٣].

وكالأخنس بن شريق الذي نزل فيه: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾[الهمزة:٤-٦].

والوليد بن المغيرة الذي نزل فيه: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[المدثر:٢٦].

وقد مات الثلاثة كفارًا.

(٣) ومن أمثلة الغيب المستقبل:

(أ) ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

[البقرة:٢٣، ٢٤].

(ب) ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ﴾

[البقرة:١٤٢].

(جـ) ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾

[الروم:٢-٤].

(د) ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]

(هـ) ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾[الفتح:٢٧].

* * *

الفصل الرابع

الإيمـــان بـالرســـل

حكمة إرسال الرسل:

خلق الله الإنسان، وجعله خليفته في الأرض، وسيدًا لهذا الكون، فسخر له ما في السموات والأرض، وحباه بنعمة العقل؛ ليميز به الخير من الشر، وأودع فيه من الغرائز والقوى ما يدفعه إلى العمل لإشباعها، مما يؤدي إلى ظلمه وجوره، واعتدائه على حقوق غيره.

ولا يستطيع الإنسان أن يعيش وحده، ولا أن يصنع كل ما يحتاج إليه في معاشه، بل لا بد أن يحيا مع بني جنسه، يأخذ ويعطي، وهذا يحتاج إلى قواعد تضبطه، وإلا لطغى القوي على الضعيف، ولا يمكن الاحتكام إلى العقل البشري؛ لأن العقول قاصرة وعاجزة، فقد يستقبح جماعة فعلًا يستحسنه آخرون، بل الإنسان الواحد قد يستحسن شيئًا في وقت، ويستقبحه في وقت آخر، فلا يمكن الاحتكام إلى مجرد العقل.

كما أن الإنسان لم يخلق لهذه الحياة القصيرة الفانية، بل لحياة أبدية باقية، أعد الله فيها دار نعيم للمؤمنين، ودار جحيم للكافرين، فهو في حاجة إلى من يُبين له العبادات التي تقربه من المعبود، والمحرمات التي تبعده عنه.

من هنا كانت حكمته ـ تعالى ـ في أن يتفضل بإرسال الرسل؛ ليبينوا للخلق ما يصلح لدنياهم وأخراهم، ولا يكون لهم عذر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء:١٥].

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[طه:١٣٤].

- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾[القصص:٥٩].

- ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء:١٦٤، ١٦٥]

اتفاق الرسالات واختلافها:

وقد اتفقت دعوة الرسل في أصول الدين، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥].

وقال ﷺ: «**وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»[(١)].

واختلفت بعض الشرائع عن بعض في مسائل من التشريعات الفرعية من الحلال والحرام، وبعض العبادات من الصلاة والصيام؛ لتتناسب مع ظروف كل مجتمع، وليكون فيها اختبار وابتلاء من الله ﷻ قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾[المائدة:٤٨].

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء- الفتح (٦/ ٥٥١) والعلات: الضرائر، وفي رواية له: «أولاد علات» وهم الإخوة لأب، وأمهاتهم مختلفة.

قال عيسى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[آل عمران: ٥٠]، فقد حرم الله عليهم بعض الطيبات لظلمهم كالسمك والشحم. وجعل تطهير الثوب بقطع ما تنجس منه، ومن أراد التوبة فعليه أن يقتل نفسه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[البقرة:٥٤].

وفي شريعة يعقوب عليه السلام: أن من سرق يصير عبدًا لمن سرق منه. وفي شريعتنا قطع يد السارق.

وليس في التوراة (دية) قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[المائدة:٤٥].

وقال ﷺ: «وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِنَبِيٍّ قَبْلِي».

تعريف الرسول والنبي والفرق بينهما:

الرأي الأول:

الرسول: إنسان ذكر حر أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه.

والنبي: إنسان ذكر حر أوحى الله إليه بشرع، ولم يؤمر بتبليغه.

فلا بد أن يكون الرسول أو النبي من البشر، وليس ملكًا أو جنيًا؛ حتى يمكن مخاطبته. وقد رد الله على الذين أنكروا أن يكون الرسول بشرًا، وزعموا أنه لا بدَّ أن يكون ملكًا، فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام:٩].

ولا بد أن يكون الرسول ذكرًا؛ لأن الأنوثة لا تناسب وظيفة الرسول الذي يقوم بدعوة الناس إلى الدين، وهناك من زعم أن مريم، وآسيا، وأم موسى، وهاجر، كن أنبياء؛ بناء على أن الله أوحى إليهن، ولكن الآية تقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾[يوسف:١٠٩]، فأثبتت الرسالة للرجال.

وطبيعة المرأة لا تناسب مهمة الرسول، وسبق أن الوحي يستعمل بمعنى الإلهام، فقد ألهم الله هؤلاء المذكورات بما شاء.

وعلى هذا الرأي الفرق بين الرسول والنبي هو التبليغ؛ فالرسول مأمور بالتبليغ، والنبي ليس مأمورًا بالتبليغ، ويكون نبينا ﷺ قد نُبِئ بـ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[العلق:١]، وأرسل بـ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾[المدثر:٢].

الرأي الثاني:

الرسول: هو من بعثه الله بشرع جديد، يجهله المرسل إليهم، ولا يعرفونه.

والنبي: هو من بعثه الله لتقرير شرع سابق، يعرفه المرسل إليهم، ولا يلتزمونه، فوظيفته تذكيرهم به، ودعوتهم لامتثاله؛ لأنهم يعلمون أنه حق ويكون هو قدوة طيبة لهم.

فمهمة الأنبياء أشبه بمهمة علماء أمة سيدنا محمد ﷺ كما ورد في حديث: «**الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**»(١).

والمتأمل في استعمال هذين اللفظين (الرسول والنبي) في القرآن يجد أنهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

(١) رواه أحمد والأربعة عن أبي الدرداء مرفوعًا، كشف الخفاء (٢/ ٨٣).

أي: إذا اجتمعا في آية واحدة كان لكل منهما معناه الخاص به، كما في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢]. فهنا الرسول مغاير للنبي.

أما إذا افترقا فورد أحد اللفظين في الآية دون الآخر كان كل منهما بمعنى الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[التغابن:١٢].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[الأحزاب: ٤٥]، فهنا الرسول مرادف للنبي.

عدد الرسل والأنبياء وأولو العزم منهم:

أورد القرآن الكريم أسماء عدد من الرسل والأنبياء، وجاء قوله تعالى: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[النساء:١٦٤]، مما يدل على أن عددهم أكثر مما ورد في القرآن.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي ذر: قَالَ: **قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، كَمْ وَفَّى عِدَّةُ الْأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ: «مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ، جَمًّا غَفِيرًا»**[(١)].

والمذكورون في القرآن الكريم خمسة وعشرون، جمعهم أحد العلماء في قوله:

(١) المسند (٥/ ٢٦٦).

في تلك حجتنا منهم ثمانية — من بعد عشر ويَبقَى سبعة وهمُ
إدريس هود شعيب صالح وكذا — ذو الكفل آدم بالمختار قد خُتِموا

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٣-٨٦].

وأولو العزم من الرسل خمسة ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[الأحزاب:٧]. وقوله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾[الشورى:١٣].

صفات الرسل وعلاماتهم:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[الحج:٧٥].

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[الحجر:٧٥]، ويقول: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام:١٢٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران:٣٣].

والرسل بشر تعتريهم الأحوال البشرية من اللذة والألم، والصحة والمرض[1] والاحتياج إلى الطعام والشراب، والزواج والأولاد، ويموتون كما يموت البشر، وفي هذا كله تنبيه لمن تسول له نفسه أن يُؤلِّه نبيًّا، أو يعبد رسولًا.

وقد اختارهم من يعلم خائنة الأعين وما يخفي الصدور، فأدبهم فأحسن تأديبهم، ومنحهم أفضل ما يمنحه البشر، وأوجب لهم كل كمال بشري، ونزههم عن كل نقص بشري.

وفيما يأتي نعرض بعض صفاتهم وعلاماتهم:

أولًا: العصمة:

وهي حفظ الله ظواهر الأنبياء وبواطنهم عن فعل المنهي عنه.

وأما الصغائر فقد اختلف العلماء فيها:

فرأى بعضهم أن الأنبياء ربما أَلَمَّ بعضهم بشيء منها بطريق النسيان، أو التأويل، أو الخطأ، لكن الله لا يُقرهم عليها، بل يُنبههم، ويستغفرونه تعالى، فيكون ذلك سببًا في رفع درجاتهم، وتعليم أممهم.

وذهب بعض العلماء إلى عصمتهم عن الصغائر أيضا، وما ورد عنهم من باب ترك الأولى، وترك الأولى ليس صغيرة.

وإنما وجبت عصمتهم؛ لأن الله جعلهم أسوة حسنة، وقدوة عملية

---

(١) ومن أنواع المرض: السحر الذي يكون تأثيره على البدن فقط، والحديث في البخاري، وأما السحر الذي يكون تأثيره على القلب والعقل، فيتخيل أمورًا لا حقيقة لها فهذا النوع مستحيل على الرسل؛ لأنه يتنافى مع هدف الرسالة، وهذا النوع هو مقصود المشركين عندما قالوا: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[الإسراء:٤٧].

لأقوامهم، وأمر باتباعهم فيما يقولون ويفعلون. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[النساء:٦٤، ٦٥].

وقال: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾[الأحزاب:٢١].

وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[الحشر:٧].

وتشمل العصمة الصدق، فقد عصمهم الله عن الوقوع في الكذب، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾[الحاقة:٤٤-٤٦].

وقال عن سيدنا محمد ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾[النجم:٣].

والله ـ سبحانه ـ لا يؤيد من يكذب عليه، بل يُظهر كذبه، ويفضحه، وينتقم منه. هكذا جرت سنته في كونه جل في علاه.

والمقصود بالصدق: مطابقة الخبر للواقع بحسب الاعتقاد.

فعندما سلَّم الرسول ﷺ بعد ركعتين في صلاة رباعية، وقال له (ذو اليدين): أقُصِرَت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ فقال: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ» كان قوله هذا صدقًا بحسب اعتقاده، فهو معتقد أنه أتم الصلاة.

وتشمل العصمةُ التبليغَ، أي: توصيل كل ما يوحى إليهم إلى الناس، فهم

معصومون من الخطأ فيه، أو حجب شيء منه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة:٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[التكوير:٢٤] أي: بخيل مقصر في تبليغه ولو كتم النبي شيئًا لكتم آيات العتاب، مثل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾[عبس:١، ٢].

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[التوبة:٤٣].

﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال:٦٧]

ثانيًا: الفطنة:

وهي الفهم والذكاء والتيقظ لأساليب المجادلين، وإبطال دعواهم الفاسدة، وإلزامهم الحجة، والفطنة أو الفطانة من ألزم الصفات للأنبياء والرسل؛ لأن مهمتهم نشر الدعوة، وتبليغ الرسالة، وإبطال العقائد الباطلة، وغرس العقائد الصحيحة، وكل ذلك يحتاج إلى الذكاء والتيقظ.

قال تعالى حكاية عن قوم نوح: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[هود:٣٢].

وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:٨٣].

وتأمل محاجة إبراهيم عليه السلام للنمرود عندما قال له: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾[البقرة:٢٥٨]؛ فلم يفهم ذلك؛ لغبائه، فانتقل إبراهيم إلى أمر أبين وأوضح، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة:٢٥٨].

وتأمل محاجته لعباد الأصنام عندما قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

[الأنبياء:٥٧-٦٧].

ودعا موسى ربه قائلًا: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾[طه:٢٥-٢٨].

وأمر خاتم النبيين أن يجادلهم بالحسنى فقال: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[النحل:١٢٥].

ثالثًا: ومن علاماتهم:

أن يكونوا ذوي حسب في قومهم، وفي الحديث الصحيح قال ﷺ: «**ما بعث الله نبيًا إلا في منعة من قومه**»[1].

وقال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾[هود:٩١].

ولتتذكر موقف أبي طالب مع النبي ﷺ وكيف كان حاميه، وناصره، والمدافع عنه، ولعله لم يُسلم حتى لا يفقد رسول الله حاميه، وناصره والمدافع عنه.

وعندما سأل هرقل أبا سفيان عن رسول الله ﷺ: كيف هو فيكم؟ قال: هو فينا ذو حسب، قال هرقل: وكذلك الرسل تُبعث في أحساب قومها.

ومعناه: أن تكون له عصبة وشوكة تمنعه من أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه.

رابعًا: ومن علاماتهم:

أن يكون لهم خلق الخير والفضيلة، والطُهر والعفاف، والتنزه عن المصالح الشخصية، والأعراض الزائلة، وقد استدلت خديجة رضي الله عنها بذلك على نبوته ﷺ حين قالت له: «**كلا والله لا يُخزيك الله أبدًا: إنك تصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ، وتُقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق**» رواه البخاري.

(١) رواه أحمد في مسنده (١٦/ ٥٢٥) بلفظ: «فَمَا بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيًّا بَعْدَهُ».

ولما سأل هرقل أبا سفيان: فهل يغدر؟ قال أبو سفيان: لا. قال هرقل: كذلك الرسل لا تغدر.

وعندما سأله: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: لا. قال: لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله.

وقد صانه الله قبل الوحي عن عادات الجاهلية؛ ففي الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة، فجعلها في إزاره، فانكشف، فسقط مغشيًّا عليه، حتى استتر بثوبه، ودُعي إلى وليمة فيها عرس ولعب، فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس، ولم يحضر شيئًا من شأنهم، وقد اشتهر قبل البعثة بالصادق الأمين.

وحكى القرآن قول نوح لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ ﴾[هود:٥١].

وقول هود لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[هود:٥١]

وكذلك قال رسولنا: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾

[الشورى:٢٣].

وعندما اجتمع أشراف مكة به ﷺ عند الحجر بالمسجد الحرام وقالوا له: إن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نُسَوِّدُك علينا، وإن كنت تريد به مُلكًا ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه - أي: جنيًّا - قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه.

قال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون. ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولًا، وأنزل على كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ، أصبر لأمر الله؛ حتى يحكم الله بيني وبينكم».

ويقول: لأصحابه: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا».

ويقول: «عُرِضت عليَّ الدنيا فأبيتها».

خامسًا: ومن علاماتهم:

أن توجد لهم حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط، كأنها غشي أو إغماء، وليست كذلك، وإنما هو استغراق في لقاء الملك الروحاني بإدراك يناسب ذلك، لا يدركه سائر البشر، وذلك بسماع دوي من الكلام فيتفهمه، أو يتمثل له في صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله، ثم تنجلي تلك الحال وقد وعي ما ألقى إليه من الوحي.

قال ﷺ وقد سئل عن الوحي: «**أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلًا، فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**». ويدركه في أثناء ذلك من الشدة والعناء ما لا يعبر عنه، ففي الحديث: «**كان مما يعالج من التنزيل شِدَّة**».

وقالت عائشة: «كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا»[(١)].

---

(١) الإسلام والعقل للدكتور عبد الحليم محمود ص١٠٤.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزمل:٥].

ولأجل هذه الحال في نزول الوحي كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون، ويقولون: له رئي أو تابع من الجن: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:٣٣].

سادسًا: ومن علاماتهم:

دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والصلة.

وقد سأل هرقل أبا سفيان: بِمَ يأمركم؟

فقال أبو سفيان: بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف.

فقال: إن يكن ما تقول حقًّا فهو نبيٌّ، وسيملك ما تحت قدميَّ هاتين.

وعندما سأل النجاشي سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لما هاجر إلى الحبشة: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم؟

قال: أيها الملك، كنَّا قومًا أهل جاهلية: نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القويُّ فينا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منَّا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله، أمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة.

وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام (وعدد عليه أمور الإسلام) فصدَّقناه، وآمنا به، فعدا علينا قومنا فعذبونا، فلما قهرونا خرجنا إلى بلادك.

ولما قرأ عليه صدرًا من سورة (مريم) بكى النجاشي، ثم قال: (إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة)[1].

سابعًا: ومن علاماتهم:

أن يتبعهم في أول أمرهم ضعفاء القوم، قال قوم نوح له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[هود:٢٧].

ثم يزداد عدد المؤمنين، ولا يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه إذا خالطت بشاشة الإيمان قلبه.

قال هرقل لأبي سفيان: (وسألتُك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل. وسألتُك: يزيدون أم ينقصون؟ فذكرتَ أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت: أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب).

ويحدث القتال بين الرسل وأتباعهم وبين الكافرين المعاندين، وتكون الحرب دولًا: ينتصر هؤلاء مرة، وأولئك مرة، ثم ينصر الله المؤمنين في النهاية ويُمَكِّن لهم، ويُهلك أعداءهم.

قال هرقل: سألتُك: كيف كان قتالكم أياه؟

فزعمت أن الحرب سِجال ودول. فكذلك الرسل تُبْتَلَى، ثم تكون لهم العاقبة.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٢٦٢).

ثامنًا: ومن علاماتهم:

ظهور المعجزات على أيديهم شاهدة بصدقهم، وهي الآيات التي يمنحها الله لهم مؤيدة لنبوتهم، لا يقدر على مثلها إنس ولا جن[1].

وآية النبي أو معجزته هي الأمر الخارق للعادة الذي يُظهره الله على يد النبي مصدقًا له في دعوى النبوة.

وهذا الأمر الخارق إما أن يكون قولًا كالقرآن الكريم.

أو فعلًا كانقلاب العصا حية.

أو تركًا كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه السلام.

وقد تظهر الأمور الخارقة للعادة على يد غير الأنبياء، فلا تسمى آيات ولا معجزات.

وفيما يأتي بيان لها:

(١) **الكرامة**: هي الأمر الخارق للعادة الذي يكرم الله به أحد أوليائه الصالحين.

(٢) **المعونة**: هي الأمر الخارق للعادة يمنحه الله لمستور الحال عندما يقع في شدة.

(٣) **الاستدراج**: هو الأمر الخارق للعادة الذي يظهر على يد الفاسق أو الكافر على وفق مراده كالخوارق التي ستظهر على يد (الدجال) في آخر الزمان.

---

(١) انظر: (الإسلام والعقل) للدكتور عبد الحليم محمود صـ١٠٤ وما بعدها.

(٤) **الإهانة**: هي الأمر الخارق للعادة الذي يظهر على يد الفاسق أو الكافر على عكس مراده؛ تكذيبًا له في دعواه، كما حدث لمسيلمة الكذاب عندما أراد أن يفعل كرسول الله ﷺ فتفل في عين أحد جنوده العوراء، فعميت السليمة.

(٥) **الإرهاص**: هو الأمر الخارق للعادة الذي يظهره الله على النبي قبل بعثته؛ تأسيسًا لنبوته، ولفتًا لأنظار قومه إليه، وتوجيهًا لقلوبهم نحوه كإظلال الغمام لنبينا ﷺ.

وآيات الأنبياء قد يختص ببعضها بعضهم، وقد يوجد بعضها لجميعهم:

* فالعصا، وفرق البحر، واليد لموسى لم يكن مثل ذلك لغيره.
* وخروج ناقة من الأرض لم يكن لغير صالح.
* وطاعة الجن والطير، وتسخير الريح لم يكن لغير سليمان.
* وانشقاق القمر، ونزول القرآن، وتفجير الماء من بين الأصابع، وغير ذلك من الآيات لم يكن لغير سيدنا محمد ﷺ.
* أما إحياء الموتى، والإخبار بالغيب، فقد اشترك فيه كثير من الأنبياء وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

شبهات حول عصمة الأنبياء:

هناك آيات قرآنية ربَّما أوهَمَ ظاهرها عدم عصمة الأنبياء، وأنهم ارتكبوا المنهي عنه، لكننا إذا تأملنا وجدناها خلاف ذلك، ولنذكر بعض الأمثلة:

(١) في حق آدم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[طه:١٢١، ١٢٢] فالآية صريحة في أنه: عصى وغوى وهذا ينافي العصمة.

وهذا النص القرآني يجب أن يفهم في ضوء نص قرآني آخر سبقه، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[طه:١١٥].

فقد كان ناسيًا، والناسي لا شيء عليه كالصائم يأكل أو يشرب ناسيًا، وقد أكد ذلك بقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾! وفيه تعليم للبشر، فمن عصى لجأ للتوبة.

وقد كان ذلك قبل النبوة؛ إذ لم تكن له حينئذ أمة، وبدليل قوله: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾[طه:١٢٢] أي: اختاره للرسالة.

وسُمِّي عصيانًا لمكانة آدم عند الله، فقد خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، فهل مَنْ أُكْرِمَ بهذه الفضائل يُتوقع منه تعمد مخالفة؟!

(٢) في حق إبراهيم عليه السلام:

فقد قال: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ لكل من الكوكب، والقمر، والشمس.

لكننا إذا رجعنا إلى الآيات من سورة (الأنعام:٧٤-٨٣) وجدناها مناظرة علمية قيِّمة، بينه وبين قومه، يفترض فيها خليل الله الاحتمال الباطل؛ ليثبت فساده، ويُدَلِّل على وجود الإله الحق، ووحدانيته، وكماله.

وهذا هو المقصود من قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾[الصافات:٨٨، ٨٩].

فالنظر في النجوم للاستدلال بها على صفات الله مطلوب، والمحرم النظر فيها مع الاعتقاد بأنها المدبرة للكون.

وقوله: (إني سقيم) أي: من الحزن على قومه لإبائهم الحق.

وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٣].

أراد به تنبيههم إلى أن الأصنام لا تسمع، ولا تنطق، فلا تصلح للألوهية.

وقوله: (فعله كبيرهم) هو من باب التوبيخ، مثل قوله ـ تعالى ـ للكافر: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[الدخان:٤٩].

وقوله لزوجه (سارة) عند ذهابها إلى الملك الجبار: «إن سألك فأخبريه أنك أختي» فليس كذبًا؛ لأنها أخته في الإسلام.

(٣) في حق يوسف عليه السلام:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف:٢٤].

هذا الهمُّ هو الميل الطبيعي لدى كل بشر سَوي؛ إذ لو جردنا يوسف عن طبيعته البشرية، ما كان له فضل في عدم ارتكابه للمعصية مع وجود الرغبة، والقدرة، والظروف المهيأة، ومع ذلك (استعصم) كما اعترفت هي بذلك.

وهذا الهمُّ لا يؤاخذ عليه الإنسان[١] قال ﷺ: **«مَن همَّ بسيئة فعملها كتبت**

(١) أنواع القصد خمسة، لا يعاقب الإنسان إلا على النوع الأخير منها وهو العزم. وهاك هي:

مَرَاتِبُ القَصْدِ خَمْسٌ: هَاجِسٌ ذَكَرُوا ... فَخَاطِرٌ فَحِدِيثُ النَّفْسِ فَاسْتَمِعَا
يَلِيهِ هَـمٌّ فَعَـزْمٌ كُلُّهَا رُفِعَتْ ... سِوَى الأَخِيرِ فَفِيهِ الأَخْذُ قَدْ وَقَعَا

له سيئة واحدة، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة»[1]، فهذا الموقف يُحسَب له، لا عليه، وكان قبل النبوة لا بعدها.

وقد شهدت ببراءته فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف:٣٢]، وقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾[يوسف: ٥١]، وشهد زوجها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾[يوسف:٢٨، ٢٩]، وشهدت النسوة وقلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[يوسف:٥١]، وشهد الملك: ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف:٥٤].

(٤) في حق موسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

[القصص:١٥، ١٦].

إذا تأملنا هذا النص لاحظنا أمرين:

الأمر الأول: أن تصرف موسى عليه السلام هو من قبيل دفع الصائل، وإغاثة الملهوف، ورفع الظلم عن المظلوم، وهذا لا إثم فيه، بل هو واجب على القادر في الشرائع.

---

(١) رواه الإمام مسلم في الإيمان (١/ ١١٨).

الأمر الثاني: معنى قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي ضربه بكفه على ذقنه، وهذه الضربة ليست قاتلة، فمن مات منها؛ فلأن ذلك قد وافق أجله، ويكون موته من قبيل القتل الخطأ الذي لا يؤاخذ عليه فاعله، طالما حَسُنت نيته، وسَلِم قصدُه، كما أنه كان قبل بعثته؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الشعراء: ٢١]، ومع ذلك فقد استغفر موسى ربه؛ تواضعًا منه مع الله تعالى.

(٥) في حق داود عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾

[سورة ص: ١٧-٢٥].

إذا تأملنا هذه الآيات، وجدنا قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[سورة ص: ٢٤]، جاء وسط ثناء من الله على داود، فقد وصفه بعدة صفات تقدَّمت هذه الآية وهي: الصَّبر، والعبودية، والقوة في الدين

والبدن، والرجوعُ إلى الله فقد كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ويقوم ثلث الليل، وتسخيرُ الجبال والطير له، وقوة المُلك والنُّبوة، وفصل الخطاب، ثم جاء بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[سورة ص: ٤٠].

في هذا الجو من الثناء والمدح لداود نستطيع أن نفهم القصة:

إن داود ملك له سلطان، وله أعداء، وكان قد قسَّم وقته بين سياسة الملك وعبادة الله في محرابه الخاص به، وفوجئ في أثناء عبادته ببعض أعدائه، يقتحمون عليه مكان عبادته، وكان من عادة بني إسرائيل قتلُ الأنبياء، فلما وجدوه مستيقظًا، اختلقوا هذه القصَّة التي ذكروها، وتمالك داود أعصابه، واستمع منهم، وحكم في القضية، ولم يُنَفِّذ ما همَّ به من إنزال العقوبة اللائقة بهم لتهجمهم عليه، وترويعهم له، بل إنه استغفر ربَّه لما همَّ به وعزم عليه.

هذه هي القصة، وليس فيها شيء ينافي العصمة.

(٦) في حق سليمان عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ٣١ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ٣٢ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ٣٣ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ٣٥ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ٣٨ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾

[سورة ص: ٣٠-٤٠]

نبيُّ الله سليمان كان محبًّا للجهاد في سبيل الله، شديد العناية بوسائله التي أهمها في عصره (الخيل) فكان مهتمًّا بعنايتها ورعايتها، وأمر قواده ذات يوم بإحضارها لتفقدها، وأخذ يستعرضها ويقول: إني أحببتها، وحبها من ذكر ربي؛ لأنه عمل يُتقرب به إليه، حتى توارت الخيل عن بصره لكثرتها البالغة. فطلب أن يُعيدوها عليه مرة أخرى لمزيد الاطمئنان على قوتها ولياقتها للغزو، وأخذ يمسح بيده سُوقها وأعناقها؛ تكريمًا لها، وإعجابًا بقوتها.

فالمسح هنا مثل المسح في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، إذ ليس المراد قطع الرءوس في الوضوء[(١)].

ولقد اختبر الله نبيه سليمان باختبار هو درس له، وتعليم للأمة، هذا الدرس يمكننا أن نستنتجه من الحديث الآتي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ سُلَيْمَانُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَايْمُ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ»[(٢)].

فالجسد المذكور في الآية هو شق الصبي المذكور في الحديث.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ [سورة ص:٣٥]، أي: نسيان قول: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، وإن كان الناسي لا يؤاخذ، لكنه مقام النبوة!!

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤)

(٢) رواه البخاري في الإيمان والنذور – الفتح (١١/ ٥٣٣) ومسلم في الإيمان (٣/ ١٢٧٦).

وأما طلبه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فذلك ليكون معجزة له دالة على نبوته. وخاصة أنه مرسل إلى اليهود وهم عبيد المال والحكم.

وقد تفضل الله عليه بهذه النِّعم المذكورة في الآيات تكريمًا له. وختم قصة سليمان بما ختم به قصة داود؛ حتى لا يتسرب أدنى شك في عصمة كل منها: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[سورة ص:٤٠].

(٧) في حق نبينا محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾[عبس:١، ٢].

- ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢].

- ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال:٦٧].

- ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[التوبة:٤٣].

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾[الأحزاب:١].

- ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ﴾ [الأحزاب:٣٧].

- ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:٣٩].

- ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

- ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[الحاقة: ٤٤-٤٦].

ولكي نفهم هذه الآيات الفهم اللائق بمقامه ﷺ نُنَبِّه إلى أمور:

الأول: هناك مواقف حدثت له ﷺ لم ينزل فيها وحي، فكان عليه أن يجتهد فيها، ومن المعلوم أن الخطأ في الاجتهاد ـ على فرض وقوعه ـ ليس معصية، بل إنَّ صاحبه له أجر وثواب على ما بذله من جهد في الموازنة والترجيح طلبًا للحق والصواب، وهو في هذه المواقف قدوة للأمة؛ حتى تبذل جهدها فيما لا نص فيه، ولا تتجمد فتتأخر، وتعلم أنه لا غضاضة في الرجوع عن الرأي إذا ظهر أنه غير الحق والصواب، أو أنه غير الأولى والأرجح

الثاني: أن ترك الأولى لا يُعَدُّ ذنبًا يستحق العتاب، فإذا جاء عتاب على ترك الأولى دلَّ ذلك على عظمة النبيِّ الذي يُعاتَب من حبيبه على ترك الأولى!!

الثالث: قد يخاطب الله رسول الله ﷺ ويكون المقصود خطاب الأمة، وخاصة ما فيه إنذار ووعيد، وهذا أسلوب معروف في اللغة العربية، فيكون الخطاب من باب: (إياكِ أعني واسمعي يا جارة).

الرابع: من القواعد المقررة:

- أنَّ (الأمر) لا يستلزم سابقة تركه.
- وأنَّ (النهي) لا يستلزم سابقة فعله.
- وأنَّ (الشرط) لا يستلزم وقوع مضمونه.
- وأنَّ (الفعل) لا يُعَدُّ معصية إلا إذا سبقه نهي عنه.

فإذا ما عُدْتَ إلى الآيات المذكورة، وجدتها لا تخرج عما نبهت إليه، والله أعلم.

أدلة نبوة سيدنا محمد ﷺ:

أولاً: القرآن الكريم:

وهو معجزته الكبرى التي تحدَّى بها الإنس والجن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور، أو بسورة من مثله، فلم يستطيعوا، ولو قدروا على معارضته لفعلوا، ولو فعلوا لنُقِل إلينا لتوافر دواعي النقل، فثبت أنه معجزة دالة على صدقه في دعوى النبوة.

ثانيًا: إخباره بالغيب:

ومنه ما جاء في القرآن مما سبق ذكره.

ومنه ما جاء في السنة المطهرة. من ذلك:

- «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»(١).
- «النُّبُوَّةِ ثَلاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي اللهُ الْمُلْكَ - أَوْ مُلْكَهُ - مَنْ يَشَاءُ»(٢).
- وقوله لسيدنا عمار: «تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ»(٣) وقُتِل يوم صفين.

وهو يدل على انقسام الأمة، وأن إحدى الفئتين باغية، وأن عمارًا سيموت مقتولًا، وأن الباغية هي التي ستقتله.

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده عن حذيفة (٥/ ٣٨٢).
(٢) رواه أبو داود في السنة (٥/ ٣٧).
(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أم سلمة (٦/ ٣٠٠) ومسلم (٤/ ٢٢٣٦).

وأخبر عن موت (النجاشي) في اليوم الذي مات فيه وصلى عليه بأصحابه[١].

ونعى زيدًا، وجعفرًا، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم. فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تَذْرفان ـ حتى أخذ سيفٌ من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم[٢]. وذلك في غزوة مؤتة.

وأخبر أم حرام بنت ملحان زوج عبادة بن الصامت أنها ممن سيركب البحر غزاة في سبيل الله، وقد حدث ذلك في زمن معاوية في فتح قبرص سنة ثمان وعشرين[٣].

وقال ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا أَوْ قَالَ: ذِمَّةً وَصِهْرًا»[٤].

ولمَّا صعد جبل أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف فقال: «اسْكُنْ أُحُدُ أَظُنُّهُ ضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ، وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ»[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «هَلَكَ كِسْرَى، ثُمَّ لَا يَكُونُ كِسْرَى

---

(١) رواه البخاري في الجنائز – الفتح (٣/ ٤٥٥) ط. الحلبي.
(٢) رواه البخاري في فضائل الصحابة – الفتح (٧/ ١٢٦).
(٣) رواه البخاري في الاستئذان – الفتح (١١/ ٧٣/ ح:٦٢٨٢).
(٤) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٤/ ١٩٧٠) والقيراط جزء الدينار والدرهم وغيرهما: والرحم هاجر أم إسماعيل، والصهر لكون مارية أم إبراهيم منهم.
(٥) رواه البخاري كذلك في فضائل الصحابة (٧/ ٦٦).

بَعْدَهُ، وَقَيْصَرُ لَيَهْلِكَنَّ، ثُمَّ لا يَكُونُ قَيْصَرُ بَعْدَهُ، وَلَتُقْسَمَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللهِ»[1].

وفي الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال: قام رسول الله ﷺ فينا مقامًا، ما ترك فيه شيئًا إلى قيام الساعة إلا ذكره، حفظه مَن حفظه، وجهله مَن جهله.

ثالثًا: معجزاته الحسية: من ذلك:

١) انشقاق القمر:

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةً فَوْقَ الْجَبَلِ، وَفِرْقَةً دُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اشْهَدُوا»[2].

٢) نزول الملائكة لنصره في الحرب:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾

[آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال:٩].

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى

---

(١) رواه البخاري في الجهاد - الفتح (٦/ ١٨٢).

(٢) رواه البخاري في التفسير - الفتح (٨/ ٥٨٣).

فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[الأنفال:١٢].

٣) إرسال الرياح لتأييده:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾

[الأحزاب:٩].

٤) نبوع الماء من بين أصابعه:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَحَانَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ، فَالْتَمَسَ النَّاسُ الْوَضُوءَ، فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِوَضُوءٍ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي ذَلِكَ الإِنَاءِ يَدَهُ، وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَوَضَّؤُوا مِنْهُ، قَالَ: فَرَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ تَحْتِ أَصَابِعِهِ، فَتَوَضَّأَ جميع أصحابه. قال: قلت - أي: الراوي عن أنس -: كم كانوا يا أبا حمزة؟ قال: كانوا زهاء الثلاثمائة[(١)].

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ فَتَوَضَّأَ مِنْهَا ثُمَّ أَقْبَلَ النَّاسُ نَحْوَهُ فَقال رسول الله ﷺ: «مَا لَكُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ بِهِ وَلَا نَشْرَبُ إِلَّا مَا فِي رَكْوَتِكَ قَالَ: فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فِي الرَّكْوَةِ فَجَعَلَ الْمَاءُ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ قَالَ: فَشَرِبْنَا وَتَوَضَّأْنَا، فَقُلْتُ لِجَابِرٍ: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً[(٢)].

---

(١) رواه مسلم في الفضائل (٤/ ١٧٨٣).

(٢) رواه البخاري في المغازي – الفتح (٧/ ٥٠٥/ ٤١٥٢).

وقد تكرر نبع الماء من بين أصابعه ﷺ عدة مرات، وفي أماكن مختلفة، ولم يَحدث نبع الماء من بين الأصابع لغيره من الأنبياء، وهو أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر عندما ضربه موسى بالعصا، فتفجرت منه المياه؛ لأن خروج الماء من الحجارة أمر معهود، بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم.

٥) إشباع الخلق الكثير من الطعام القليل:

فعندما صنعت أمُّ سُلَيم طعامًا قليلًا من مد شعير، ودعا زوجها أبو طلحة رسولَ الله جاء، وبارك الطعام. وقال: ما شاء الله أن يقول، ثم قال لأبي طلحة: ائذن لعشرة فأذِنَ لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا. ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا. ثم خرجوا. ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا. ثم خرجوا. ثم قال: ائذن لعشرة. فأكل القوم كلهم حتى شبعوا، والقوم ثمانون رجلًا[١].

وكذلك عندما صنعت زوج جابر بن عبد الله طعامًا (عنزًا وصاعًا من شعير) وقال جابر: يا رسول الله، تعالَ ونفرٌ معك. فجاءه بالمهاجرين والأنصار الذين معه في غزوة الخندق، وكانوا ألف رجل، فأكلوا جميعًا حتى شبعوا، وبقي بقية من هذا الطعام القليل[٢].

٦) حنين الجذع:

قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفًا على جذوع من النخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب، يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر، فكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكت.

(١) رواه البخاري في المناقب – الفتح (٦/ ٦٧٨/ ح: ٣٥٧٨).
(٢) رواه البخاري في المغازي – الفتح (٧/ ٤٥١/ ح:٤١٠١، ٤١٠٢).

وفي رواية: «يئنُّ أنين الصبي»(١).

عن عمرو بن سواد عن الشافعي قال: ما أعطى الله نبيًّا ما أعطى محمدًا، فقلت: أعطى عيسى إحياء الموتى، قال: أعطى محمدًا حنين الجذع حتى سُمِع صوته، فهذا أكبر من ذلك.

وكان الحسن إذا سمع بهذا الحديث يقول: يا معشر المسلمين، الخَشَبَةُ تَحِنُّ إلى رسول الله شوقًا إلى لقائه، فأنتم أحقُّ أن تشتاقوا إليه.

والمعجزات الحسية كثيرة جدًّا. ذكر الإمام النووي في مقدمته لشرح صحيح الإمام مسلم أنها تزيد على ألف ومائتين.

رابعًا: ذكره في الكتب السماوية السابقة:

تعود بعض علمائنا أن يذكروا في هذا الشأن بعض نصوص الكتب السابقة التي تُبَشِّرُ ببعثته، وتذكر بعض صفاته ﷺ كما فعل (سعد الدين التفتازاني) فقد أورد نصوصًا من التوراة، ومن الإنجيل، ومن الزبور تشير إلى ذلك ـ فليرجع إليها من شاء(٢).

وأكتفي بذكر حديث رواه الإمام البخاري بهذا الصدد:

عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ، قَالَ: أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا

(١) رواه البخاري في المناقب – الفتح (٦/ ٦٩٦) والعشار: جمع عشراء، وهي الناقة التي انتهت في حملها إلى عشرة أشهر.

(٢) مقاصد الطالبين (٢/ ١٣٩).

وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»[1].

وقد سجل القرآن الكريم أن ذكره ﷺ موجود في الكتب السابقة، فقال:

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الشعراء:١٩٦].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف:١٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ﴾[الصف:٦].

خامسًا: معرفة أهل الكتاب له:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٤٦].

(١) رواه البخاري في البيوع – الفتح (٤/ ٤٠٢/ح:٢١٢٥)، وحرزًا للأميين، أي: حصنًا للعرب، والملة العوجاء: ملة الكفر.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[القصص:٥٢-٥٥].

وهذه الآيات نزلت في عشرين رجلًا من علماء النصارى قدموا من الحبشة إلى مكة، حين ظهر خبر النبي ﷺ فكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله ﷺ عما أرادوا: دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله ـ عز وجل ـ وتلا عليهم القرآن، فآمنوا به، وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا من عنده، اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقال: خيَّبكم الله من ركب بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم؛ ترتادون لهم، فتأتونهم بخبر الرجل، فلم تظهر مجالستكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم: ما نعلم ركبًا أحمق منكم. فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم. لنا أعمالنا، ولكم أعمالكم. لا نألوا أنفسنا خيرًا[(١)].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾

[الشعراء:١٩٧].

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ بَلَغَ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلَامٍ مَقْدَمُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ.

قَالَ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ وَمِنْ أَيِّ

(١) تفسير القرطبي ص٥٠١٢.٢٢٥٢، ط الشعب.

شَيْءٍ يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَخْوَالِهِ؟

فَقَال رسول الله ﷺ: «خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفًا جِبْرِيلُ».

قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ.

فَقَال رسول الله ﷺ: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنْ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ.

وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ.

وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الْوَلَدِ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ الْمَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا». قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ[(١)].

وفي رواية أن عبد الله بن سلام قال لإخوانه: «يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق»[(٢)].

ونزل فيه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأحقاف:١٠]. وعلى هذا فالآية مدنية والسورة مكية.

ويقول (زيد بن سعنة) أحد أحبار اليهود: لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه محمد حين نظرت إليه إلا اثنين لم أخبرهما منه: يسبق حلمُه غضبه، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، وكنت أتلطف لأن أخالطه، وأعرف حلمه وجهله، فبايعته بأجل، فلما كان قبل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته،

(١) رواه البخاري في الأنبياء/ الفتح (٦/ ٤١٧/ ح:٣٣٢٩).
(٢) رواه البخاري في مناقب الأنصار – الفتح (٧/ ٢٩٤/ ح:٣٩١١).

فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ، ثم قلت: ألا تقضي يا محمد حقي؟ والله ما علمتكم يا بني عبدالمطلب لسيئ القضاء مُطْل، قال: فنظرت إلى عمر وعيناه تدوران في وجهه، ثم قال: أي عدو الله، أتقول لرسول الله ما أسمع! فو الذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فَوْتَه لضربت بسيفي رأسك. ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتبسُّم. ثم قال: «**يا عمر أنا وهو إلى غير هذا منك أحوج: أن تأمره بحسن الاقتضاء، وتأمرني بحسن القضاء.**

اذهب به يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعًا مكان ما روّعته».

قال زيد: فذهب بي عمر، فقضاني وزادني، فأسلمت[(١)].

وقد سبق أن ذكرنا قول (هرقل) لأبي سفيان بعد حواره الطويل: «إن يكن ما تقول حقًّا، فهو نبي، وسيملك ما تحت قدميَّ هاتين».

وقول (النجاشي) لسيدنا جعفر بن أبي طالب بعد أن استمع القرآن الكريم: «إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة».

وتدبر ما نزل في سورة (آل عمران) في شأن وفد نصارى (نجران) وعددُهم ستون رجلًا، فيهم كبار رجال دينهم، وما دار بينهم وبين رسول الله ﷺ من مناظرات، انتهت بدعوته لهم إلى (المباهلة) لكنَّ (العاقب) وكان ذا رأيهم قال لهم: «والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أنَّ محمدًا نبيٌّ مرسلٌ، وما باهَلَ قومٌ نبيًّا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم».

وعندما خرج رسول الله محتضنًا للحسين، آخذًا بيد الحسن، وفاطمة تمشى خلفه، وعليٌّ خلفها، وهو يقول: «إذا أنا دعوتُ فأمِّنوا»، قال أسقف

---

(١) أسد الغابة (٢/ ١٢٦) والإصابة (٤/ ٥٤).

نجران: «يا معشر النصارى، إنِّي لأرى وجوهًا، لو سألوا الله أن يُزيل جبلًا لأزاله بها، فلا تُباهِلوا، فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني». وأصرُّوا على باطلهم. على الرغم من معرفتهم للحق، ودفعوا الجزية.

وقد سجَّل القرآن الكريم إيمان بعض النصارى الذين هداهم الله للحق فقال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

[المائدة:٨٢-٨٥].

سادسًا: سيرته ﷺ الذاتية:

إنَّ الذي يَدْرسُ حياة سيدنا محمد ﷺ من جوانبها المختلفة دراسة علمية دون تعصب أو هَوى يُدرك يقينًا أنه نبي.

وقد ذكرت طرفًا منها في أثناء حديثي عن (صفات الأنبياء وعلاماتهم).

وفصَّلت القول في بعض جوانبه الأخلاقية في كتابي: (أخلاقنا).

وسيظل العلماء يحاولون كشف أسرار هذه الشخصية، ولكن أنَّى لهم ذلك، وهو أفضل الخلق، وخير من سار على الأرض، وصفوة الرسل والأنبياء

عليهم الصلاة والسلام، وصدق الشاعر (محمود غنيم) إذ يقول:

هـل تطلبـون مـن المختـار معجـزةً　　　يكفيـه شـعبٌ مـن الأجـداث أحيـاه

❊ ❊ ❊

ختم النبوة بسيدنا محمد ﷺ:

الأدلة على ذلك:

١) قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب:٤٠].

والنبي أعم من الرسول، فيلزم من ختم الأنبياء ختم الرسل، ولا يطعن في ختمه للأنبياء والرسل نزول عيسى عليه السلام؛ لأنه سيحكم بشريعة محمد ﷺ وسيكون فردًا من أمته، ولا ينافي ذلك أنه سيحكم برفع الجزية عن أهل الكتاب، ولا يقبل منهم إلا الإسلام، فيكون ذلك نسخًا لحكم من أحكام الإسلام؛ لأن الإسلام جعل قبول الجزية موقوتًا بنزول عيسى عليه السلام، فإذا نزل انقطعت شبهتهم في اتباعه.

٢) قال ﷺ: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ**» رواه مسلم.

٣) وقال ﷺ: «**إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يُمْحَى بِيَ الْكُفْرُ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى عَقِبِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ**». متفق عليه.

٤) وقال ﷺ: «**فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى**

الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ» رواه مسلم.

عموم بعثته إلى الإنس والجن والعرب والعجم:

١) الأدلة من القرآن الكريم:

- ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨].

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[سبأ:٢٨].

- ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[الأنعام:١٩].

- ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾[آل عمران:٢٠].

- ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[الأحقاف:٢٩].

- ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن:١].

٢) ومن السنة المطهرة:

«أعطيت خمسًا لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة» رواه مسلم.

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» رواه مسلم.

وقد أرسل رسله، وبعث كتبه في أقطار الأرض إلى: كسرى، وقيصر، والنجاشي، والمقوقس، وسائر ملوك العالم يدعوهم إلى الإسلام.

وأما قول (العيسوية) من النصارى: إنه رسول إلى العرب خاصة، فالجواب عنه: إنهم إذا اعترفوا برسالته لزمهم تصديقه في كل ما يخبر به، ومما أخبر به أنه رسول الله إلى الناس عامة، والرسول لا يكذب فلزم تصديقه حتمًا.

* * *

دفاع الله عن نبيه محمد ﷺ:

أثار المشركون وأهل الكتاب تهمًا وافتراءات عديدة حول سيدنا محمد ﷺ؛ قصدًا لصرف الناس عنه وعن دعوته، وقد تولى الحق ـ سبحانه ـ رَدَّ هذه التهم والدفاع عنه ﷺ.

وفيما يلي نعرض بعض النماذج لهذا:

(١) قالوا: إنه شاعر: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء:٥].

وردَّ عليهم الحق: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[يس:٦٩، ٧٠].

وبقوله: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات:٣٦، ٣٧].

وبقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾[الطور:٣٠، ٣١].

(٢) وقالوا: إنه كاهن مع علمهم بأن الرسول يسب الشياطين. فكيف يتعاونون معه، وينزلون عليه شيئًا وهم محجوبون عن ذلك؟!

ودافع عنه الحقُّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

[الحاقة:٣٨-٤٢].

وقال له الحق: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾

[الطور:٢٩].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾[الشعراء:٢١٠-٢١٢].

(٣) وقالوا: إنه ساحر: وقالوا: إنه مسحور فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾[الذاريات:٥٢].

وقال تعالى: ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾[الفرقان:٨، ٩].

(٤) وقالوا: إنه مجنون: ورد عليهم الحق سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾[الأعراف:١٨٤].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾

[المؤمنون:٧٠].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ ﴾[سبأ:٤٦].

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ③ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم [١-٤].

(٥) وتعجبوا من أن تكون الرسالة لمحمد اليتيم الفقير، فالأولى - في نظرهم - أن تكون لأحد أشراف مكة أو الطائف الأغنياء: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف:٣١].

فَرَدَّ عليهم الحقُّ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[الزخرف:٣٢].

(٦) وينكرون رسالته: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ ﴾[الرعد:٤٣].

ويرد عليهم: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[الرعد:٤٣].

ويقول: ﴿يسٓ ① وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ③ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[يس:١-٤].

(٧) ويعترضون على أكله الطعام، ومشيه في الأسواق، وتزوجه بالنساء: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[الفرقان:٧].

ويرد عليهم الحق سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ ﴾[الفرقان:٢٠].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[الرعد:٣٨].

﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[الأحزاب:٣٨].

أي: ليس عليه حرج فيما أباح له ـ تعالى ـ من الزوجات، فهذه سنة الله في الأنبياء السابقين من التوسعة عليهم في النكاح كداود وسليمان عليهما السلام.

(٨) وكان المشركون إذا سمعوا من رسول الله ﷺ الأخبار الماضية والمستقبلية قالوا: إن محمدًا يتعلمها من (جبر الرومي) النصراني غلام الفاكه بن المغيرة الذي يجلس مع محمد بعدما أسلم، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ﴾[النحل:١٠٣].

فرد الله عليهم: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل:١٠٣].

وقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[العنكبوت:٤٨].

(٩) وقال المشركون: لو كان رسولًا لأتى بما نطلبه من الآيات الخارقة، ولجاء بالله والملائكة معه: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[الحجر:٦، ٧].

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ

﴿مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[الإسراء:٩٠-٩٣].

ويرد عليهم الحق: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٣].

ويقول سبحانه: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر:٨].

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨].

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ⁽١٤⁾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[الحجر:١٤، ١٥].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الأنعام:٧].

(١٠) واعترضوا على نزول القرآن مفرقًا، ولم ينزل كاملًا كالكتب السابقة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾[الفرقان:٣٢].

ويرد عليهم الحق مبينًا حكمة تفريقه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[الفرقان:٣٢].

ويقول: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦].

(١١) ولما اتهمه المنافقون بأنه يسمع كثيرًا، ويصدق كل ما يقال دون تمييز بين الخير وغيره، دافع عنه الحق، وتوعدهم بالعذاب الأليم فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة:٦١].

(١٢) ولما مات (القاسم) ابنه ﷺ قال المشركون: إن محمدًا أبتر لا عقب له، أي: لا نسل له، فإذا هلك انقطع ذكره.

فدافع عنه ربه وقال له: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۞ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[الكوثر:١-٣].

* * *

تعظيم الله لسيدنا محمد ﷺ:

أولًا: زكى الله – تعالى – نبيه محمدًا ﷺ:

جملة؛ فقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[النجم:١، ٢].

- وزكى كلامه فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣، ٤].

- وزكى مُعلمه فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[النجم:٥].

- وزكى قلبه فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[النجم:١١].

- وزكى بصره فقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[النجم:١٧].

- وزكى خلقه فقال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤].

- فزكاه جملة وتفصيلًا، وما فعل ذلك لنبي غيره.

ثانيًا: لم يناده الحقُّ إلا باللقب الدال على تعظيمه، مثل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾[الأحزاب:١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾[المائدة:٦٧]، بينما نادى غيره من الرسل والأنبياء بأسمائهم مجردة، مثل:

- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[الأعراف:١٩].

- ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[هود:٤٦].

- ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾[هود:٧٦].

- ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾[القصص:٣١].

- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[سورة ص:٢٦].

- ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[مريم:١٢].

- ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾[آل عمران:٥٥].

ونهى الأمة أن تناديه باسمه. كما كانت الأمم تنادي أنبياءهم بأسمائهم:

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾[هود:٣٢]، ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾[هود:٥٣]، ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[الأعراف:١٣٨]، ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾

[هود:٩١].

فلما ناداه بعض المسلمين باسمه المجرد: (يا محمد) أو بكنيته: (يا أبا

القاسم) نهاهم الحق بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[النور:٦٣].

ثالثًا: أخبر - تعالى - أنه قد شرح له صدره، ووسعه؛ ليشمل علم الأولين والآخرين، ووضع عنه وزره بأن خفف عليه ثقل أعباء النبوة[(١)]، ورفع ذكره، فبشَّر به في الكتب السابقة، وأخذ العهد والميثاق على الأنبياء أن يؤمنوا به، وينصروه؛ إن ظهر في زمانهم؛ فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[آل عمران:٨١].

وقرن اسمه باسمه في الشهادتين عند دخول الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والتشهد في الصلاة، وفي خطب الجمعة والعيدين.

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[الشرح:١-٤].

رابعًا: أخبر - تعالى - أنه وملائكته يصلون عليه، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه وجعلها قربة يتقربون بها إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦]، والتعبير بالمضارع (يصلون) يدل على التجدد والاستمرار.

خامسًا: أقسم بحياته ﷺ ولم يقسم بحياة أحد من خلقه فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[الحجر:٧٢] أي: وحياتك يا محمد إنهم لفي

(١) الوزر في أصل اللغة: الثقل، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[محمد:٤].

ضلالهم يتحيرون، ولا يرون الرشد والحق، وكما أقسم بحياته: أقسم ببلده فقال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾[البلد:١، ٢].

وكما أقسم به وببلده: أقسم له: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾[الضحى:١-٥].

سادسًا: نهى عن التقدم بين يديه - ويدخل فيه تقديم الرأي على ما صح من حديثه - ورفع الصوت عليه - ويدخل فيه رفع الصوت على حديثه الذي يقرأ - وحرم الجهر بالكلام عند مناجاته، وأوعد من لم يتأدب معه ببطلان ثواب عمله، ووصفه بعدم العقل.

وهذه التوجيهات عامة تشمل حياته، وعند زيارته بعد موته.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[الحجرات:١-٤].

روي القاضي عياض عن ابن حميد قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكًا في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله - تعالى - أدّب قومًا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾[الحجرات:٢]، ومدح قومًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ

أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[الحجرات:٣] وذمَّ قومًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[الحجرات:٤] وإن حرمته ميتًا كحرمته حيًّا.

فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله، أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ﷺ؟

فقال: ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله -تعالى- يوم القيامة! بل استقبله، واستشفع به، فيشفعك الله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[النساء:٦٤][1].

ومعلوم أن هذه الآية عامة، والعام يبقى على عمومه إلى أن يَرِد دليل التخصيص، ولا مخصص لها.

سابعًا: نفي الإيمان عمن لم يذعن لحكمه ﷺ، ويستسلم لقضائه استسلامًا تامًّا، لا يبقى معه أدنى حرج في نفسه، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥]، وجعل طاعته ﷺ طاعة لله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[النساء:٨٠]، وجعل اتباعه طريق محبة الله وغفران الذنوب: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[آل عمران:٣١]، وجعل مبايعته مبايعة لله ﴿إِنَّ

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٣٣).

﴿ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[الفتح:١٠].

ثامنًا: جعل وجوده بين الناس مانعًا من نزول العذاب بقومه على الرغم من أنهم يستحقونه لكفرهم وعنادهم؛ تكريمًا له ﷺ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال:٣٢، ٣٣].

وتكفل بحفظه وعصمته فقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]، ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر:٩٥]، ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة:٦٧].

تاسعًا: جعل زوجاته رضي الله عنهن مؤمنات، ولسن كافرات كما كان لبعض الأنبياء، مثل: نوح ولوط، وجعلهم أمهات للمؤمنين فقال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[الأحزاب:٦].

وفرض عليهن الحجاب؛ صيانة له ولهن، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[الأحزاب:٥٣].

ولم يوجب عليه القَسم بينهن، وإنما خيَّره فيه فقال: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب:٥١].

وأباح له نكاح النساء بلفظ الهبة دون صداق، ولم يفعله ﷺ فقال: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأحزاب:٥٠].

وحرَّم على المسلمين نكاح زوجاته من بعده، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٥٣].

وطهَّر ذريته ﷺ فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب:٣٣].

عاشرًا: جعل أمته أمة وسطا خيارًا عدولًا، شهودًا على الأمم السابقة أن رسلهم بلغوهم الرسالة، وجعله شهيدًا على هذه الأمة، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة:١٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج:١-٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الشاهد محمد ﷺ والمشهود يوم القيامة.

بعض خصائصه ﷺ:

١- أوجب عليه أمورًا لم يوجبها على أمته؛ ليكون أجره أعظم، وجزاؤه أوفى مثل: صلاة الليل، والوتر، وركعتي الفجر، وقضاء دين من مات مسلمًا معسرًا.

٢- حرَّم عليه أمورًا لم يحرمها على أمته، مثل: قبول الصدقة، والزكاة، وأكل ما له رائحة كريهة، كالثوم والبصل، ومد العين إلى ما مُتِّع به الناس.

٣- أباح له أمورًا لم تُبح لغيره من أمته، مثل: نكاح أكثر من أربع نسوة، والقضاء والحكم فى الغضب؛ لأنه لا يقول إلا حقًّا.

٤- واختصه بفضائل لم توجد لغيره، منها:

- أخذ الميثاق على النبيين أن يؤمنوا به وينصروه.
- جاء التبشير به في الكتب السماوية السابقة.
- لم يقع في نسبه من لدن آدم سفاح - رواه البيهقي.
- وُلد مختونًا مقطوع السُّرَّة - رواه الطبراني.
- يرى مَن خلفه كمن يرى من أمامه. رواه مسلم.
- يرى في الليل في الظلمة، كما يرى في النهار والضوء - رواه البيهقي.
- ليس له ظل في شمس ولا قمر.
- غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.
- كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببه ونسبه. النسب بالولادة، والسبب بالزواج.

نبينا ﷺ أفضل الخلق:

وبعد فهذه عشرة أمور مما جاء في تعظيم الله - تعالى - لنبيه محمد ﷺ وبعض خصائصه وقد أجمعت الأمة على أفضليته على كل الأنبياء، وجميع المخلوقات ، ولا يتعارض ذلك مع قوله ﷺ: «**لا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ**»[1].

لأمور نذكرها فيما يأتي:

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل (٤/ ١٨٤٣).

الأمر الأول: أن مبدأ التفضيل ثبت بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣].

الأمر الثاني: أن المنهي عنه التفضيل الذي تدعو إليه العصبية والهوى، أو الانتقاص من شأن المفضول، أما إذا كان على وجه إظهار الحق، ومعرفة القدر فهو جائز توفيقًا بين النصوص.

تأمل ما رواه الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَةً لَهُ أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ أَوْ لَمْ يَرْضَهُ قَالَ: لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبَشَرِ. قَالَ: فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، قَالَ: تَقُولُ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبَشَرِ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟ قَالَ: فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا. وَقَالَ: فُلَانٌ لَطَمَ وَجْهِي! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟» قَالَ: قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبَشَرِ، وَأَنْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا! قَالَ: فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى عُرِفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ**».

قَالَ: «**ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ أَوْ فِي أَوَّلِ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آخِذٌ بِالْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ أَوْ بُعِثَ قَبْلِي، وَلَا أَقُولُ: إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ**»(١).

الأمر الثالث: ما ورد من أحاديث نبوية يفهم منها تفضيل بعض الأنبياء على

(١) هو الحديث السابق بتمامه، والصعق هو الهلاك والموت.

سيدنا محمد ﷺ إنما هو من باب تواضعه ﷺ، وذلك مثل ما رواه مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ**»(١).

فهذا من تواضعه، والتواضع لا يحط من درجة الكبير، بل يزيده رفعة وجلالًا، وأيضًا من باب الأدب واحترام الأبوة وتقديرها.

ومثل ما رواه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَكْرَمُ النَّاس؟ قَالَ: «**أَتْقَاهُمْ**». قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: «**فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ خَلِيلِ اللهِ**». قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: «**فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا**»(٢).

ومثل ما رواه أيضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، وَيَرْحَمُ اللهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ لَبْثِ يُوسُفَ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ**»(٣).

فهو ﷺ يرد على الصحابة الذين قالوا عند نزول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[البقرة:٢٦٠]، وقالوا: إن إبراهيم شك ونبينا لم يشك.

وقالوا عند نزول قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ

(١) رواه مسلم في الفضائل (٤/ ١٨٣٩).
(٢) رواه مسلم في الفضائل (٤/ ١٨٤٦).
(٣) رواه مسلم في الفضائل (٤/ ١٨٣٩).

شَدِيدٍ﴾[هود:٨٠]. قالوا: إن لوطًا تمنى العشيرة التي يعتمد عليها، ونبينا لم يعتمد إلا على الله.

وقالوا: عندما نزل على لسان يوسف ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[يوسف: ٤٢]، أي: مليكك، قالوا: يوسف يسأل الملك، ونبينا لم يسأل إلا الله.

دفعه تواضعه ﷺ إلى الرد على الصحابة:

فإبراهيم عليه السلام لم يشك في وقوع البعث، فهو مؤمن به يقينًا، والسؤال بكيف يكون عن حال الشيء الموجود المعتقد صحته الذي يشتاق القلب إلى رؤية كيفيته، والمراد بالشك الخواطر التي تعرض للقلب ولا تدوم، وقال بعض العلماء: إن صيغة أفعل (أحق) تأتي لنفي المعنى عن الشيئين مثل: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾[الدخان:٣٧]، أي: لا خير فيهما، فقوله ﷺ «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ**» أي: لا شك عندنا ولا عند إبراهيم[(١)].

ولوط عليه السلام كان يأوي إلى ركن شديد، وهو الله ـ تعالى ـ تمامًا كما يأوي إليه نبينا ﷺ.

ويوسف عليه السلام لم يكن معتمدًا إلا على الله بدليل أنه لم يسارع بالخروج من السجن عندما جاءه رسول الملك، على الرغم من طول السجن وبؤسه، وإنما كان مثالًا للصبر والرضا بالقضاء، فلم يخرج حتى ثبتت براءته، وهكذا كان تواضع نبينا، ودفاعه عن إخوانه الأنبياء عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

الأمر الرابع: ما جاء على لسان نبينا ﷺ من بيان قدره الذي حباه به ربه

(١) أي ليس المراد الشك الاصطلاحي، وعلى فرضه فالمعنى: نحن أحق بالشك من إبراهيم، لو أنه شك لكنه لم يشك، فلسنا أحق بالشك منه (قياس استثنائي اتصالي فيه نفي للتالي، فينتفي المقدم).

ليس من الفخر المذموم المنهي عنه، بل هو بعض ما وجب عليه تبليغه لنا من الوحي، لتعرف قدره؛ حيث إنه لا نبي بعده يخبرنا بقدره، فتعين عليه أن يخبرنا به كما أخبرنا عن منزلة الأنبياء السابقين.

ومثال ذلك قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»[(١)].

وقوله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ»[(٢)].

وفي رواية للإمام أحمد قال ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا فَخْرَ»[(٣)].

والسيد: هو الذي يفوق قومه في الخير، ويُفزع إليه في النوائب والشدائد، فيقوم بأمرهم، ويتحمل عنهم مكارههم، ويدفعها عنهم.

وتأمل أدب البنوة مع الأبوة في قوله: «سيد ولد آدم» ولم يقل: سيد آدم وولده مع أن الله فضله على أبيه آدم!

وإنما خصَّ (يوم القيامة) مع أنه سيدهم في الدنيا والآخرة؛ لأنه في هذا اليوم تظهر عظمته لكل الخلق، لا ينازعه فيها أحد، بخلاف الدنيا فقد نازعه فيها ملوك الكفر، وزعماء الشرك، وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل (٤/ ١٧٨٢).
(٢) رواه مسلم في الموضع السابق.
(٣) المسند (٣/ ٢).

﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] مع أن الملك له قبل ذلك.

وقد ذكر الفخر الرازي تسع عشرة حجة على أن نبينا محمدًا ﷺ أفضل الأنبياء جميعًا، ونقتبس منها ما يأتي:

١) **قوله تعالى**: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء:١٠٧]. فلما كان رحمة لكل العالمين لزم أن يكون أفضل من كل العالمين.

٢) **قوله تعالى**: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[الشرح:٤] فقرن ذكره بذكره ـ تعالى ـ في الشهادة، والأذان، والتشهد، ولم يكن ذكر سائر الأنبياء كذلك.

٣) **قرن الله**:

- طاعته بطاعته، فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء:٨٠]
- وبيعته ببيعته، فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[الفتح:١٠].
- وعزته بعزته، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾[المنافقون:٨].
- ورضاه برضاه، فقال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦٢].
- وإجابته بإجابته فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال:٢٤].

٤) **دينه ﷺ أفضل الأديان**، فقد جعله ناسخًا لسائر الأديان، فيلزم أن يكون صاحب الدين الناسخ أفضل من أصحاب الأديان المنسوخة.

٥) **أمته ﷺ أفضل الأمم**؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠]، فوجب أن يكون هو أفضل الأنبياء، فما نالت أمته هذه الفضيلة إلا بمتابعته، قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١] وفضيلة التابع توجب فضيلة المتبوع[١].

(١) تفسير الرازي (٦/ ٢١٠).

الفصل الخامس

الأولـيــاء

تعريف الولاية والولي:

الولاية: القرب، والحب، والنصرة، وهي ضد العداوة التي هي البعد، والبغض وإرادة الانتقام من العدو، وهي بكسر الواو وفتحها، قرأ حمزة: (ما لكم من ولايتهم من شيء) بكسر الواو، وقرأ الباقون بفتحها.

وولايـة الله للعبـد: أن يهديه للإيمان والطاعة، وأن يعينه على العبادة، فيزداد قربًا منه، فيحبه الله، ويتولى أمره.

والولي هو العارف بالله وصفاته، والمواظب على طاعته، المتجنب لمعصيته، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

وقال في الحديث القدسي: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي

يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»(1).

ومعناه: أن الله يُسدد الولي في سمعه، وبصره، ويده، ورجله، بحيث يكون عمله بهذه الجوارح لله اتباعًا وإخلاصًا، وليس معناه أن الله يكون سمع الولي، وبصره، ويده، ورجله؛ لأن الحديث قد أثبت عبدًا ومعبودًا، ومتقربًا ومتقربًا إليه، ومحبًّا ومحبوبًا، وسائلًا ومسئولًا، ومعطيًا ومعطًى، ومستعيذًا ومستعاذًا به، ومعيذًا ومعاذًا، فدل الحديث على اثنين متباينين هما: العبد والرب، ويمتنع أن يكون أحدهما عين الآخر.

وولاية العبد لله: أن يؤمن به، ويتقيه، ويتقرب إليه بالفرائض والنوافل، ويوالي مَن يوالي، ويعادي مَن يعادي، ويحب مَن يحب، ويكره مَن يكره.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[يونس:٦٢-٦٤]، فالله يوالي عبده إكرامًا منه، والعبد يوالي ربه احتياجًا إليه.

ولفظ (الولي) يكون بمعنى اسم الفاعل، فهو مَنْ والى الله بموافقته محبوباته والتقرب إليه بمرضاته، ويكون بمعنى اسم المفعول فهو مَنْ والاه الله بالحب، والأمن، والتوفيق، والبشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

والأولياء يتفاوتون في درجاتهم بحسب قربهم من الله تعالى، وبمقدار تقواهم، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ

---

(1) رواه البخاري في ك: الرقاق، ب: التواضع ـ الفتح (١١/ ٣٤٨).

لِنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[فاطر:٣٢-٣٥].

فهذه طوائف ثلاث: الظالم لنفسه المقصر في العمل بالكتاب المرجأ لأمر الله، والمقتصد الذي خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، والسابق بالخيرات الذى جمع بين علمه بالكتاب والعمل به، والدعوة إليه، وكلهم يدخلون الجنة، فهم من أولياء الله مع تفاوت درجاتهم في الدنيا والآخرة.

والأولياء ليسوا معصومين؛ فالعصمة للأنبياء فقط، ولا يلزم لحصول الولاية أن تظهر الكرامات وخوارق العادات على يد الولي؛ بل إن بعضهم قد يترفع عن ذلك، ويستتر منه.

وتجتمع في المؤمن ولاية من وجه وعداوة من وجه، كما قد يكون فيه تقوى وفجور، ونفاق وإيمان.

تعريف الكرامة:

الكرامة هي الآية والأمر الخارق للعادة الذي يكرم الله به أولياءه الصالحين من غير الأنبياء.

وصفات الكمال ترجع إلى ثلاثة: العلم، والقدرة، والغنى، وهي لا توجد على وجه الكمال إلا لله، فقد أحاط بكل شيء علمًا، وهو على كل شيء قدير، وهو غني عن العالمين.

وقد أمر الرسول ﷺ أن يبرأ منها: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام:٥٠].

وذلك لأنهم يطالبونه تارة بعلم الغيب: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[النازعات:٤٢].

وتارة بالتأثير: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾[الإسراء: ٩٠-٩٢] وتارة يعيبون عليه الحاجة البشرية: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[الفرقان:٧، ٨].

ويمنح الله ـ تعالى ـ عبده الصالح من هذه الصفات الثلاثة: (العلم، والقدرة، والغنى) ما يشاء:

(١) فيعلم العبد ما لا يعلمه غيره عن طريق الإلهام ويسمع ما لا يسمعه غيره، ويرى ما لا يراه غيره يقظة أو منامًا، ويُسمَّى ذلك: كشفًا، ومكاشفة، وفراسة صادقة.

(٢) ويقدر العبد على ما لا يقدر عليه غيره، كمشيه على الماء، وطيرانه في الهواء، وجلوسه في النار.

أو يكون التأثير في غيره؛ فينظر إلى المريض فيشفى، أو إلى الظالم فيهلك.

فإن للقلوب من التأثير أعظم مما للأبدان، فإن كانت صالحة كان تأثيرها صالحًا، وإن كانت فاسدة كان تأثيرها فاسدًا.

(٣) ويستغنى العبد بما يغنيه الله - تعالى - فلا يحتاج إلى غيره في ضرورات حياته البشرية: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

[آل عمران:٣٧].

حكم الكرامة

أولًا: مذهب أهل السنة:

قالوا: إنها جائزة عقلًا، وواقعة شرعًا.

أدلة أهل السنة:

١) من القرآن الكريم:

- ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

[الطلاق:٢، ٣].

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾

[الأنفال:٢٩].

- ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران:٣٧].

- ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[مريم:٢٥].

- ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾[النمل:٤٠].

٢) ومن السنة المطهرة:

قصة الثلاثة الذين آواهم الغار، فتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم؛ ففرج الله عنهم، وقصة جريج العابد؛ فقد أنطق الله له الغلام في المهد؛ ليشهد ببراءته.

ثانيا: مذهب المعتزلة:

قالوا: إن الكرامة مستحيلة لا تقع.

واستدلوا بقولهم:

لو وقعت الكرامة؛ لأشبهت المعجزة، فيلتبس الولي بالنبي.

رد أهل السنة عليهم:

لا يلتبس الوليّ بالنبي؛ لأن الولي لا يَدَّعي النبوة، ولا يتحدَّى الناس بالأمر الخارق الذي ظهر على يديه، ولو ادَّعَى النبوة لصار متنبئًا كذابًا يفضحه الله.

كما أن إنكار الكرامات يُعَدُّ إنكارًا للمحسوسات الموجودة في كل عصر.

أنواع الفراسة:

(١) فراسة إيمانية: سببها نور يقذفه الله في قلب عبده الصالح، فهي خاطر يَثِبُ على القلب وثوب الأسد على فريسته، وكلما كان العبد أقوى إيمانًا كان أقوى فراسة، قال ﷺ: «**اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ تَعَالَى، ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[الحجر:٧٥]»، المتوسمين: الْمُتَفَرِّسِينَ.

قال أبو سليمان الداراني: «الفراسة مكاشفة النفس، ومعاينة الغيب، وهي من مقامات الإيمان».

(٢) فراسة رياضية: وهي التي تحصل بالجوع والسهر، فإن النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها.

وهذا النوع مشترك بين المؤمن والكافر، ولا يدل على ولاية.

(٣) فراسة خِلقية: وهي الاستدلال بالخلق على الخلق، كالاستدلال بسعة الصدر على سعة الخلق، وبضيقه على ضيقه.

وهذا النوع غير منضبط.

من كرامات الأولياء:

قصة الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين، لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته، وجعل لا يأكل مِنْ لُقْمَةٍ إِلَّا رَبَا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، قَالَ: حَتَّى شَبِعْنَا وَصَارَتْ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ فَإِذَا هِيَ كَمَا هِيَ، أَوْ أَكْثَرُ، فرفعها إلى رسول الله ﷺ، وجاء اليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا.

وأخبر أبو بكر عائشة عند موته بأن ببطن زوجه الحامل أنثى فكانت كما أخبر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والحديث في البخاري.

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ: «**قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ**» قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: تَفْسِيرُ مُحَدَّثُونَ: مُلْهَمُونَ. والمُحَدَّث: المُلْهَم[(١)]. قال ابن عمر: ما كان عمر يقول في شيء: إني لأراه كذا إلا كان كما يقول.

وكان عمر يقول: اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة.

وقصته مع سارية بن حصن عندما ناداه: يا سارية، الجبل الجبل مشهورةٌ.

وكان أسيد بن حضير إذا قرأ القرآن نزلت الملائكة لقراءته، فيراها مثل الظلة، فيها أمثال السُّرُج.

وكانت الملائكة تُسَلِّم على عمران بن حصين، وكان يسمع تسبيحهم[(٢)].

وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان في صحفة، فسبَّحت الصحفة، أو سبَّح

---

(١) رواه البخاري في: ك فضائل الصحابة، ب: فضائل عمر ـ الفتح (٧/ ٥٢).

(٢) أبو داود ك الطب ٣٨٦٥.

ما فيها.

وعباد بن بشر، وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة، فأضاء لهما نور مثل طرف السَّوط، فلما افترقا افترق الضوء معهما.

وخبيب بن عَدِي كان أسيرًا في مكة عند المشركين، وكان يؤتى بعنب يأكله، وليس بمكة عنبة.

وخرجت أم أيمن مهاجرة، وليس معها زاد ولا ماء، فكادت تموت من العطش، فلما كان وقت الفطر، وكانت صائمة، فإذا دلو معلق فوق رأسها، فشربت منه حتى رويت، وما عطشت بقية عمرها.

وسفينة مولى رسول الله ﷺ أخبر الأسد بأنه رسول لرسول الله ﷺ، فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده[(١)].

والبراء بن مالك كان إذا أقسم على الله - تعالى - أبرَّ قسمه، وكان الحرب إذا اشتدَّ على المسلمين في الجهاد يقولون: يَا بَرَاءُ، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «**إِنَّكَ لَوْ أَقْسَمْتَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّكَ، فَأَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ**»، فَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لِمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ، ثُمَّ الْتَقَوْا عَلَى قَنْطَرَةِ السُّوسِ، فَأَوْجَعُوا فِي الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا لَهُ: يَا بَرَاءُ، أَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ، فَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لِمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ، وَأَلْحَقْتَنِي بِنَبِيِّكَ ﷺ، فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ، وَقُتِلَ الْبَرَاءُ شَهِيدًا[(٢)].

وخالد بن الوليد حاصر حصنًا منيعًا فقالوا: لا نُسلِّم حتى تشرب السم فشربه، فلم يضره.

---

(١) أخرجه الطبراني، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي - سير الذهبي (٣/ ١٧٣).

(٢) قصة خبيب في خ ب الجهاد ٣٠٤٥، ٣٩٨٩، ٤٠٨٦ ك توحيد ٧٤٠٢ وقصة البراء رواها الحاكم وصححها، ووافقه الذهبي، المستدرك (٣/ ٣٣١).

وسعد بن أبي وقاص كان مستجاب الدعوة، ما دعا قط إلا استجيب له، وهو الذي هزم جنود كسرى، وفتح العراق.

والعلاء بن الحضرمي عامل الرسول على البحرين، دعا الله لما اعترضهم البحر، ولم يقدروا على المرور بخيولهم، فمروا كلهم على الماء، ما ابتلت سروج خيولهم.

وأبو مسلم الخولاني لما سأله الْأَسْوَدُ العنسي لَمَّا ادَّعَى النُّبُوَّةَ، فَقَالَ لَهُ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟ قَالَ: مَا أَسْمَعُ، قَالَ: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَمَرَ بِنَارٍ فَأُلْقِيَ فِيهَا، فَوَجَدُوهُ قَائِمًا يُصَلِّي فِيهَا، وَقَدْ صَارَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا؛ وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَأَجْلَسَهُ عُمَرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنهما، وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُمِتْنِي حَتَّى أَرَى مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ فُعِلَ بِهِ كَمَا فُعِلَ بِإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ[1].

وَ(صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ ت ٣٥ هـ) مَاتَ فَرَسُهُ وَهُوَ فِي الْغَزْوِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِمَخْلُوقٍ عَلَيَّ مِنَّةً، وَدَعَا اللهَ عز وجل فَأَحْيَا لَهُ فَرَسَهُ.

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى بَيْتِهِ قَالَ: يَا بُنَيَّ، خُذْ سَرْجَ الْفَرَسِ فَإِنَّهُ عَارِيَةٌ، فَأَخَذَ سَرْجَهُ فَمَاتَ الْفَرَسُ، وَجَاعَ مَرَّةً بِالْأَهْوَازِ فَدَعَا اللهَ عز وجل وَاسْتَطْعَمَهُ فَوَقَعَتْ خَلْفَهُ دَوْخَلَةُ رُطَبٍ فِي ثَوْبِ حَرِيرٍ فَأَكَلَ التَّمْرَ وَبَقِيَ الثَّوْبُ عِنْدَ زَوْجَتِهِ زَمَانًا.

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٧)، انظر: (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) لابن تيمية، ومجلد (التصوف) من مجموع الفتاوى له.

ودعا (الحسن البصري) على بعض الخوارج ـ كان يؤذيه ـ فخَّر ميتًا.

و(سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أحد العشرة المبشرين) لما اتهمته (أروى بنت أويس) زورًا وبهتانًا قال: اللهم إن كانت كاذبة فأعمِ بصرها، واقتلها في أرضها. فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت[1].

* * *

(١) رواه مسلم فى ك المساقاة ب تحريم الظلم (٣/ ١٢٣٠).

الفصل السادس

أشـــراط الساعـــة

الأشراط: جمع شرط، وهو العلامة، والمراد العلامات التي تدل على قرب يوم القيامة. قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾[محمد:١٨].

وعلامات الساعة نوعان:

علامات صغرى: وهي البعيدة عن اليوم الآخر، وتحدث خلال فترات طويلة من الزمان.

وعلامات كبرى: وهي القريبة من النفخ في الصور، وتحدث في فترة وجيزة آخر الزمان، إذا ظهرت إحداها تتابعت كلها، كأنها خرزات في خيط، إذا سقطت واحدة تتابع باقيها حتى تسقط جميعًا.

وإذا بدأت العلامات الكبرى في الظهور عندئذ لا يُقبل إيمان من كافر ولا توبة من مذنب، ولا عمل خير من مسيء، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام:١٥٨].

وفيما يلي نذكر بعض أشراط الساعة:

العلامات الصغرى:

يمكن أن نقسمها قسمين: قسم قد وقع كما جاء في الوحي، وقسم ينتظر حدوثه.

١) فمن القسم الأول:

(أ) بعثته ﷺ: كما جاء في الحديث الصحيح: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وأشار إلى إصبعيه: السَّبَّابَةِ، وَالْوُسْطَى، وقرن بينهما**» متفق عليه.

(ب) انشقاق القمر: قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[القمر: ١، ٢].

فقد روى الشيخان حديث انشقاق القمر على عهد رسول الله ﷺ حين طلبت قريش منه آية تدل على نبوته، فدعا الله، فانشق القمر فلقتين على جبل أبي قبيس على مرأى من أهل مكة، وهم ينظرون إليه.

جـ) قتال علي ومعاوية رضي الله عنهما في صِفِّين؛ حيث قال ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيمَتَانِ، وَتَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ وَدَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ**» رواه الشيخان.

(د) انقطاع ورود الخراج وغيره من الأقطار إلى أهل الحجاز: قال ﷺ: «**مَنَعَتِ الْعِرَاقُ دِرْهَمَهَا وَقَفِيزَهَا، وَمَنَعَتِ الشَّأْمُ مُدْيَهَا وَدِينَارَهَا، وَمَنَعَتْ مِصْرُ إِرْدَبَّهَا وَدِينَارَهَا، وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ**» رواه مسلم.

فأخبر - صلوات الله وسلامه عليه - في هذا الحديث أن العراق والشام ومصر سيدخل أهلها في الإسلام، ويرسلون الخير لأهل الحجاز، ثم تستقل هذه البلاد عن الخلافة الإسلامية، وتمنع ما كانت تقدمه لأهل الحجاز.

(هـ) النار التي خرجت بالمدينة المنورة: قال ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ، تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَى**» رواه الشيخان.

وقد حدث ذلك في ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة ٦٥٤هـ فقد احترقت الحرة الشرقية من المدينة المنورة، وظهرت بها البراكين، وظلت النار مشتعلة مدة طويلة، وضوء نارها يُرى من بصرى الشام، وما زالت أحجارها سوداء محترقة، كالفحم إلى وقتنا هذا.

(و) **وفي الحديث التالي عدة علامات**، أغلبها قد تحقق، وينتظر وقوع الباقي: عن عوف بن مالك الأشجعي قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ: **«اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ مُوْتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ المَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِئَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ العَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا»** وفي رواية (راية) بدل (غاية)(١).

٢) ومن القسم الثاني:

(أ) **قال ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَحْسِرَ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، يَقْتَتِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِئَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ: لَعَلِّي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أَنْجُو»**(٢).

(ب) **قال ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمْلِكَ النَّاسَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي، وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِي، فَيَمْلَؤُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا»**(٣).

---

(١) موتان: بضم الميم وفتحها مع سكون الواو: الموت الكثير. القعاص: داء يصيب الدواب، فيسيل من أنوفها شيء، فتموت فجأة. يقال: إن هذه الآية ظهرت في طاعون عمواس في خلافة عمر، وكان بعد فتح بيت المقدس، واستفاضة المال كان في خلافة عثمان، بنو الأصفر: الروم.

(٢) رواه مسلم في الفتن (٤/ ٢٢١٩) (يحسِر) ينكشف لذهاب مائة.

(٣) رواه أحمد (١/ ٣٧٦) والترمذي (٤/ ٥٠٥) وقال: حسن صحيح.

وفي رواية: «الْمَهْدِيُّ مِنِّي، أَجْلَى الْجَبْهَةِ، أَقْنَى الأَنْفِ، يَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ»[1].

(جـ) وقال ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ» رواه البخاري ومسلم.

(د) وقال ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ، حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ، وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا» رواه مسلم. المروج: الرياض والمزارع.

العلامات الكبرى:

«عن حذيفة بن أسيد قال: اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ، فَقَالَ: مَا تَذَاكَرُونَ؟ قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قَالَ: إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ، فَذَكَرَ: الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ»[2].

(١) رواه أبو داود (٤/ ٤٧٥)(وقَنَا الأنفِ): ارتفاع أعلاه واحديداب وسطه وسبوغ طرفه.
(٢) رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٤/ ٢٢٩).

توضيح بعض العلامات:

أولًا: الدخان:

وقد ورد ذكر الدخان في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[الدخان: ١٠، ١١].

قال القرطبي: «وممن قال إن الدخان لم يأت بعد: عليٌّ، وابن عباس، وابن عمر، وأبو هريرة، وزيد بن علي، والحسن، وابن أبي مليكة، وغيرهم.

وروى أبو سعيد الخدري مرفوعًا أنه دخان يهيج بالناس يوم القيامة، يأخذ المؤمن منه كالزكمة، وينفخ الكافر حتى يخرج من كل مسمع منه، وعن حذيفة قلت: يا نبي الله، وما الدخان؟ قال: هذه الآية: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾[الدخان: ١٠] يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يومًا وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران، يخرج الدخان من فمه، ومنخره، وعينيه، وأذنيه، ودبره»[(١)].

وهذا الدخان غير الدخان الذي نال قريشًا من القحط أيام الرسول ﷺ حتى كانوا يرون بينهم وبين السماء كهيئة الدخان من شدة الجوع.

ثانيًا: المسيح الدجال:

سُمِّي المسيح؛ لأنه ممسوح العين اليمنى، أو لأنه يمسح الأرض، أي: يقطعها في أربعين يومًا، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامنا هذه. كما ورد في صحيح مسلم.

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ١٣٠).

والدجال من الدَّجْل، وهو التغطية والكذب، يقال: دجل البعير بالقطران إذا غطَّاه، ودجل الإناء بالذهب إذا طلاه، وسُمِّيَ الكذاب دجالًا؛ لأنه يُغطِّي الحق بباطله، وعلى الرغم من أنه ورد في الصحيح أنه مكتوب بين عينيه (كافر) فهي علامة واضحة تدل على كذبه فهو شخص معين، ينتشر أمره في آخر الزمان قرب قيام القيامة، تظهر على يديه خوارق العادات التي تسمى بالاستدراج، جعله الله فتنة واختبارًا للخلق، وخروجه أول الأشراط الكبرى ظهورًا.

أخرج مسلم قصة تميم الداري من حديث فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ خطب، فذكر أن تميمًا الداري ركب في سفينة مع ثلاثين رجلًا من قومه، فلعب بهم الموج شهرًا، ثم نزلوا إلى جزيرة، فلقيتهم دابة كثيرة الشعر، فقالت لهم: أنا الجسَّاسة ودلَّتهم على رجل في الدير، قال: فانطلقنا سراعًا، فدخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خَلْقًا، وأشد وِثاقًا، مجموعة يداه إلى عنقه بالحديد، فقلنا: ويلك ما أنت؟ فذكر الحديث.

وفيه أنه سألهم عن نبي الأميين هل بعث؟ وأنه قال: إن يطيعوه فهو خير لهم، وأنه سألهم عن بحيرة طبرية، وعن عين زغر، وعن نخل بيسان[1].

وفيه أنه قال: إني مخبركم عنِّي، أنا المسيح، وإني أوشك أن يُؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة.

وحديث مسلم هذا يدل على أن الدجال كان موجودًا في عهد النبي ﷺ، وأنه محبوس في بعض الجزائر.

---

(١) زغر وبيسان: قريتان بالشام، وما أخبر به تميم وافق ما سبق أن أخبرهم به النبي ﷺ.

وأما وقت خروجه، فقد روي مسلم في حديث النّوّاس أنه يخرج عند فتح المسلمين القسطنطينية.

وأما سبب خروجه، فأخرج مسلم في حديث ابن عمر عن حفصة أنه يخرج من غضبة يغضبها.

ويخرج من قبل المشرق جزمًا من خراسان، كما أخرجه أحمد والحاكم من حديث أبي بكر، أو من أصبهان كما أخرجه مسلم، ولعله يخرج من خراسان ثم يتجه غربًا، فيمُر بأصبهان، فيتبعه من يهودها سبعون ألفًا عليهم الطيالسة كما في صحيح مسلم.

وعندما يخرج يَدَّعي الإيمان والصلاح، ثم يَدَّعي النبوة، ثم يَدَّعي الألوهية.

وأما عن وقت هلاكه فأخرج مسلم أنه يهلك بعد ظهوره على الأرض كلها إلا مكة والمدينة، ثم يقصد بيت المقدس، فينزل عيسى فيقتله.

ومن صفاته أنه قصير جسيم، أحمر الوجه، أعور العين اليسرى، قد غطتها جلدة عظيمة، وعينه اليمنى جاحظة، وشعر رأسه شديد الجعودة، بشع المنظر، منفرج الرجلين في المشي.

ومما ورد في صحيح البخاري بشأنه:

- عن أنس بن مالك قال: قال ﷺ: «يَجِيءُ الدَّجَّالُ، حَتَّى يَنْزِلَ فِي نَاحِيَةِ المَدِينَةِ، ثُمَّ تَرْجُفُ المَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ».
- وعن أبي بكر عن النبي ﷺ قال: «لَا يَدْخُلُ المَدِينَةَ رُعْبُ المَسِيحِ، لَهَا يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، عَلَى كُلِّ بَابٍ مَلَكَانِ».

• وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قام رسول الله ﷺ في الناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: «إِنِّي لأُنْذِرُكُمُوهُ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ، وَلَكِنِّي سَأَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ: إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ».

• «ورد أنه أعور العين اليمنى، وفي رواية اليسرى، والعور: العيب، فهما معيبتان، إحداهما طافية بالهمز، لا ضوء فيها، والأخرى طافية بلا همز، أي: ظاهرة ناتئة: وهي علامة واضحة تدل على كذبه.

• وعن عروة أن عائشة رضي الله عنها قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يستعيذ في صلاته من فتنة المسيح الدجال».

• وعن حذيفة عن النبي ﷺ قال في الدجال: «إِنَّ مَعَهُ مَاءً وَنَارًا، فَنَارُهُ مَاءٌ بَارِدٌ، وَمَاؤُهُ نَارٌ» فإذا صدقه الناس بهذا الخارق، فصدقوه، ظهر لهم كذبه بحصول عكس ما ادعاه.

• وعن أبي سعيد قال: حدثنا رسول الله ﷺ يومًا حديثًا طويلًا عن الدجّال، فكان فيما يحدثنا به أنه قال: «يَأْتِي الدَّجَّالُ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ نِقَابَ المَدِينَةِ، فَيَنْزِلُ بَعْضَ السِّبَاخِ الَّتِي تَلِي المَدِينَةَ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاسِ - أَوْ مِنْ خِيَارِ النَّاسِ - فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الَّذِي حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَدِيثَهُ، فَيَقُولُ الدَّجَّالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا، ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ، هَلْ تَشُكُّونَ فِي الأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ، فَيَقُولُ: وَاللهِ مَا كُنْتُ فِيكَ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي اليَوْمَ، فَيُرِيدُ الدَّجَّالُ أَنْ يَقْتُلَهُ فَلَا يُسَلَّطُ عَلَيْهِ»(١).

(١) فتح الباري: كتاب الفتن (١٣/ ٨٩-١٠١).

• ومن خوارق التي تظهر على يديه، وينخدع بها الرعاع من الناس أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، فيكثر الخصب. وتسمن الماشية، وينتقل من بلد إلى بلد بسرعة السحاب.

ثالثًا: دابة الأرض:

ورد ذكر الدابة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[النمل:٨٢].

قال المفسرون: إنها فصيل ناقة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

واختُلف من أي موضع تخرج: فقال عبد الله بن عمر تخرج من جبل الصفا بمكة، يتصدع فتخرج منه، وقال عبد الله بن عمرو نحوه وقال: لو شئت أن أضع قدمي على موضع خروجها لفعلت.

وروي في خبر عن النبي ﷺ: «أن الأرض تنشق عن الدابة وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسعى، وأنها تخرج من الصفا، فتَسِم بين عيني المؤمن: هو مؤمن سِمة كأنها كوكب دُرِّي، وتَسِمُ بين عيني الكافر نكتة سوداء: كافر».

وهذه الدابة تكلم الناس بصوت يسمعه من قَرُبَ ومن بَعُدَ، قائلة: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[النمل:٨٢] أي: بخروجي، وقرئ: تَكْلِمُهم من الكَلْم وهو الجرح، فهي تُكلم المؤمن، وتَكْلِم الكافر والفاجر. تجرحه[(١)].

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٢١) - تفسير القرطبي (١٣/ ٢٣٥) بتصرف، وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٤).

رابعًا: طلوع الشمس من مغربها:

ذُكر طلوع الشمس من مغربها في حديث رسول الله ﷺ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**» رواه الشيخان.

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول ﷺ حديثًا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا**».

أي: أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدَّجَّال، ونزول عيسى عليه السلام من السماء، وخروج يأجوج ومأجوج قبل ذلك فكل ذلك أمور مألوفة؛ لأنهم بشر، ومشاهدة مثلهم مألوفة، أمَّا خروج الدابة بشكل غريب غير مألوف، ثم مخاطبتها الناس، ووَسْمُها إياهم بالإيمان أو الكفر فأمر خارج عن العادة.

وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة أول الآيات السماوية.

خامسًا: نزول عيسى ابن مريم من السماء:

ثبت رفع عيسى بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[آل عمران:٥٥] والمراد من الوفاة في الآية: النوم، فقد رُفع إلى السماء نائمًا. وقد جاءت الوفاة بمعنى النوم في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا

ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[الزمر:٤٢]، وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[الأنعام:٦٠]، وكان رسول الله ﷺ إذا استيقظ من نومه يقول: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور**».

أشار القرآن إلى نزوله فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[الزخرف:٥٩-٦١].

فقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾[الزخرف:٦١]، أي: يعلم قربها بنزوله عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين كما في صحيح مسلم.

وقرئ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾[الزخرف:٦١] بفتح عين (لعلم)، أي: أمارة لها، فلا تشكُّن في قيامها.

وأحاديث نزوله صحيحه متواترة، رواها أكثر من عشرة من الصحابة. وروي البخاري عن رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجزية، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[النساء:١٥٩].

أي: قبل موت عيسى بعد نزوله من السماء وقبل القيامة، فلا يبقى كتابي إلا آمن به.

وفي رواية قال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يَقُولُ: «وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي الْقَاسِمِ بِيَدِهِ، لَيَنْزِلَنَّ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِمَامًا مُقْسِطًا وَحَكَمًا عَدْلًا، فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَنَّ الْخِنْزِيرَ، وَلَيُصْلِحَنَّ ذَاتَ الْبَيْنِ، وَلَيُذْهِبَنَّ الشَّحْنَاءَ، وَلَيَفِيضَنَّ الْمَالَ فَلَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ، ثُمَّ لَئِنْ قَامَ عَلَى قَبْرِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، لَأُجِيبَنَّهُ»(١).

وقد وصفه ﷺ في بعض أحاديثه منها ما رواه أبو هريرة أن النبي ﷺ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ رَجُلًا مَرْبُوعًا إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، وَتَقَعُ الْأَمَنَةُ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الْأُسُودُ مَعَ الْإِبِلِ، وَالنِّمَارُ مَعَ الْبَقَرِ، وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ وَيَلْعَبَ الصِّبْيَانُ بِالْحَيَّاتِ لَا تَضُرُّهُمْ، فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يُتَوَفَّى وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ»(٢).

سادسًا: يأجوج ومأجوج

ورد ذكرهم في قول الحق: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝٩٦ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن

(١) رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد (٨/ ٢١١).
(٢) رواه أحمد في المسند (١/ ٤٠٦) ثوبان ممصران: أي: فيهما صفرة.

﴿يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ۝٩٧ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾[الكهف:٩٤-٩٨](١).

وجاء ذكرهم أيضًا في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٩٦، ٩٧](٢).

وروي البخاري عن زينب ابنة جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يومًا فزعًا يقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعَيْهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا**»، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**»(٣) أي: الزنا والفجور والفواحش.

وأخرج ابن ماجة عن رسول الله ﷺ: «**إِنَّ يَأْجُوجَ، وَمَأْجُوجَ يَحْفِرُونَ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَنَحْفِرُهُ غَدًا، فَيُعِيدُهُ اللهُ أَشَدَّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ، وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ، حَفَرُوا، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا، فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَاسْتَثْنَوْا، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ**

(١) يأجوج ومأجوج: قبيلتان من ذرية يافث بن نوح عليه السلام، خرجًا، أي: جُعْلًا من المال، سدًّا: أي حاجزًا، فلا يصلون إلينا ـ ردمًا: أي حاجزًا حصينًا متينًا ـ زُبَر الحديد: قطعه العظيمة ـ الصدفين: جانبي الجبلين ـ قطرًا: أي نحاسًا مذابًا ـ أن يظهروه: أن يعلو ظهره ـ نقبًا: خرقًا وثقبًا ـ جعله دكاء: أي: أرضًا مستوية.

(٢) الحدب: المرتفع من الأرض، ينسِلون: يسرعون النزول، شاخصة أبصارهم، أي: مرتفعة لا تكاد تطرف.

(٣) ورواه مسلم في الفتن (٤/ ٢٢٠٨).

تَرَكُوهُ، فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ فَيُنْشِفُونَ الْمَاءَ، وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ عَلَيْهَا الدَّمُ الَّذِي اجْفَظَّ، فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أَهْلَ الأَرْضِ، وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَبْعَثُ اللهُ نَغَفًا فِي أَقْفَائِهِمْ، فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا»(١).

وورد في حالهم عند خروجهم ما أخرجه مسلم من حديث النواس بن سمعان بعد ذكر الدَّجَّال وقتله على يد عيسى قال: «ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لا يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِئَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الأَرْضِ، فَلا يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ، حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ

(١) سنن ابن ماجة (٢/ ١٣٦٤) (ينشفون الماء) أي: يشربونه (اجْفَظَّ) أي: ملأها (النغف) دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»(١)

* * *

(١) رواه مسلم في الفتن (٤/ ٢٢٥٣) (فيمسح على وجوههم): إما تبركًا، أو إشارة إلى كشف ما هم فيه من الشدة والخوف، (لا يدان لأحد بقتالهم): تثنية يد، أي: لا قدرة ولا طاقة لأحد، (فحرز عبادي إلى الطور): حصنهم واحفظهم، (الحدب): الموضع المرتفع، (ينسلون): يسرعون، (يرغب): يبتهل ويدعو.(فرسى):قتلى، مفرده فريس، كقتلى وقتيل، (زهمهم): دسمهم، (البخت): الجمال طوال الأعناق، (لا يكن): لا يمنع، (المدر): الطين الصلب، (الزلفة): المرآة، (العصابة): الجماعة، (قحفها): مقعر قشرها، (الرِّسل): اللبن. (اللِّقحة):حديثة الولادة، جمعها: لقَح، كِبركة وِبرك، (الفئام):الجماعة الكثيرة، (الفخذ): الجماعة من الأقارب، دون البطن، والبطن دون القبيلة، (تهارج الحمر): أي يجامع الرجال النساء علانية أمام الناس، والهَرْج: الجماع، يقال: هرج زوجته: أي: جامعها يهرجها بتثليث الراء.

الفصل السابع

اليــوم الآخـــر

مقدمة عن حياة البرزخ:

روح الإنسان: جسم لطيف، يحل في الجسد، فيجعله يشعر، ويتحرك ويفكر، وللروح مع الجسد تعلقات مختلفة: فتتعلق به جنينًا في بطن أمه، وتتعلق به في اليقظة بعد الولادة، وتتعلق به في أثناء النوم، وتتعلق به في عالم البرزخ بعد الموت، وتتعلق به يوم القيامة، ولكل حالة خصائصها، والموت عبارة عن: انقطاع صلة الروح بالجسد، لتنتقل من عالم إلى عالم آخر، فليس الموت عدمًا أو فناء للروح.

وملك الموت هو الذي يتولى إخراج الروح من الجسد، وله أعوان يساعدونه، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾[السجدة: ١١]، وقال: ﴿إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[الأنعام: ٦١].

ولا يبقى من الجسد إلا عجب الذَّنب، وهو عظم صغير في آخر سلسلة الظهر، قال ﷺ: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ، إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ، مِنْهُ خُلِقَ، وَفِيهِ يُرَكَّبُ**»[1].

وهو كالروح مستثنى من العموم في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾[الرحمن: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾[القصص: ٨٨].

---

(١) رواه مسلم في الفتن (٤/ ٢٢٧).

وبعد انصراف الناس من دفن الميت، يأتيه ملكان: أحدهما (مُنكر) والآخر (نكير) فيقعدانه، ويعيد الله إليه روحه، فيسمع ويتكلم، فيسألانه:

مَن ربك؟ وما دِينُك؟ وما تقول في الرجل المبعوث فيكم؟

أما المؤمن فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، والرجل المبعوث فينا هو سيدنا محمد ﷺ. فيقولان له: انظر إلى مقعدك في النار، قد أبدلك الله به مكانًا في الجنة، فيراهما جميعًا، ثم يقولان له: نم نومة العروس.

وأما المنافق أو الكافر، فيقول: لا أدري، فيقولان له: لا دريت ولا تليت. ويبدأ عذابه في القبر.

فالله ـ تعالى ـ يعيد الحياة لجسم الإنسان الذي به يسمع، والجزء الذي به يتكلم ويجيب، وأنه لم يشعر من حوله بذلك كالنائم.

وسؤال القبر للروح والجسد، ولو أكلته السباع أو الحيتان، أو التهمته النيران. فقبره المكان الذي يستقر فيه، والله على كل شيء قدير.

وكان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت، وقف عليه، فقال: «**اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ؛ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ**»(١).

وقد أشار القرآن إلى حياة البرزخ فقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:٩٩، ١٠٠].

وكذلك نعيم القبر وعذابه للروح والجسد معًا؛ فالقبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار.

---

(١) رواه أبو داود في الجنائز (٣/ ٥٥٠).

وقد أشار القرآن الكريم إلى عذاب القبر فقال: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[غافر:٤٥، ٤٦].

فقوله: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ في عالم البرزخ؛ لأن يوم القيامة لا غدو فيه ولا عشي، ولا شروق ولا غروب، وبقية الآية تتكلم عنه.

وقال ـ تعالى ـ في وصف حياة الشهداء في عالم البرزخ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[آل عمران:١٦٩، ١٧٠].

ومَرَّ ﷺ على قبرين، فقال: «**أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ. وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ**». قَالَ: فَدَعَا بِعَسِيبٍ رَطْبٍ فَشَقَّهُ بِاثْنَيْنِ، ثُمَّ غَرَسَ عَلَى هَذَا وَاحِدًا وَعَلَى هَذَا وَاحِدًا، ثُمَّ قَالَ: «**لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**»[(١)].

أولًا: إمكان البعث:

أ) البعث أمر ممكن عقلًا:

عرض القرآن الكريم لأدلة إمكان بعث الخلق لمحاسبتهم في كثير من سوره وآياته، ونتناول هنا موضعين فقط:

الموضع الأول: من [سورة الحج]: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٢٤١).

ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

وقد اشتملت الآية على دليلين على إمكان البعث:

الدليل الأول:

خلق الإنسان وتطوره في هذه المراحل المختلفة المذكورة في الآية والتي أشرنا إليها عند حديثنا عن دليل الخلق على وجود الله، فمن قدر على خلق الإنسان على هذه الصورة العجيبة، وفي هذه الأطوار الدقيقة، فهو لا شك أقدر على إعادته: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[الأنبياء:١٠٤].

الدليل الآخر:

دليلٌ حسيٌّ يراه كل إنسان إذا نظر إلى الأرض الميتة التي لا زرع فيها ولا ثمر لعدم وجود مياه الريّ، فإذا نزل عليها الماء عادت إليها الحياة فازدادت، وانتفخت، وأنبتت من كل صنف حسن نضير.

الموضع الآخر: من سورة يَس: قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم

مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾.

وقد اشتملت الآيات على أربعة أدلة:

الدليل الأول: من قدر على البدء قدر على الإعادة:

وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إذ كل عاقل يعلم ضرورة أَنَّ مَنْ قَدِرَ على النشأة الأولى فهو على النشأة الأخرى أقدر، وأنه لو كان عاجزًا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق، وعِلْمَه بتفاصيل خلقه قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ فإذا كان تام العلم، كامل القدرة، فكيف يتعذر عليه أن يُحيى العظام وهي رميم؟

الدليل الثاني: من قدر على إيجاد الضد من ضده قدر على إعادة الإنسان؛ وذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ فلا يظنٌّ ظانٌّ أن الإنسان إذا مات، وصارت عظامه رميمًا يابسا باردًا لا يمكن أن تعود إليه الحرارة والرطوبة مرة أخرى فإن الله أوجد من الشجر الأخضر الرطب البارد نارًا حارة، وذلك كما لو أُخِذَ غصن من شجر المرخ الأخضر الرطب، وضُرِبَ بغصن من شجر العفار الأخضر الرطب فإنه تتقد منه النار، كما يعرف ذلك أهل البادية، فمن قدر على إخراج النار من لا نار، وإيجاد الحرارة من الرطوبة قادر على إحياء الإنسان.

الدليل الثالث: من قدر على الأكبر قدر على الأصغر من باب أولى:

وذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن

يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل، فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر، فمن قدر على حمل مائة كيلو فهو على حمل كيلو واحد أشد اقتدارًا، فأخبر أن الذي أبدع السموات والأرض على عِظَم شأنهما، وكبر حجمهما، وعجيب خلقهما، أقدر على أن يُحيي عظامًا قد صارت رميمًا، كما قال في موضع آخر: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

[غافر:٥٧].

الدليل الرابع: فعله لا يحتاج إلى آلة ولا معين: وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ففعل الله ـ تعالى ـ ليس كفعل المخلوق الذي يحتاج إلى الآلات والوسائل، وإلى من يعينه ويساعده في الصنع، فالحق ـ تعالى ـ إذا أراد شيئًا قال له: كن فإذا هو كائن كما أراده وشاءه جل في علاه.

ثم ختم هذه الآيات المباركة بقوله: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

ب) البعث أمر سيقع فعلًا:

وعرض القرآن لهذه القضية في أكثر من موضع وقد أمر نبيه أن يُقسم به ـ جلَّ في علاه ـ على وقوع البعث في ثلاثة مواضع؛ هي:

(١) ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [يونس:٥٣].

(٢) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣].

(٣) ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن:٧].

ثانيًا: النفخ في الصور:

ذُكِر النَّفخ في الصُّور في عشر آيات قرآنية، فوجب الإيمان بذلك.

والصور: قَرْن من نور كهيئة البوق ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: مَا الصُّورُ؟ قَالَ: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ» رواه الترمذي وأبو داود. وهو الناقور المذكور في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾[المدثر [٨] كما فسره ابن عباس. نقر: نُفخ.

ويظهر من النصوص أنهما نفختان:

النفخة الأولى: وتسمى نفخة الصعق، أو الفزع، ويشير إليها قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾[الزمر:٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾[النمل:٨٧]، داخرين: صاغرين أذلاء.

وبهذه النفخة يموت كل من لم يذق الموت قبلها من الخلائق، أما من ذاق الموت، أو لم يكتب عليه الموت فلا يموت موتة ثانية.

واختلف العلماء في المستثنى في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ففي حديث أبي هريرة أنهم الشهداء عند ربهم يرزقون، إنما يصل الفزع إلى الأحياء. وهو قول سعيد بن جبير.

وقال الحسن: استثنى طوائف من الملائكة يموتون بين النفختين.

وقال مقاتل: يعني جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت.

وقيل: الحور العين، وقال الضحاك: رضوان، والحور، ومالك، والزبانية.

النفخة الثانية وتُسمَّى: نفخة البعث، أو النشر، أو النشور ويشير إليها قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[الزمر:٦٨].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۞ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[يس:٥١، ٥٢].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾[الكهف:٩٩].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[النبأ:١٨].

وبين النفختين تمر مدة طويلة؛ فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ». قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْت، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ[1].

(١) رواه مسلم في الفتن (٤/ ٢٢٧٠).

وقول أبي هريرة (أبيت) معناه: أبيت أن أجزم بأن المراد أربعون يومًا أو شهرًا أو سنة: بل الذي أجزم به أربعون مجملة.

وقد جاءت مفسرة من رواية غيره في غير مسلم: أربعون سنة. وفي هذه المدة وبعد أن يطوي الله السماوات بيمينه كطي السجل للكتب، وبعد أن يطوي الأرض بشماله ويقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟!.

قال محمد بن كعب: «قوله سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[غافر:١٦] يكون بين النفختين حين فَنِيَ الخلائق، وبقي الخالق، فلا يرى غير نفسه مالكًا ولا مملوكًا، فيقول: (لمن الملك اليوم) فلا يجيبه أحد؛ لأن الخلق أموات فيجيب نفسه فيقول:(لله الواحد القاهر)، لأنه بقي وحده، وقهر خلقه»[(١)].

ثالثًا: الحوض:

الحوض من الأمور التي أكرم الله بها أتباع نبينا محمد ﷺ الذين يموتون على التوحيد الخالص، وهذا الحوض يصله الماء من نهر في الجنة يسمى الكوثر، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾[الكوثر:١].

وهذا الحوض يشرب منه المؤمنون بعد خروجهم من قبورهم عطاشا، ومن شرب منه لا يظمأ بعدها أبدًا، ويكون شربه في الجنة تنعمًا وتلذذًا، وليس لإزالة العطش.

ولكل نبي حوض كما قال ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا، وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً**»[(٢)].

---

(١) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٠١).

(٢) رواه الترمذي عن سمرة بن جندب/ السراج المنير شرح الجامع الصغير (٢/ ١٦).

وجاء في صفته: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا»(١).

والأحاديث التي وردت في الحوض تكاد تبلغ مبلغ التواتر، وإن اختلفت في سعته، وفي بعض أوصافه، ففي بعضها أن سعته مسيرة شهر، وفي بعضها أنه مسيرة شهرين، وبعضها يمثله بالمسافة بين مكة وأيلة، أو بالمسافة بين عدن وعمان، أو بين صنعاء والمدينة، أو بين المدينة وبيت المقدس، والمقصود من كل ذلك أنه واسع إلى حد كبير، ويريد الرسول ﷺ أن يُقَرّب الفهم من السامعين، فيُمَثّل لكل فريق بما يعرف، فلا تعارض.

ويُصَدُّ عن هذا الحوض الكفار، والمرتدون، وأهل الزيغ والبدع. كما قال ﷺ: «تَرِدُ عَلَيَّ أُمَّتِي الْحَوْضَ، وَأَنَا أَذُودُ النَّاسَ عَنْهُ كَمَا يَذُودُ الرَّجُلُ إِبِلَ الرَّجُلِ عَنْ إِبِلِهِ»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَتَعْرِفُنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لأَحَدٍ غَيْرِكُمْ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، وَلَيُصَدَّنَّ عَنِّي طَائِفَةٌ مِنْكُمْ فَلَا يَصِلُونَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ هَؤُلَاءِ مِنْ أَصْحَابِي. فَيُجِيبُنِي مَلَكٌ، فَيَقُولُ: وَهَلْ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ؟»(٢).

وهؤلاء هم الذين ارتدوا في عصر أبي بكر فقد حجب الله عنه أخبارهم. حتى لا يغمه بها، فهذا الحديث لا يعارض أحاديث عرض أعمال أمته عليه في الدنيا.

(١) رواه البخاري ومسلم – وفي الترغيب والترهيب (٤/ ٤١٧).
(٢) رواه مسلم في الطهارة (١/ ٢٤٧).

رابعًا: الحشر:

هو جمع الخلائق يوم القيامة للحساب فوق الأرض المبدلة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[إبراهيم:٤٨].

وقال ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لأَحَدٍ**»(١).

وقد ذكر الحشر في القرآن الكريم في أكثر من موضع كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[الكهف:٤٧].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[البقرة:٢٠٣].

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[الملك:٢٤].

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[سورة ق:٤٤].

ويحشر كل من يحتاجون إلى الفصل بينهم من أنس، وجن، وبهائم، ووحوش، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[التكوير:٥]، وقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الفرقان[١٧]، وقوله ﷺ: «حتى يقضى للشاة الجماء من الشاة القرناء».

ويُحشر الناسُ يوم القيامة حُفاة عُراة، ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**» قُلْتُ:

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين ٤/ ٢١٥٠ العفراء: البيضاء إلى حمرة التي لم توطأ، قرصة النَّقِيِّ: الدقيق الحواري، والحواري هو لباب الدقيق، ليس فيها علم: أي علامة كبناء أو أثر.

يَا رَسُولَ اللهِ، النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ».

وفي رواية أنه أجابها بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]، وفي هذا المحشر تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سُكارى وماهم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد، ويَعْظُم الهول، ويشتد الكرب، وتدنو الشمس من الرؤوس، كما ورد في الحديث عن المقداد بن الأسود قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ». قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ، أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ، قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا». قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ[(١)].

وأخبر الله عن طول يوم الحشر بأنه كألف سنة مما تعدون، وأخبر بأنه مقدار خمسين ألف سنة، ولا تنافي؛ لأن المقصود بيان طول المدة، كما أن اليوم يختلف باختلاف أحوال الناس، فيرى الكافر أنه كخمسين ألف سنة، ويرى الفاسق أنه كألف سنة، ويرى المؤمن أنه أخف من صلاة مكتوبة، فقد جاء في مسند الإمام أحمد: «قيل: يا رسول الله، يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا »[(٢)].

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٤/ ٢١٩٦) والحقو: الخِصر.
(٢) المسند (٣/ ٧٥).

وهناك أقوام لا يشعرون بهول هذا اليوم؛ لأن الله يُظِلّهم في ظله يوم القيامة، ذكرهم الرسول ﷺ في قوله: «**إمامٌ عادِلٌ، وشابٌّ نَشأَ في عبادَة الله، ورجلٌ قلْبُه مُعَلَّقٌ بالمساجِدِ، ورجُلانِ تحابَّا في الله؛ اجْتَمعا عليه وتَفرَّقا عليه، ورجُلٌ دعَتْهُ امْرأَةٌ ذات مَنصبٍ وجَمالٍ فقال: إنِّي أخافُ الله، ورجلٌ تَصدَّق بصدَقَةٍ فأخفاها؛ حتى لا تَعْلَمَ شِمالُه ما تُنْفِقُ يَمينُه، ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضَتْ عيْناهُ**»(١).

فهؤلاء الأصناف السبعة يكونون في ظل عرشه؛ حيث لا ظلَّ لشيء يومها إلا ظلُّ عرشه تعالى، فإضافة الظل إليه إضافة ملك وسلطان.

خامسًا: الشفاعة:

الشفاعة: طلب الخير من الغير للغير، وقد تنسب إلى الله ـ تعالى ـ كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤]، فيكون معناها قبولها وعفوه ـ تعالى ـ عمن يشاء.

وقد ثبتت الشفاعة بالقرآن والسنة، قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلًا﴾[طه:١٠٩].

والشفاعة نوعان: شفاعة سيدنا محمد، وشفاعة غيره:

(١) أما شفاعته ﷺ، فهي عامة وخاصة:

(أ) أما شفاعته العامة: التي هي من خصائصه، فتكون حين يشتد الكرب يوم القيامة، ويتمنى الخلق أن ينصرفوا من الموقف ولو إلى النار، ويقولون: من يشفع لنا عند ربنا ليبدأ الفصل بين العباد؟ ويذهبون إلى الأنبياء ليشفعوا، ولكن كل نبي يعتذر، ويتجه الجمع إلى خاتم الأنبياء، فيقول: أنا لها. أنا لها. فيشفع إلى الله، فيقبل شفاعته، ويبدأ في الفصل بين العباد.

(١) رواه البخارى في الأذان – الفتح (٢/ ١٦٨) والمراد: في ظل عرشه.

وهذه هي الشفاعة العظمى التي اختص بها سيدنا محمد ﷺ، وهي المذكورة في حديث: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي».

وقال ﷺ: «**أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللهِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا حَامِلُ لِوَاءِ الحَمْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حِلَقَ الجَنَّةِ فَيَفْتَحُ اللهُ لِي فَيُدْخِلُنِيهَا وَمَعِي فُقَرَاءُ المُؤْمِنِينَ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَكْرَمُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ وَلَا فَخْرَ**»[(١)].

ويقول ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**»[(٢)].

(ب) **وأما شفاعته الخاصة**: فتكون بإدخال قومٍ الجنةَ بغير حساب، وتكون لمرتكب الكبيرة كما قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي».

ولرفع درجات بعض المؤمنين في الجنة فوق ما يقتضيه ثواب أعمالهم. وتخفيف العذاب عمن يستحقه كعمه أبي طالب، فقد قال عنه ﷺ «**لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ**»[(٣)].

(٢) **وأما شفاعة غيره ﷺ**: فقد ذكرها في قوله: «**يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ**»[(٤)].

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٥٨٧).

(٢) رواه مسلم ك الإيمان (١/ ١٨٩/ ح:٢) رواه الترمذي/ صفة القيامة (٤/ ٦٢٥).

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١/ ١٩٥) وأصل الضحضاح: مارقَّ من الماء على وجه الأرض إلى الكعبين استعير في النار.

(٤) رواه ابن ماجة ك الزهد ب ذكر الشفاعة (٢/ ١٤٤٣).

وفي قوله ﷺ: في حديث الشفاعة الطويل: «فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ»(١).

وفي قوله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أُمَّتِي لَيَشْفَعُ لِلْفِئَامِ مِنَ النَّاسِ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَشْفَعُ لِلْقَبِيلَةِ مِنَ النَّاسِ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَشْفَعُ لِلرَّجُلِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ»(٢).

وفي قوله ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»(٣).

وكل من هؤلاء يشفع على قدر درجته عند الله، قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَشْفَعُ لِلْفِئَامِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْفَعُ لِلْقَبِيلَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْفَعُ لِلْعُصْبَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْفَعُ لِلرَّجُلِ حَتَّى يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ» رواه الترمذي.

وأما قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾[البقرة:٤٨]، فقد استثنى من ذلك العموم الشفاعة بإذنه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾[طه:١٠٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[سبأ:٢٣].

وأما قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[المدثر:٤٨]، فالمقصود بهم الكفار كما يظهر من الآيات التي قبلها قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ

(١) رواه البخاري في التوحيد – الفتح (١٣/ ٤٣١/ح: ٧٤٣٩).
(٢) مسند الإمام أحمد (٣/ ٦٣) و(الفئام) الجماعة الكثيرة، و(القبيلة) الجماعة من أب واحد.
(٣) رواه مسلم في «صحيحه»، كتاب: الجنائز، باب: من صلى عليه أربعون شفعوا فيه (٢/ ٦٥٥/ح:(٥٩) ٩٤٨).

نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا
نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾

[المدثر:٤٢-٤٨].

سادسًا: صحف الأعمال:

بعدما يقبل الله شفاعة المصطفى ﷺ ليبدأ الفصل بين العباد: تُوزع صحائف الأعمال على الخلق، يقول رسول الله ﷺ: **«ما من مؤمن إلا وله كل يوم صحيفة، فإذا طُويت وليس فيها استغفار، طويت وهي سوداء مظلمة، وإذا طويت وفيها استغفار، طويت ولها نور يتلألأ»**.

هذه الصحف اليومية يُوصل بعضها ببعض يوم القيامة، فتصير كتابًا يَضُمُّ كل صغيرة وكبيرة، مما عمل المرء، يقول تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

[الكهف:٤٩].

وورد أن ريحًا تطير هذه الكتب من خزانة تحت العرش، وتسلمها الملائكة لأصحابها، يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾

[الإسراء:١٣، ١٤].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ: فَأَمَّا عَرْضَتَانِ: فَجِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ، وَأَمَّا الْعَرْضَةُ الثَّالِثَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي، فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ»** رواه الترمذي.

أما المؤمن فيأخذ كتابه بيمينه، يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾

[الانشقاق:٧-٩].

ويقول: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾

[الحاقة:١٧-٢٤].

وأما الكافر، فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾[الحاقة:٢٥-٣٧].

ويقول سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾[الانشقاق:١٠-١٥].

سابعًا: الحساب:

هو إطلاع العباد على أعمالهم خيرًا كانت أو شرًّا، قولًا كانت أو فعلًا أو

اعتقادًا، يقول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[غافر:١٧].

ويقول: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[الأنبياء:٤٧].

ويقول ﷺ: «**لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ جَسَمِهِ فِيمَا أَبْلاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا وَضَعَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ**» رواه الدارمي.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَتُؤَدَّنَّ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**»[(١)].

والناس تجاه الحساب ثلاثة أقسام:

قسم يدخل الجنة بغير حساب، وقسم يدخل النار بغير حساب؛ لشدة غضب الجبار عليهم وعِظَمِ ذنوبهم، وقسم يُوقف للحساب.

والحساب منه اليسير والعسير، ومنه السرُّ والجهر، ومنه ما هو بالعدل وما هو بالفضل.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ العَشَرَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ، فَنَظَرْتُ، فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، هَؤُلاءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لا، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلاءِ أُمَّتُكَ،**

(١) رواه مسلم في البر (٤/ ١٩٩٧) والجلحاء التي لا قرن لها، والحديث دليل على حشر البهائم: ولا يلزم من الحشر المجازاة بالثواب أو العقاب.

وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَلا عَذَابَ، قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانُوا لا يَكْتَوُونَ، وَلا يَسْتَرْقُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَامَ إِلَيْهِ عُكَّاشَةُ ابْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ». ورواه الشيخان.

وقال ﷺ: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا ليس عليهم حساب، فقيل له: هلا استزدت ربك؟ فقال: استزدته فزادني ثلاث حثيات بيده الكريمة**».

وعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «**لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[الانشقاق:٧، ٨]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُذِّبَ**»[(١)].

يعني أنه ـ تعالى ـ لو ناقش في حسابه لعبيده؛ لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكنه ـ تعالى ـ يعفو ويصفح، فهو من النقش الذي هو استخراج الشوكة، والمراد من المناقشة الاستقصاء في المحاسبة، والمطالبة بالجليل والحقير، وترك المسامحة، يقال: انتقشت منه حقي، أي: استقصيته.

ويشهد على الناس يوم الحساب: ألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النور:٢٤].

كما يشهد عليهم سمعهم، وأبصارهم وجلودهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[فصلت:١٩، ٢٠]

(١) رواه البخاري ك الرقاق ب من نوقش الحساب عذب – الفتح (١١/ ٤٠٧).

وعن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «**هل تدرون مِمَّ أضحك؟**» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**»[1].

ثامنًا: الميزان:

بعد أن يطلع كل إنسان على صحائف أعماله بما فيها من حسنات وسيئات، يبدأ وزن الأعمال؛ ليعرف العبد مصيره، فالحساب لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها.

وقد ورد وزن الأعمال في الكتاب والسنة، وأجمعت عليه الأمة، فوجب الإيمان به، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾

[الأنبياء:٤٧].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[المؤمنون:١٠٢، ١٠٣].

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾

[القارعة:٦-١١].

(١) رواه مسلم في الزهد (٤/ ٢٢٨٠) (يقال لأركانه) أي: لجوارحه.

والمراد بالموازين: الموزونات، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة، ويمكن أن تكون هناك موازين متعددة بحسب نوع الأعمال، والميزان له كفتان مشاهدتان. ولكن ما الذي يوضع في الميزان؟

المتتبع للأحاديث النبوية يجد أن الذي يوزن هو الأعمال، والعامل نفسه، وصحائف الأعمال، وإليك الأدلة:

(١) فمما يدل على أن الأعمال توزن، وإن كانت أعراضا إلا أن الله يظهرها في صورة قابلة للوزن. فهو على كل شيء قدير:

(أ) عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ**»[١].

ب) قوله ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»[٢].

(٢) ومما يدل على أنَّ العامل نفسه يوزن:

(أ) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**»[٣] وقال: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[الكهف:١٠٥].

(ب) وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ وَكَانَ دَقِيقَ

---

(١) رواه مسلم في الطهارة (١/ ٢٠٣) والطهور بضم الطاء: الفعل الذي هو المصدر، وبفتح الطاء: الماء الذي يتطهر به، وكذا الوضوء والوَضوء.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٧٢).

(٣) رواه مسلم في صفة القيامة (٤/ ٢١٤٧).

السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ» رواه أحمد.

(٣) ومما يدل على أن صحائف الأعمال توزن حديث البطاقة: وهو ما رواه عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْم ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ»، قَالَ: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ» رواه الترمذي.

تاسعًا: الصراط:

بعد ما ينتهي وزن الأعمال والحساب، ويعرف كُلٌّ نتيجةَ عمله، يأخذ الخلق طريقهم إلى النعيم أو الشقاء، فيمرون على الصّراط الذي يوصلهم إلى نهايتهم، قال تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾

[الصافات:٢٣، ٢٤].

والصراط جسر ممدود على ظهر جهنم تَرِده جميع الخلائق ماعدا طائفة من الكفار، يعجل بإلقائهم في جهنم من الموقف.

وقد يراد بالصراط الدين كما في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٦] وقوله سبحان: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:١٥٣] وحديثنا هنا عن الصراط بالمعنى الأول.

واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾[مريم:٧١]، والأظهر أنه المرور على الصراط المستقيم.

وفي الصحيح أنه ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة**» قالت حفصة: فقلت يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال: «**ألم تسمعيه قال:** ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾[مريم:٧٢]».

أشار ﷺ إلى أنَّ ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه، يقال: نَجَّاه الله منهم.

وقد ورد في صفة الصراط ما رواه مسلم في حديث طويل جاء فيه قوله ﷺ: «**ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ**» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «**دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**»[1].

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ١٦٩). يضرب الجسر، أي: يُمَدُّ الصراط، تحل الشفاعة، أي: يؤذن =

وفي رواية له: «وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانَ؟» قَالُوا: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمُ الْمُؤْمِنُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ الْمُجَازَى حَتَّى يُنَجَّى».

وروي أيضًا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بَلَغَنِي أَنَّ الْجِسْرَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعَرَةِ، وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ».

ويمرُّ المؤمنون على الصراط، ونورهم يسعى بين أيديهم، لا يخافون، ولا يتعثرون، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد:١٢].

وروى البيهقي بسنده عن مسروق عن عبد الله قال: «يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» إلى أن قال: «فَيُعْطَوْنَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ الْجَبَلِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ دُونَ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ النَّخْلَةِ بِيَمِينِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى دُونَ ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ ذَلِكَ يُعْطَى نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ يُضِيءُ مَرَّةً وَيُطْفِئُ مَرَّةً فَإِذَا أَضَاءَ قَدَّمَ قَدَمَهُ، وَإِذَا طُفِئَ قَامَ، فَيَمُرُّونَ

=بشفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين، دحض مزلة: بمعنى واحد وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام. الكلاليب: جمع كلوب: وهي حديدة معطوفة الرأس يعلق فيها اللحم، وتوضع في التنور، والحَسَك: شوك صلب، وأجاويد الخيل: من إضافة الصفة إلى الموصوف، وأجاويد جمع أجواد، وهو جمع جواد، وهو الجيد الجرى، والركاب: الإبل واحدتها راحلة من غير لفظها، فناج مسلم إلخ، أي: إنهم ثلاثة أقسام: قسم يسلم فلا يناله شيء أصلًا، وقسم يخدش ثم يُرسل فيخلص، وقسم يكردس، أي: يدفع من الخلف، فيسقط في جهنم.

عَلَى الصِّرَاطِ، وَالصِّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، قَالَ: فَيُقَالُ: انْجُوا عَلَى قَدْرِ نُورِكُمْ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَانْقِضَاضِ الْكَوْكَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالطَّرْفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرَّحْلِ، وَيَرْمُلُ رَمَلًا فَيَمُرُّونَ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ يَجُرُّ يَدًا وَيُعَلِّقُ يَدًا، وَيَجُرُّ رِجْلًا وَيُعَلِّقُ رِجْلًا فَتُصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ، قَالَ: فَيَخْلُصُونَ فَإِذَا خَلَصُوا، قَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْكَ بَعْدَ إِذْ رَأَيْنَاكَ، فَقَدْ أَعْطَانَا اللهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا.

وقد اشتبه الأمر على بعض المعتزلة، فظنوا أن هناك تعارضًا في أوصاف الصراط، فلم يعترفوا به على حقيقته، وصرفوه عن ظاهره، وقالوا: المراد به طريق الجنة وطريق النار.

وقال أهل السنة: إنَّ حقيقة الصراط ممكنة، كما جاءت في الأحاديث النبوية، وليس هناك ما يدعو إلى التأويل، وصرف النصوص عن ظاهرها، واختلاف أوصاف الصراط في الضيق والسعة، إنما هو بحسب أحوال المارِّين عليه، ونحن في الدنيا نشعر بمثل هذا. فعند الاطمئنان النفسي نرى الطريق واضحة واسعة، وعند الحزن والشدة نراها ضيقة مغلقة. والله أعلم.

عاشرًا: الجنة والنار:

(١) **الجنة:** دار الثواب التي أعدَّها الله للمؤمنين الصالحين ولعصاة المؤمنين بعد أن يقضوا ما عليهم في جهنم، أو يعفو الله عنهم، ولأطفال المؤمنين والكافرين الذين ماتوا دون البلوغ، وهي فوق السماء السابعة عند سِدرة المنتهى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾

[النجم:١٣-١٥].

وهي سبع درجات، بعضها فوق بعض: الفردوس، وعدْن، والخُلد، والنعيم، والمأوى، ودار السلام، ودار الجلال، وأفضلها الفردوس.

ولعل هذه الأسماء تطلق عليها كلها، وإن اختلفت درجاتها: فهي الفردوس؛ لأن الفردوس هو البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين.

وهي عدن، أي: إقامة، وهي دار الخلود؛ لخلودها وخلود مَن فيها. وهي جنة النعيم؛ لوجود أنواع النعيم فيها، وهي جنة المأوى؛ لأن أهلها يأوون إليها، وهي دار السلام؛ لأن من دخلها يَسلم من كل أذى، وهي دار الجلال؛ لظهور عظمة الله وجلاله في خلقها.

ودرجاتها كلها متصلة بمقام الوسيلة، والدرجة الرفيعة؛ لينعم جميع أهل الجنة بمشاهدة سيدنا محمد ﷺ.

وهو أول من يدخلها، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ**»[1].

وللجنة ثمانية أبواب روى سَهْل بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ، لا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ**»[2].

ومفتاحها: (لا إله إلا الله) عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَفَاتِيحُ الْجَنَّةِ: شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[3].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ١٨٨).
(٢) رواه البخاري/ صفة أبواب الجنة (٤/ ١٤٥).
(٣) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٢٤٣).

وقد أفاضت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية في وصف نعيم الجنة ولذاتها ففيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وفيها فاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، ويسقون من رحيق مختوم، ومِنْ عينٍ فيها تُسَمَّى سلسبيلًا، وفيها أنهار الماء، واللبن، والخمر، والعسل. ويلبسون الحرير، والسندس، والإستبرق، ويحلون الذهب، والفضة، واللؤلؤ.

وزوجاتهم عذارى أبكار دائمًا، والحور العين لم تمتد إليهن يد.

وقد نزع الله من صدورهم الغِلَّ والسوء، وجعلهم إخوانًا متحابين.

واقرأ القرآن الكريم، والسنة المطهرة، لترى تفاصيل ذلك، وأكتفي بذكر حديث واحد: عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْك، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لا نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**»[1].

(٢) **النار**: دار العذاب المعدَّة للكافرين، وعصاة المؤمنين الذين لم يتوبوا، ولم يعفُ الله عنهم إلى أن يأمر بخروجهم منها إلى الجنة.

وهي دركات بعضها تحت بعض، أعلاها جهنم لعصاة المؤمنين، وتحتها لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، ولجهنم سبعة أبواب، لكل باب منهم جزء مقسوم.

وقد كثُر حديث القرآن الكريم، والسنة المطهرة عما في النار من ألوان العذاب المادي والمعنوي فارجع إليها، واقرأ، واعتبر، واستعذ بالله من النار.

---

(١) رواه مسلم في الجنة (٤/ ٢١٧٦).

وأكتفي بذكر حديث نبوي واحد: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ»[1].

(٣) الجنة والنار موجودتان الآن:

يدل على ذلك قوله تعالى عن الجنَّة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣]، وعن النار: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[آل عمران:١٣١] وقوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[غافر:٤٦]، وقصة آدم وإسكانه الجنة وخروجه منها.

وقد رأى رسول الله ﷺ الجنَّة ليلة الإسراء والمعراج، قال: «ثُمَّ انْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى نَأْتِيَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لا أَدْرِي مَا هِيَ؟ قَالَ: ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ»[2].

وقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا!!» قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ»[3].

وقال ﷺ: «إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ، عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَالْجَنَّةُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَالنَّارُ. قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ الَّذِي تُبْعَثُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[4].

(١) رواه مسلم في الجنة (٤/ ٢٨٤٢).
(٢) رواه مسلم في الإيمان (١/ ١٤٩) والجنابذ جمع جُنبذة وهي القُبَّة.
(٣) رواه مسلم في الصلاة (١/ ٣٢).
(٤) رواه مسلم في الجنة (٤/ ٢١٩٩).

وجاء في خطبته ﷺ في صلاة الكسوف قوله: «رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُلَّ شَيْءٍ وُعِدْتُمْ. حَتَّى لَقَدْ رَأَيْتُنِي أُرِيدُ أَنْ آخُذَ قِطْفًا مِنَ الْجَنَّةِ حِينَ رَأَيْتُمُونِي جَعَلْتُ أَتَقَدَّمُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ».

وقال ﷺ: «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهُ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»[١].

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص:٨٨] فلا يتعارض مع اعتقاد وجود الجنة والنار الآن، ولا يلزم فناؤها؛ لأن المراد من الآية: كل شيء مما كتب الله عليه الهلاك هالك، والجنة والنار خُلقتا للبقاء لا الفناء.

وقيل: كل شيء هالك إلا وجهه، أي: إلا جاهه. كما تقول: لفلان وجه في الناس، أي: جاه. وقيل: إلا وجهه، أي: ذاته تعالى، أو ما أريد به وجهه[٢].

وأما قوله - تعالى - عن امرأة فرعون: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾[التحريم:١١]، فيدل على أنَّ الله يزيد في الجنة ما يشاء لمن يشاء.

وقوله - تعالى - عن الجنة: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، لا يعني عدم وجودها الآن، فليس مُلك الله منحصرًا في السماوات والأرض.

٤) الجنة والنار باقيتان:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

(١) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٥٥) يعلق: يأكل.

(٢) تفسير القرطبي للآية (١٣/ ٣٢٢).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الطلاق:١١]، وقد تكرر وصف القرآن للجنة بالخلود والأبدية في ثماني آيات.

وَوُصِفَتْ النار بالخلود والأبدية في ثلاثة مواضع:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[النساء:١٦٨، ١٦٩].

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾[الأحزاب:٦٤].

- ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الجن:٢٣].

- وأما قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[هود:١٠٦-١٠٨].

فالمقصود بالسماوات والأرض المعلق خلود أهل الجنة والنار على بقائهما سماء الجنة وأرضها، وسماء النار وأرضها، وليس المقصود سماء الدنيا وأرضها؛ لأنهما تبدلتا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[إبراهيم:٤٨].

وأما الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ﴾ فلإعلامهم بأنهم مع خلودهم هم في مشيئته تعالى، لا يخرجون عنها، وأن بقاء الجنة والنار ومن فيهما ليس أمرًا واجبًا لذاته، ولا واجبًا عليه سبحانه، وإنما هو أمر جائز في ذاته تفضل الله به.

فليس الاستثناء لنفي تأبيد الخلود، بل لنفي وجوبه أو أن المشيئة ذكرت على سبيل التبرك، مثل قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح:٢٧]، فذكر المشيئة للتبرك؛ لأن وعده بدخولهم المسجد الحرام حق لا شك فيه.

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ**» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا[١].

حادي عشر: رؤية الله تعالى:

تَعوَّد علماء التوحيد أن يذكروا هذا الموضوع ضمن الحديث عن صفاته تعالى، لا لأنه صفة واجبة لله، ولكن لأنه من الأمور الجائزة على الله تعالى، ولكني فضَّلت أن أجعله بعد الكلام عن الجنة؛ لأنه أفضل نعيمها، وأحبُّ شيء إلى أهلها، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

(١) مذهب أهل السنة:

رؤية الله - تعالى - جائزة من الناحية العقلية في الدنيا والآخرة، وستحدُث للمؤمنين في الجنة، حيث يرون ربهم بأبصارهم بغير إحاطة ولا كيفية.

---

(١) رواه مسلم في الجنة (٤/ ٢١٨٨).

وأما وقوعها في الدنيا فلم تحدُث لغير نبينا محمد ﷺ ليلة المعراج.

قال الإمام مالك: «إنما لم يُر الله في الدنيا؛ لأنه باقٍ، والباقي لا يُرى بالفاني: فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصارًا باقية رأوا الباقي بالباقي».

وأما رؤيته - تعالى - في المنام فجائزة، لكنها رؤية بالقلب من دون تحديد صورة معينة، وإلا لكانت من الشيطان، بخلاف رؤيته ﷺ في المنام فهي حقيقية؛ لأن الشيطان لا يتمثل به.

أدلة أهل السنة:

(١) **قال تعالى:** ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٢، ٢٣]، والنظر إذا تعدى بحرف الجر (إلى) كان معناه المشاهدة بالعين، وقد أضيفت إلى الوجوه التي هي محل البصر؛ ليُفهم أن المراد نظر العين.

(٢) **وقال تعالى:** ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[سورة ق:٣٥]، قال علي بن أبي طالب، وأنس بن مالك: هو النظر إلى وجه الله عز وجل.

(٣) **وقال تعالى:** ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس:٢٦].

فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم، كما قال ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ ﷻ: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ**»(١).

(٤) **وقال تعالى:** ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين:١٥]،

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ١٦٣).

سئل الإمام الشافعي عن هذه الآية فقال: «لما أن حجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا».

(٥) **وعن أبي هريرة**: أن ناسًا قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ**»[١].

والمراد تشبيه الرؤية في الوضوح والظهور، لا تشبيه المرئي بالمرئي. وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيًا.

(٦) واستدل أهل السنة بدليل عقلي مؤداه:

الله موجود، وكل موجود تجوز رؤيته، فالله تجوز رؤيته.

٢- مذهب المخالفين في الرؤية والرد عليهم:

ذهب الخوارج، والشيعة الإمامية، والمعتزلة إلى أن رؤية الله مستحيلة، ولا تقع، وقد استدلوا بما يأتي:

(١) **دليلهم العقلي**: قالوا: للرؤية شروط يستحيل تحقيقها بالنسبة لله تعالى بأن يكون المرئي جسمًا، وفي حيز ومكان، ومقابلًا للرائي، وبينهما مسافة محدودة، وهكذا.

أجاب أهل السنة:

أن هذه الشروط شروط عادية، وليست عقلية، وهي خاصة برؤية

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ١٦٤)، وتضارون - بتشديد الراء - أي: تضارون غيركم بسبب تزاحمكم بسبب الرؤية، وبتخفيفها، أي: هل يصيبكم ضرر أي ضرر.

المخلوقات بعضها لبعض، والله منزه عن ذلك، فيمكن أن يُرى بغير هذه الشروط، بأن يزيد في بصر من شاء من عباده حتى يراه بغير إحاطة ولا كيفية.

(٢) استدلوا بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:١٤٣].

فقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ يفيد نفي رؤيته وامتناعها؛ لأن (لن) لتأبيد النفي.

أجاب أهل السنة:

قولكم: (لن) تفيد تأبيد النفي غير صحيح، لأنها لا تفيده، حتى لو قُيِّدت بالتأبيد، فكيف إذا أطلقت؟ وتأمل قوله ـ تعالى ـ عن الكافرين: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[البقرة:٩٥]، أي: الموت، وقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[الزخرف:٧٧]، أي: يميتنا، فالآية الأولى تفيد أنهم لن يتمنوا الموت، والآية الأخرى تفيد أنهم يتمنونه، فهل أفادت (لن) تأبيد النفي مع وجود (أبدًا) أيضًا؟

ولو كانت (لن) للتأبيد المطلق ما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء محددًا في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف:٨٠]، فثبت أن (لن) لا تقتضي النفي المؤبد.

كما أننا إذا تأملنا الآية جيدًا وجدناها تدل على ثبوت الرؤية، لا على استحالتها وامتناعها، فطلب موسى لها يدل على جوازها؛ إذ كيف يطلب نبي من

الأنبياء أمرًا مستحيلًا؟ ولم يُنكر الله عليه سؤاله، ولو كانت مستحيلة لقال الله: إني لا أرى، أو لا تجوز رؤيتي، أو لست بمرئي، وما قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ وهذا يدل على أنه مرئي، لكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في الدنيا لضعف قُوى البشر فيها. فإن الجبل على الرغم من قوته وصلابته لم يثبت لما تجلى الله له، فكيف بالإنسان الذي خُلق ضعيفًا؟

(٣) استدلوا بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[الأنعام:١٠٣].

قالوا: معنى الإدراك: الرؤية، وقد نفاه الله عنه، فهو لا يُرى.

أجاب أهل السنة:

بأن الإدراك غير الرؤية؛ لأن معناه الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، كما أننا نرى الشمس مثلًا ولا ندركها، أي: لا نحيط بها بأبصارنا، فالله سبحانه يُرى ولا يُدرك، كما أنه ـ سبحانه ـ يُعلم ولا يُحاط به علمًا؛ لكمال عظمته سبحانه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[الشعراء:٦١، ٦٢].

فلم يَنفِ موسى الرؤية، إنما نفي الإدراك، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

كما أن (ال) في كلمة (الأبصار) في الآية للعموم، وتقدُّم النفي على العموم يفيد سلب العموم، فالمعنى لا تدركه جميع الأبصار، بل يراه بعضها دون بعض، فيراه المؤمنون دون الكافرين.

رؤية نبينا ﷺ لربه ليلة المعراج:

انقسم العلماء في هذا الموضوع ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: ينكرون حدوثها.

المذهب الثاني: يثبتونها مع اختلاف في آلتها: أهي العين أم القلب؟

المذهب الثالث: التوقف وعدم الحكم. وهاك التفصيل:

المذهب الأول:

وعلى رأسه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول لمسروق: ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، قَالَ: وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْظِرِينِي، وَلَا تُعْجِلِينِي، أَلَمْ يَقُلِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾[التكوير:٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[النجم:١٣]؟ فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ**» فَقَالَتْ: أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[الأنعام:١٠٣]، أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[الشورى:٥١]؟

قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[المائدة:٦٧].

قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[النمل:٦٥][١].

ونلاحظ من الحديث أنها تصف من أثبت الرؤية بالكذب، وأنه بمنزلة من اعتقد أن محمدًا ﷺ كتم شيئًا مما أوحاه الله إليه، وفي درجة من ادعى علم الغيب.

وتُفسر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[النجم:١٣]، بأن معناه: رأى محمد جبريل، وتستدل على رأيها بآيتين:

الأولى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[الأنعام:١٠٣] وتفسير الإدراك بالرؤية.

الثانية: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾[الشورى:٥١]، فإذا كان لا يكلم البشر إلا بحالة من هذه الحالات فكيف يراه محمد ﷺ؟

المذهب الثاني:

وعلى رأس المثبتين للرؤية ابن عباس فهو يقول: «رآه بفؤاده مرتين»[٢].

ونميل إلى هذا المذهب لأمور:

(١) أن حادث الإسراء والمعراج كان في مكة وكانت عائشة رضي الله عنها آنذاك صغيرة وقد قال معمر بن راشد: ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس، ولما سأل المسروري أحمد بن حنبل: بأي شيء ندفع قول عائشة: قال يقول النبي ﷺ: «رأيت ربي» وقول النبي ﷺ أكبر من قولها.

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/١٥٨).

(٢) الموضع السابق. والمراد أن الفؤاد صار آلة للإبصار كالعين، وليس المراد الرؤية العلمية فليست محل خلاف.

(٢)عائشة تنفي وابن عباس يثبت والمثبت مقدم على النافي وقد صحت الروايات عن ابن عباس بإثبات الرؤية، فيجب إثباتها؛ لأنها ليست مما يدرك بالعقل ويؤخذ بالظن والاجتهاد وإنما مما يتلقى بالسمع من المعصوم ﷺ.

(٣) عائشة لم تنف الرواية بحديث سمعته من رسول الله ﷺ: ولو كان عندها حديث لذكرته.

(٤) اعتمدت عائشة في رأيها على تأويل قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[الأنعام:١٠٣]، وقد سبق بيان أن نفي الإدراك لا يدل على نفي الرؤية، فقد تحدث من دون إحاطة.

(٥) كما استدلت بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾[الشورى: ٥١]، لكن يجوز أن تحدث الرؤية من غير كلام.

المذهب الثالث:

التوقف عن الجزم بأحد الرأيين؛ لعدم وجود دليل قاطع، وخاصة أنها مسألة عقدية، وليست عملية فقهية يكتفى فيها بالأدلة الظنية، بل لا بد من الأدلة اليقينية القطعية.

الفصل الثامن

الإيمان بالقضاء والقدر

القضاء في القرآن الكريم:

وردت مادة (ق ض ى) في القرآن في (٦٣) موضعًا تدور حول عدة معان؛ منها:

١) جاءت بمعنى الإرادة قال تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٤٧] أي: إذا أراد أمرًا.

٢) وجاءت بمعنى الحكم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾[غافر:٢٠] أي: يحكم، وقال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[يونس:٤٧] أي: حُكِم.

٣) وجاءت بمعنى الخلق، قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت:١٢] أي: خلقهن.

٤) وجاءت بمعنى الأداء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[النساء:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾[البقرة:٢٠٠]، أي: أديتم.

٥) وجاءت بمعنى الإخبار، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[القصص:٤٤] أي: أخبرناه.

٦) وجاءت بمعنى الإتمام والإكمال، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾[القصص:٢٩] أي: أتمه، وقال تعالى: ﴿لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾[الأنفال:٤٤] أي: يتمه.

٧) وجاءت بمعنى الموت أو القتل، قال تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾[القصص:١٥]، أي: قتله. وقال تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾[الزخرف:٧٧]، أي: يميتنا.

٨) وجاءت بمعنى التقدير والتحديد، قال تعالى: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾[مريم:٢١] أي: أمرًا مقدَّرًا محددًا.

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم:٧١].

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ﴾[الأنعام:٢].

القدر في القرآن الكريم:

وردت مادة (ق د ر) في القرآن في (١٣١) موضعًا، تدور حول عدة معان؛ منها:

١) **وردت بمعنى العظمة والشرف**، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر:١]، وقال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾[الأنعام:٩١] أي: وما عظموه.

٢) **ووردت بمعنى التضييق**، قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾[الأنبياء:٨٧] أي: أن لن نضيق عليه، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾[الرعد:٢٦]، وقال: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾[الفجر:١٦] أي: ضيق.

٣) **ووردت بمعنى العلم**، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾[الحجر:٦٠] أي: علمنا.

٤) **ووردت بمعنى القدرة،** قال تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات:٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾[البلد:٥].

٥) **ووردت بمعنى المقدار** قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣]، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩]، وقال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر:٢١].

٦) **وجاءت بمعنى القضاء والكتابة في اللوح المحفوظ** قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[الأحزاب:٣٨]، وقال: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[القمر:١٢]، وقال: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠]، وقال: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾[طه:٤٠].

تعريف القضاء والقدر:

القضاء: إرادة الله ـ تعالى ـ للأشياء في الأزل حسب علمه، وكتابته ذلك في اللوح المحفوظ.

والقدر: إيجاده ـ تعالى ـ للأشياء طبقًا لما علمه أزلًا وأراده.

فالقضاء في الأزل، والقدر فيما لا يزال؛ لأن القضاء وجود جميع المخلوقات في اللوح المحفوظ مجتمعة، والقدر وجودها في أوقاتها التي حددها الحق لها بأوصافها ومقاديرها وشروطها.

والإيمان بالقضاء والقدر يتضمن الأمور الآتية:

١) الإيمان بعلمه ـ تعالى ـ بما سيكون قبل أن يكون.

٢) الإيمان بمشيئته العامة وإرادته الشاملة لكل الموجودات.

٣) الإيمان بكتابته كل شيء في اللوح المحفوظ.

٤) الإيمـان بإيجـاده ـ تعـالى ـ لكـل المخلوقـات حسـب علمـه، وإرادتـه، وكتابته.

حكم الإيمان بالقضاء والقدر:

الإيمان بالقضاء والقدر واجب؛ لأنه الركن السادس من أركان الإيمان التي حددها الرسول ﷺ عندما أجاب جبريل عن معنى الإيمان، ومن الآيات القرآنية التي تشير إلى القضاء والقدر وكتابته في اللوح المحفوظ:

- ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾[يس:١٢].

- ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾[الواقعة:٧٧، ٧٨].

- ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾[البروج:٢١، ٢٢].

- ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[التوبة:٥١].

- ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾[الحديد:٢٢].

ومن الأحاديث النبوية التي تبين ضرورة الإيمان بالقضاء والقدر.

١) قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي» رواه أبو داود في سننه.

٢) عن عبد الله بن عمر قال، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ، أَوِ الْكَيْسِ وَالْعَجْزِ» رواه مسلم، العجز: الضعف، والكيس: النشاط.

٣) عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَاب ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا» متفق عليه.

٤) وعن أبي العباس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ» رواه الترمذي.

الرضا بالقضاء والقدر:

إذا كان المسلم مأمورًا بالإيمان بقضاء الله وقدره، فهل يستلزم ذلك الرضا بكل ما قضى الله وقدر ومنه الكفر والمعاصي والآثام والشرور؟

ونجيب بأن القضاء له جهتان:

الأولى: كونه فعل الله ومنسوبًا إليه، وهو من هذه الجهة كله خير وعدل وحكمة. فإذا نظرنا إلى هذه الجهة وجب أن نرضي بالقضاء كله، مع ما فيه من كفر ومعصية؛ لأن ذلك من آثار الأسماء الحسنى، ومستلزمات الصفات العليا.

الثانية: كونه فعل العبد اختيارًا واكتسابًا. وهو من هذه الجهة ينقسم قسمين؛ قسم ترضى به، وقسم لا ترضى به.

فنرضى بالإيمان والطاعات والمصائب التي ليست ذنوبًا؛ من فقر، ومرض، وابتلاء.

ونسخط ونكره الكفر والمعاصي، ونبغض كل المنكرات، ولا نرضى عنها.

هل يجوز الاحتجاج بالقدر؟

الاحتجاج بالقدر منه ما هو جائز شرعًا، ومنه ما هو ممنوع.

أولًا: الاحتجاج الجائز:

يجوز الاحتجاج بالقدر في الحالات التي لا يكون فيها إبطال للشرع، ولا معارضة له؛ وذلك بأن يكون الاحتجاج بالقدر بعد وقوع الذنب، وبعد التوبة منه، فيكون في ذكر القدر عندئذ اعتراف به، وتثبيت للإيمان به، فيكون من باب الإخبار بالواقع فقط.

ومن هذا النوع ما روي في الصحيح: عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «حَاجَّ مُوسَى آدَمَ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشْقَيْتَهُمْ؟ قَالَ: قَالَ آدَمُ: يَا مُوسَى، أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ؟

أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي، أَوْ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى».

هنا أقر سيدنا محمد احتجاج آدم بالقدر، وحكم له بمحاجة موسى؛ لأن احتجاج آدم بالقدر كان بعد وقوع المعصية، وبعد التوبة منها، قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[طه:١٢١، ١٢٢]، وليس في احتجاج آدم بالقدر معارضة للشرع.

ومن هذا النوع أيضا احتجاج علي بن أبي طالب بالقدر في ترك قيام الليل عندما طَرَقَهُ رسول الله ﷺ هو وَفَاطِمَةَ ليلًا، فَقَالَ: «**أَلَا تُصَلُّونَ؟**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ، يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَيَقُولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[الكهف:٥٤][(١)].

فعليٌّ رضي الله عنه لم يحتج بالقدر على ترك واجب، ولا فعل محرم، إنما قال: إن نفسه ونفس فاطمة بيد الله، فإذا شاء أن يوقظهما ويبعث أنفسهما بعثهما، وهذا موافق لقول رسول الله ﷺ ليلة ناموا في الوادي: «**إن الله قبض أرواحنا حين شاء، وردها حين شاء**»[(٢)] وهذا احتجاج صحيح صاحبه يعذر فيه؛ فالنائم غير مفرط، واحتجاج غير المفرط بالقدر صحيح.

وقد أرشد النبي ﷺ إلى الاحتجاج بالقدر في الموضع الذي ينفع الاحتجاج به، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (١/ ٥٣٨).

(٢) موطأ الإمام مالك (صـ١٤) برقم: (١) رواه البخاري في مواقيت الصلاة من الفتح (٢/ ٨٠/ ح:٥٩٥).

وَلا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[1].

ثانيًا: الاحتجاج الممنوع:

هو الاحتجاج بالقدر في حال ارتكاب الذنب، والإصرار عليه، أو في حال العزم على فعله في المستقبل، أو في حال ترك الأمر الواجب، أو العزم على تركه.

ومن هذا النوع احتجاج المشركين والكفار بالقدر؛ تبريرًا لشركهم وكفرهم؛ وقد ذكر القرآن زعمهم، واستنكر صنيعهم. قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾

[الأنعام:١٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[الزخرف:٢٠].

هكذا أنكر الله عليهم احتجاجهم بالقدر، وزعمهم أن مشيئة الله الشرك دليل على رضاه منهم، فعارضوا الشرع بذكر القضاء والقدر، ولم يذكروه على جهة الإقرار به، والإذعان له.

وقد احتج سارق على عمر رضي الله عنه بالقضاء والقدر، وقال: أنا سرقت بقضاء الله وقدره، فقال عمر: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره.

(١) رواه مسلم في القدر (٤/ ٢٠٥٢).

فوائد الإيمان بالقضاء والقدر:

(١) لقد كان إيمان المسلمين بعقيدة القضاء والقدر سببًا في تقدمهم في جميع مجالات الحياة، حتى سادوا الدنيا كلها في مدة وجيزة أشبه ما تكون بالأحلام، ويوم أن ضعف الإيمان بعقيدة القضاء والقدر تأخر المسلمون، وأصبح حالهم على ما نراه الآن.

هذه حقيقة لا بد من الإلمام بها، والانتباه إليها، والوقوف لدراستها.

إن إيمان المسلم بأن ما شاء الله كان، وما قدر فعل، وإيمانه بتحديد الآجال، وضمان الأرزاق، وأنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، إن إيمانه بذلك دفعه إلى الإقدام والشجاعة، والجرأة والبسالة، فكان المسلمون رهبانًا في الليل، فرسانًا بالنهار، لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها!!

قيل لقتيبة بن مسلم: إنك توغلت في أرض الترك، والأيام على جناح طائر، فقال: بثقتي بالله تقدمت، وإذا انتهت المدة لم تنفع العدة!!

إن إيمان خالد بن الوليد بالقضاء والقدر هو الذي جعله يحقق هذه البطولات العظيمة، وهذه الانتصارات الضخمة في مدة قصيرة، تشبه المعجزات، فلا مجال للخوف أو الجبن، أو الفزع أو الحزن، فقول الحق: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١] كان شعاره.

وعلى رغم من هذه الجسارة الفريدة من ابن الوليد فإنه لم يمت وسط المعارك، إنما مات على فراشه وهو يردد قولته المشهورة: «لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم،

أو طعنة برمح، وهأنذا أموت على فراشي حتف أنفي، فلا نامت أعين الجبناء»[1].

(٢) وكان لعقيدة القضاء والقدر الأثر الواضح في نبوغ علماء المسلمين في فروع العلم المختلفة، فماذا يمنع المسلم من أن يغامر ويلاحظ وأن يجرب ويختبر، ويقضي الساعات الطويلة في المعامل، ووسط الأجهزة والمخابر؛ ليكشف سنن الله في كونه بعزيمة قوية، لا تعرف التردد، لإيمانه بأن أمر المؤمن كله خير؛ كما قال ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[2].

وكان نتيجة ذلك أن ظهر أمثال: (جابر بن حيان) في مجال الكيمياء، فهو أول من استحضر حامض الكبريتيك، واكتشف حامض النيتريك، والصودا الكاوية، واستخدم ثاني أوكسيد المنجنيز في صناعة الزجاج.

وأمثال (الحسن بن الهيثم) أستاذ البصريات الذي ألف في الرياضة خمسة وعشرين كتابًا، وفي الطبيعة أربعة وأربعين كتابًا.

وأمثال (البيروني) الذي يقول عنه المستشرق الألماني سخاو: «البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ، فقد كان أديبًا متعمقًا في الرياضيات، والفلك، والتاريخ».

وأمثال: ابن سينا في الطب، وابن البيطار في الصيدلة، والخازن في الضوء،

(١) السيرة النبوية للشيخ عبد المقصود نصار، والشيخ الطيب النجار (٤/ ٧٠).
(٢) رواه مسلم في الزهد (٤/ ٢٢٩٥).

واليوزجاني وابن يونس وعباس بن فرناس في الفلك، والخوارزمي وابن فضلان والمسعودي والمقدسي في الجغرافيا والطيران.

وأمثال: موسى بن نصير أول من اخترع الدبابة، وابن خلدون المؤرخ الذي أسس علم الاجتماع، وعلم الاقتصاد.

(٣) وكانت هذه العقيدة سببًا في الهدوء النفسي، والطمأنينة القلبية، فلم يظهر ما يسمى بالعقد النفسية، أو الأمراض العصبية، أو حوادث الانتحار، وقارن ذلك بما تقرأه عن الدول الأوروبية والأمريكية التي تدعي الحضارة والعصرية.

إن المسلم بإيمانه بهذه العقيدة نراه متفائلا دائما، راضيًا بما قسم الله، لا يعرف التشاؤم سبيلًا إلى قلبه، ولا اليأس طريقًا إلى نفسه، ولا يملك التحسر ـ على ما فاته من أمور الدنيا ـ عليه كيانه؛ فيشل حركته، ويميت نشاطه؛ لأنه يضع نصب عينيه قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢١٦].

(٤) والإيمان بعقيدة القضاء والقدر يدفع المسلم لأن يكون كريمًا سخيًّا جوادًا ودودًا، ولهذا أثره في تكافل المجتمع وتماسك كيانه.

الإنسان مخير أم مسير:

كان رسول الله ﷺ يكره المراء في الدين، والجدال بين المسلمين، خاصة في المسائل العويصة التي تضيع الوقت، وتبدد الجهد، وتفرق الجمع، ولا يتسنى للعقل البشري أن يقول فيها القول الفصل، والرأي الذي لا ينقضه رأي؛ لأنها فوق مستواه، أو أعلى من مداه.

ومن هذه المسائل مسألة القدر، أو الإنسان مخير أم مسير، مجبر أو مختار؟

وقد جاءت أحاديثه الشريفة تبين ذلك:

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم، وهم يتراجعون في القدر، فخرج مغضبًا حتى وقف عليهم فقال: «**يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتاب بعضه ببعض وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضًا، ما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به**» رواه الإمام أحمد.

وعن أبي هريرة قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي القَدَرِ فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ، فَقَالَ: «**أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الأَمْرِ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَنَازَعُوا فِيهِ**» رواه الترمذي.

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الجَدَلَ**»، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف:٥٨]رواه الترمذي.

هكذا كانت توجيهاته ﷺ؛ لأن هذه المسألة من المسائل التي تحير العقول، وقد تحيرت العقول فعلًا، فتعددت فيها المذاهب، وتباينت فيها الآراء، **وهي في جملتها تكاد ترجع إلى رأيين:**

أولًا: رأى الجبريين:

وهم يرون أن الإنسان مجبر في أفعاله، لا إرادة له ولا اختيار، ولا قدرة، إنه أشبه بالريشة المعلقة في الهواء، تحركها الرياح كيف تشاء.

واستدلوا على رأيهم بالعقل قالوا: لو كان للإنسان قدرة واختيار في خلق أفعاله لكان شريكًا لله في الخلق، وهذا مستحيل.

واستعانوا ببعض الآيات القرآنية؛ مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[الأنعام:١٠٢].

وقولـــــه ســـــبحانه: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأنعام:٣٩].

ثانيًا: رأي الاختياريين:

وهم يرون أن الإنسان مختار في أفعاله الاختيارية بخلاف الاضطرارية التي لا دخل له فيها، وله القدرة على تنفيذ ما اختاره وأراده.

واستدلوا على رأيهم بالعقل فقالوا:

لو لم يكن العبد مختارًا وله قدرة على الفعل والترك لكان تكليفه بالشرع عبثًا من الله، والله منزه عن العبث، ولما استحق الإنسان المدح أو الذم على أفعاله، والثواب أو العقاب عليها.

واستعانوا ببعض الآيات القرآنية؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف:٢٩].

وقولـه تعـالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة:٧، ٨].

وعرض المشكلة بهذه الصورة لا يمكن أن يوصل إلى الرأي الذي يطمئن إليه القلب، ويقنع به العقل.

وتأمل ما يقوله الدكتور عبد الحليم محمود رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«لقد شغلت مسألة القدر، أو الجبر والاختيار، أو أفعال العباد عقول

الإنسانية منذ أن كان الدين، أي: منذ ابتداء تاريخ الإنسان على ظهر الكرة الأرضية.

وإذا أثيرت مسألة القدر في أي وسط كان ـ مهما كان قليل العدد ـ فإنها تقسمه إلى قسمين: يقول أحدهما بالجبر، والآخر يقول بالاختيار.

لقد أثارها اليهود في دينهم، ففرقت بينهم، وقال بعضهم بالجبر، وقال الآخرون بالاختيار.

وأثيرت في الديانة النصرانية على مجرى التاريخ، فكان النزاع، وكان الجدل، وكان التحيز لرأي والتعصب له، وانقسم رجال المسيحية إلى فريقين يختصمان.

وأراد رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن يتلافى انشقاق الأمة بسبب إثارة هذه المشكلة، فكان ينهى دائمًا عن إثارتها، وعن الجدال فيها.

ومضى رسول الله ﷺ راضيًا مرضيًّا، وهو لا يسمح حتى النفس الأخير من حياته الشريفة بأن تثار هذه المسألة.

ولم تثر هذه المسألة في عهد سيدنا أبي بكر؛ لانشغال المسلمين بتوطيد دعائم الأمة الإسلامية منصرفين بذلك عن العبث في دين الله.

وكانت درة سيدنا عمر كفيلة برد كل من تحدثه نفسه بإثارة هذه المشكلة إلى جادة الصواب.

ومسألة القدر إذن من المتشابه، إنها من أهم مسائل المتشابه.

وهي فضلًا عن ذلك عصية على الحل، إنها ليست قابلة للحل، وهي ليست

قابلـة للحـل سـواء أثيـرت في الشـرق أو الغـرب، وسـواء أثيـرت في القـديم أو الحديث، أو أثيرت في البادية أو في الحضر، إنها مُفَرِّقة بين الباحثين فيهـا، ومهمـا طال الجدل فسوف لا ينتهون إلى نتيجة، ومن أجل ذلك كانت الروح الإسلامية العامة تحرم الخوض فيها.

ومـع ذلـك فقـد بـدأت هـذه المشـكلة تتسـلل شـيئًا فشـيئًا إلـى المجتمـع الإسلامي، حتى لقد احتلت يومًا ما مركز الصدارة في الفكر الإسلامي النظري.

ولقـد مهـدت السياسـة أولا لهـذا التسـلل، وكانـت السياسـة أول عامـل مـن عوامل إفساد التفكير النظري الديني في المجتمع الإسلامي السليم».

هكذا وضح لنا أن هذه المسألة من الناحية العقلية:

- عَصِيَّة على الحل.
- مضيعة للوقت.
- مبددة للجهد.
- مفرِّقة للجمع.

أما الآيات القرآنيـة فيجـب أن تفهـم علـى ضـوء أن الإنسـان يحيـا بيـن جـبر واختيـار، وأن الخـالق قـد منحـه إرادة بهـا كـان التكليـف، وعليهـا يكـون الجـزاء، ولا يعني أن الله يعين الإنسان على اختياره عدم مسئوليته عما يفعل.

ويحدث الخطأ في فهم الآيات القرآنية عندما تُؤخذ آيـة، وتُغفـلُ أخـرى، أو يستدل بجزء من آية، ولا يلتفت إلـى باقيهـا ومـن المعلـوم أن القـرآن يفسـر بعضـه بعضًا.

فإذا أردنا أن نفهم مثلًا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾[الزمر:٣٦، ٣٧]، فلا بد أن يكون فهمنا لهذه الآية في ضوء الآيات الأخرى:

- فنفهم قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾[الزمر:٣٦] في ضوء قوله تعالى:

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[إبراهيم:٢٧].

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾[غافر:٣٤].

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[غافر:٧٤].

- ونفهم قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾[الزمر:٣٧] في ضوء قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[محمد:١٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾[يونس:٩].

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى﴾[مريم:٧٦].

وإذا أردنا أن نفهم قوله تعالى:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[الأنعام:١٢٥]، فعلينا أن نتنبه إلى نهاية هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[الأنعام:١٢٥]، فعدم إيمانهم، ورفضهم الإسلام

باختيارهم، كان السبب في جعل الرجس عليهم، فكان الضيق والحرج في الصدور نتيجة لذلك.

بهذا القدر يجب أن تبحث مسألة الجبر والاختيار، أو الإنسان مخير أم مسير، ولا داعي للتنطع والتقعر ما دامت أن هذه المسألة عَصِيَّةٌ على الحل العقلي المجرد.

ولذلك لما جاء رجل إلى سيدنا علي بن أبي طالب يقول: يا أمير المؤمنين، أخبرني عَن الْقدر، فَقَالَ: طَرِيق دَقِيق لَا تمش فِيهِ، فَقَالَ: يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ، أَخْبرنِي عَن الْقدر، فَقَالَ: بَحر عميق لَا تخض فِيهِ، فَقَالَ: يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ، أَخْبرنِي عَن الْقدر، فَقَالَ :سِرٌّ خَفِي لله لَا تُفشه.

ويقول الإمام علي رَضِّوَلِلَّهُعَنْهُ: «إن الله أمر تخييرًا، ونهى تحذيرًا، وكلَّف تيسيرًا، ولم يُعصَ مغلوبًا، ولم يُرسل الرسل إلى خلقه عبثًا، ولم يخلق السماوات والأرض باطلًا، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار».

وقال الإمام أبو حنيفة عن القدر: «هذه مسألة قد استعصت على الناس، فأنى يطيقونها هذه مسألة مقفلة، قد ضل مفتاحها».

ويقول الإمام جعفر الصادق رَحِمَهُٱللَّهُ: «إن الله ـ تعالى ـ أراد بنا شيئًا، وأراد منا شيئًا، فما أراده بنا طواه عنا، وما أراده منا أظهره لنا، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا».

ويقول: «الناظر في القدر كالناظر في عين الشمس، كلما ازداد نظرًا ازداد حيرة».

وعن وهب بن منبه أنه قال:«نظرت في القدر فتحيرت، ثم نظرت فيه

فتحيرت، ووجدت أعلم الناس بالقدر أكفهم عنه، وأجهل الناس بالقدر أنطقهم به».

ونختم هذا البحث بحديث لسيدنا رسول الله ﷺ يقول فيه:

«ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا» رواه الطبراني، ورمز له السيوطي بالحسن هذا التوجيه النبوي الشريف هو الفصل - فيما نرى - في مسألة (الإنسان مخير أم مسير) والله أعلم.

* * *

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

مطابع الأزهر
Azhar.press@yahoo.com

٧

AL AZHAR AL SHARIF

الأزهر الشريف

مجمع البحوث الإسلامية

إن مجمع البحوث الإسلامية هو أحد الهيئات العلمية للأزهر الشريف يقوم على تحقيق كل ما يخدم المصلحة العامة للمسلمين، ويجمع كلمتهم، ويعمل على تحقيق الأمن والاستقرار، والتعايش السلمي، كما يعمل المجمع على تحقيق رسالة الأزهر في توعية الناس وتبصيرهم بحقائق هذا الدين، وتصحيح المفاهيم المغلوطة، وبيان سماحة ووسطية الإسلام، وأهمية فهم النصوص الشرعية مع فهم الواقع.

ومن هنا تأتي رؤية المجمع في اعتنائه بقضايا المجتمع الإسلامي؛ لجمع الكلمة بين المسلمين، وتحقيق التعايش السلمي بين الناس، وتجديد الثقافة الإسلامية وتجليتها في جوهرها الأصيل، وبحث القضايا المعاصرة، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

مطابع الأزهر
AL-AZHAR PRESSES